

الوجيز

في سيرة الملك عبد العزيز

تأليف

خير الدين الزركلي

لخصه من كتابه «شبه الجزيرة في حياة الملك عبد العزيز» وأضاف اليه استدراكات

الطبعة الثانية

الإهـــداء

إلى حضرة صاحب الجلالة الملك فيصـــل بن عبد العزيز آل سعود ، المعظم

قبلتَ مني ، أيدك الله وصانك وقوّاكَ ، كتابي الأول عن شبه الجزيرة في عهد والدك العظيم عبد العزيز ، وأحللته من رعايتك المكانة التي أمّلتُها له .

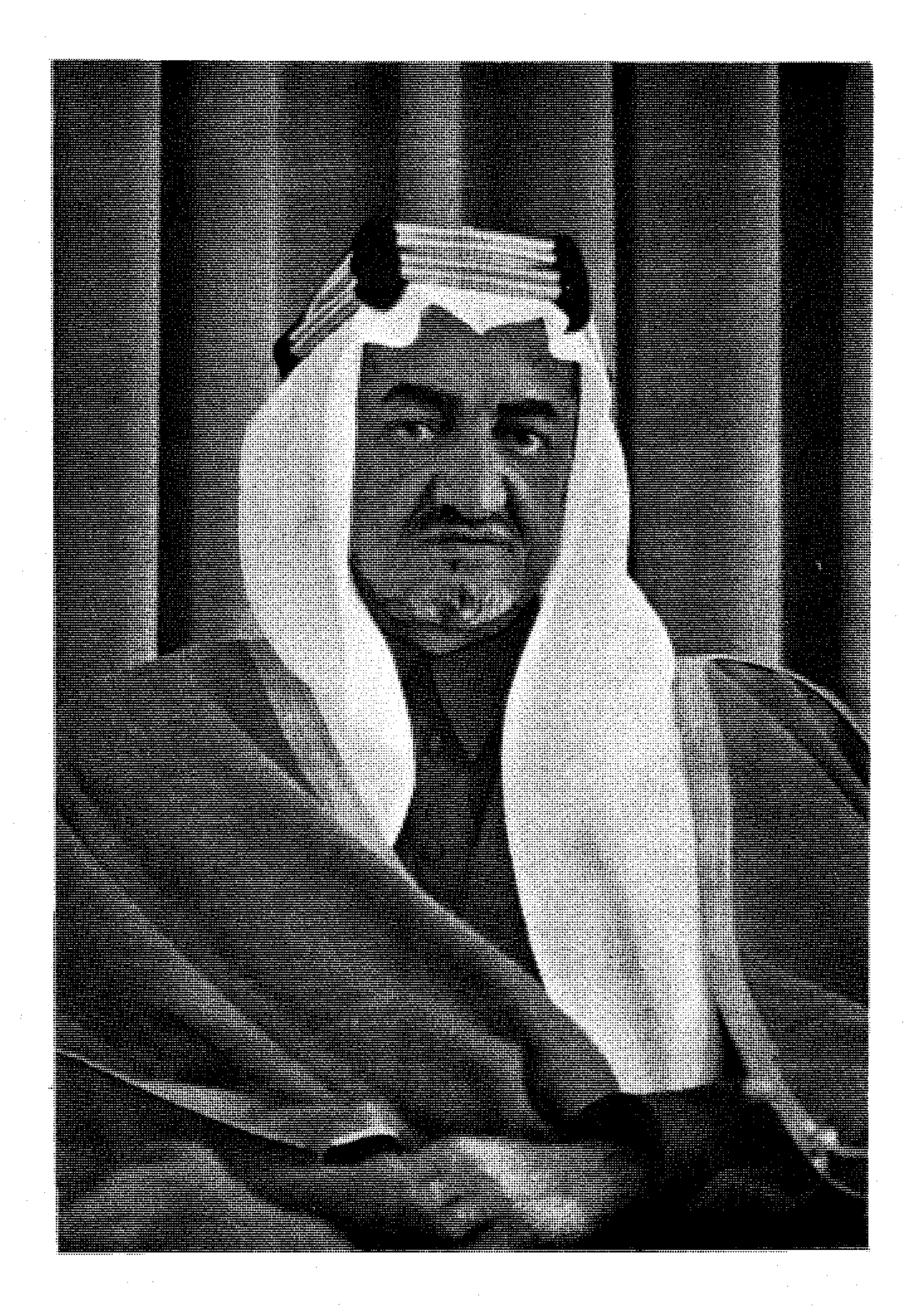
فأْذَنْ لي ، أطال الله عمرك وأدام ظلّك ، في أن أجعل هديتي الثانية إلى خزانتك العامرة ، موجز ما أسهبت به في الأولى ، لعلّه أيسر للتناول وأقرب بين يديك الكريمتين للتداول .

إن في سيرة عبد العزيز لخصائص ، أنت يا صاحب الجلالة أعلم الناس بمغازيها ومراميها ، وأقدرهم على جعلها نُصب عيون شعبك يستهدي بهديها ويستضيء بنبراسها .

وإنّ إقبال جلالتك على المتبارين في عَرْض سيرة أبيك ، بسطاً وإيجازاً ، لإحسان منك إلى من يتلقّاها بالدرس والإمعان ، وبرٌّ منك بأبيك ؛ وأيَّ برّ !

خير الدين

بسم الله الرحمن الرحيم



صاحب الجلالة الملك فيصل المعظم



مقــدمة

أما وقد دوّنتُ ما وقفت عليه ، أو وُفّقت إليه ، من تاريخ « شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز » وجاء على شيء من الإسهاب لا يتسع وقت الطالب الدارس ، لاستيعابه ؛ فكان عليّ أن أضع للناشئة الواعية موجزاً يتدارسونه ، ويرجع إليه المُعْجَل منهم ومن غيرهم ؛ يصوّر لهم حياة عبد العزيز صورة صحيحة كالأولى ، لا زُلفى في وضعها ولا باعث إليها إلا خدمة التاريخ في شخص رجل من كبار رجاله ؛ فاكتفيت عن الكثير بالقليل ، وبالخلاصة عن التفصيل ، وسمّيته « الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز » راجياً ألاّ أكون قد أخللت في الإيجاز ولا أمللت في البسط ، ومن الله وحده العون .



عبـــد العزيز

في النصف الأخير من رمضان ١٣٠٨ (أواخر نيسان ، ابريل ١٨٩١ م) كانت تضرب في الصحراء قافلة خرجت من الرياض ، مشرّقةً ، في ميْل قليل إلى الشمال ، وعلى بعير منها فتى في الخامسة عشرة من عمره ، عليه « صُمادة » بيضاء مطرزة ، وهو يسأل : في أي أرض نحن ؟ ويجاب : نحن في « الدهناء » يا عبد العزيز !

، ، ،

عبد العزيز ، هو الملك المصَنَّف باسمه هذا الكتاب ، ابن عبد الرحمن ابن فيصل بن تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود (جدّ الأسرة) بن محمد ابن مُقْرن بن مَرْخان بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع المريدي .

وعند « مانع المريدي » هذا ، وقف ثقات النسّابين ، في أسلاف الملك عبد العَزيز.

مانع وبنوه

كان مانع من سكان بلد قرب القطيف يسمى بلد الدروع نسبة إلى آل دِرع ، حكام نواحي القطيف . ومنهم حكام « حَجْر اليمامة » التي قامت على أنقاضها ، فيما بعدُ ، مدينة الرياض . وانتقل بأهله ورجاله من جوار القطيف ، إلى « مرتفَع » في وادي حنيفة أنزله فيه بعض أبناء عمومته من أصحاب حَجْر اليمامة . وبنى هو ومن كان معه مساكن فيه ، من

اللبِن والحجارة المركزة على الطين ، وسموه « الدرعية » على اسم بلدتهم الأولى .

ولما توفي مانع خلفه ابنه « ربيعة بن مانع » فترأس أهل البلد .

وتكاثر سكان الدرعية ، فأراد ربيعة توسعة رقعتها بالاستيلاء على جانب من أراضي آل يزيد (من بني حنيفة) وكانت لهم قريتا « النُعْمية » و « الوَصيل » المجاورتان للدرعية ، فدفعوه عنهم ، فقاتلهم .

وقوي ابنٌ لربيعة ، اسمه « موسى » فاستولى على الإمارة في أيام أبيه . واستقر في الحكم وقضى على شوكة جيرانه آل يزيد ، ودمّر منازلهم وأجلاهم عن قريتيهم وألحقهما بأراضي الدرعية .

وحكم بعده ابنه « ابراهيم بن موسى » ثم ولده « مرخان بن إبراهيم »

وبعد وفاة مرخان ، تأمر ابناه ربيعة ومقرن ، مشتركين .

وتداول الإمارة بعدهما ، ابناهما وطبان بن ربيعة بن مرخان ، ومرخان ابن مقرن بن مرخان . ثم ناصر بن محمد بن وطبان ، فمحمد بن مقرن ، فإبراهيم بن وطبان ، فإدريس بن وطبان ؛ إلى أن كانت أيام موسى بن ربيعة بن وطبان ، سنة ١١٢١ ، وخلعه أهل الدرعية سنة ١١٣٢ (١٧٢٠ م) فتولاّها سعود (الأول) بن محمد بن مقرن وتوفي سنة ١١٣٧ (١٧٢٥ م)

وبعد وفاته ، خلفه أكبر رجال الأسرة سناً ، زيد بن مرخان بن وطبان ، وقتل سنة ١١٣٩ (١٧٢٦ م)

وتولى محمد بن سعود بن محمد بن مقرن .

ابن عبد الوهاب

وفي أيامه ظهرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، في العيينة . وهو من أهلها . وخرج منها مضطراً ، وسكن الدرعية سنة ١١٥٨ (١٧٤٥ م) وأكرمه أميرها محمد بن سعود ، وعاهده على إقامة شرائع الإسلام والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر . ولا مجال هنا للإفاضة في دعوة الشيخ ، وما كان لها من عظيم الأثر ، وقد وُضعت فيها تصانيف .

قال الشوكاني : قام محمد بنصر العلاّمة محمد بن عبد الوهاب الداعي إلى التوحيد ، المُنكِر على المعتقدين في الأموات . وما زال يجاهد من يخالفه وكانت تلك البلاد قد غلبت عليها أمور الجاهلية وصار الإسلام فيها غريباً .

الإمـــامة

وفي عهد محمد بن سعود هذا ، ابتدأ دور « الإمامة » في بيت آل سعود . وكان رؤساؤهم يُدعون بالشيوخ أو الأمراء وظلّ محمد كذلك أكثر من عشرين عاماً من إمارته . وإنما دعي بالإمامة ، بعد اصطباغ سياسته وحروبه بالصبغة الدينية الخالصة .

والمرةُ الأولى التي دعاه فيها المؤرخ ابن بشر ، بالإمام ، كانت في حوادث ١١٦٦ (١٧٥٣ م) ولقب بعده ابنه عبد العزيز ، بالإمامة . ولزم لقب « الإمام » من خلَفه من آل سعود إلى اليوم .

وكانت وفاة محمد بن سعود ، سنة ١١٧٩ (١٧٦٥ م) عن نحو ٧٠ سنة . ودام حكمه أربعين عاماً .

وخلف محمداً في الحكم ، وليُّ عهده ، ابنه « الإمام عبد الغزيز » وقاعدته الدرعية . وكان قد اشتهر في أيام أبيه ، وشارك في الحروب . ولما بويع بالإمامة سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) تابع فتوحاته .

وفي سنة ١٢٠٢ (١٧٨٨ م) آثر التعبّد والراحة ، فأخذ البيعة بولاية العهد لابنه « سعود » وألقى على عاتقه مهامّ الدولة . وبينما كان يصلي العصر في مسجد « الطُّريف » بالدرعية ، وثب عليه « درويش » وطعنه بخنجر وقتل الدرويش في الحال ولم يعرف شيء من سيرته قبل دخوله الدرَعية .

وحمل عبد العزيز إلى قصره ، فتوفي فيه ، سنة ١٢١٨ (١٨٠٣ م)
وجُددت البيعة بالإمامة لابنه سعود ، ويقال له «سعود الكبير» .
وفي الأسبوع الأول من السنة (١٢١٨) تمّ لسعود الاستيلاء على مكة .

أربعة جيوش

وفي أيامه أو قبلها ، كانت الدولة العثمانية قد ضاقت ذرعاً باتساع دولة آل سعود ، في جزيرة العرب . فانتدبت أحد كبار قادتها ، عثمان باشا ، وعيّنته والياً على حلب ، سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) وأرسلته إلى دمشق ، فضم جيشها إلى من معه ، وقصد جدة فوصل إليها سنة ١٢٢١ (١٨٠٦ م) ثم أمرت والييها بمصر والعراق سنة ١٢٢٤ (١٨٠٩ م) بأن يزحف الأول إلى المدينة عن طريق ينبع ، ويزحف الثاني من العراق لمهاجمة الدرعية . وسيرت جيشاً رابعاً بقيادة يوسف باشا المعروف بالمعدن ، الصدر الأعظم السابق في الدولة . وكان اشتعال جذوة الحرب ، على يد واليها بمصر ، محمد علي باشا .

وجهّز سعود جيشاً كبيراً قاده بنفسه ، سنة ١٢٢٨ (١٨١٣ م) فنشبت معارك حالفه الظفر في أكثرها . وتوفي سنة ١٢٢٩ (١٨١٤ م) وهو من أعظم رجال هذا البيت شجاعة وحصافه . امتدت بلاده من عُمان (وعامله عليها سلطان بن صقر بن راشد) ووادي حضرموت ، ونجران ، وعسير ، إلى شواطىء الفرات ، والبادية السورية إلى قرب دمشق ، ومن الخليج إلى البحر الأحمر .

وبويع بعده لابنه الإمام «عبد الله بن سعود» وهو غائب يقود جيش أبيه في طريقه إلى الحجاز وعسير . فلما كان على ماء يعرف بالخانوقة ، نُعيَ له أبوه فعهد إلى أحد رجاله بقيادة الجيش ، وعاد مسرعاً إلى الدرعية .

وتعددت المعارك ، إلى أن تقدّم المهاجمون ، يقودهم إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا (والي مصر يومئذ) ولم تنفع الإمام عبد الله شجاعته ، فاستسلم لإبراهيم مُصالحاً ، على أن يكون أمره في يد سلطان آل عثمان ، محمود خان . وحُمِل ، ومعه ثلاثة أو أربعة من أقربائه ، إلى مصر ، فالأستانة ، حيث شُنقوا سنة ١٢٣٤ (١٨١٨ م)

وقتل كثير من رجالات آل سعود في الدفاع عن الدرعية ، قبل استسلام عبد الله . واحتلها إبراهيم في ٨ ذي القعدة ١٢٣٣ (١٨١٨ م) فهدم بيوتها ومساجدها ، سنة ١٢٣٤ (١٨١٩ م) وعاد إلى القصيم فالمدينة المنورة فمصر سنة ١٢٣٥ (١٨١٩ م) وخلّف وراءه ضغائن وفتناً مما يقع في كل دولة وشعب بعد الهزيمة . ووقعت الحرائب في نجد – كما يقول ابن بشْر – وتواثب الناس فقتل بعضهم بعضاً في وسط الأسواق ونواحي البلدان .

تركي بن عبد الله وابنه فيصل

وظهر في خلال هذه الأحداث ، الأمير تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود ابن محمد بن مقرن ، فاستنفر القبائل ورؤساء المدن . وقاتل من دخل في طاعة الترك . وكان شجاعاً حنكته التجارب ، فظفر ، واسترد الرياض وأدخل في طاعته أكثر البلاد النجدية . وخوطب بالإمامة . وهو جدّ الفرع السعودي الذي منه الملك عبد العزيز .

ومات تركي قتيلاً ، بعد استمرار حكمه تسع سنوات ، فخلفه ابنه «فيصل بن تركي» سنة ١٢٥٠ (١٨٣٤ م)

، ، ،

وكان ممن نشأ في مصر «خالد» بن سعود بن عبد العزيز بن محمد ، فأرسله محمد علي باشا مع قوة عسكرية سنة ١٢٥٢ هـ (١٨٣٦م) لقتال

فيصل بن تركي . ونشبت بينهما حروب انتهت بالصلح . على أن يسافر فيصل إلى مصر ويقيم فيها . . فأمضى أربع سنوات مُبعداً عن بلاده . وأُخرج خالد من الرياض ، فمات محموماً في جدة .

واستطاع فيصل الانفلات من معتقله في مصر ، سنة ١٢٥٩ (١٨٤٣ م) فعاد إلى نجد .

وانتظم له الأمر .. وكُفَّ بصره في أواخر أيامه ، فباشر أعمال الدولة ابنه عبد الله يعاونه ابنه الثاني محمد ، إلى أن توفي في الرياض ، سنة ١٢٨٢ (١٨٦٥ م)

وخلّف فيصل أربعة أولاد : عبد الله أكبرهم سناً ، وسعود : ثانيهم في السن ، ومحمد ، وعبد الرحمن (أبو عبد العزيز) وكان عبد الله وسعود ، متنافسين من أيام أبيهما ، معروفاً ذلك عنهما .

عبد الله بن فيصل

وبعد وفاة فيصل ، تولى الإمامة كبير أبنائه عبد الله ، سنة ١٢٨٢ (١٨٦٥ م) وفي عهد عبد الله كانت بين كبار آل سعود (أبناء فيصل) فتنة عمياء أدت إلى ضياع الدولة من أيديهم ، وتسلّط ابن رشيد عليهم .

آل رشيد

وكان آل رشيد ، حكامَ جبل شمّر (حائل وما حولها) وأول من ولي الإمارة منهم عبد الله بن علي بن رشيد . خدم الإمام فيصل ، وقاتل معه ، فولاّه فيصل إمارة «حائل» سنة ١٢٥١ هـ (١٨٣٥ م) وتداولها بعده بعض أبنائه ، حتى تولاها ابن له اسمه «محمد» سنة ١٢٨٩ (١٨٧٢ م) وقوي أمره ، وكانت له خفارة الحج العراقي . يتقاضى عليها راتباً من ولاية بغداد والبصرة ، فتوثقت علاقته بالترك . ورأى ما دبّ من الخلاف بين أبناء فيصل فامتدت سلطته على بلادهم ، وأدخل في طاعته كثيراً منها ؛ وانتهى به الأمر إلى دخول الرياض وتولية أحد رجاله إمارتها .

وتوفي الإمام عبد الله بن فيصل ، في الرياض سنة ١٣٠٧ (١٨٨٩ م) ولم يبق من رجال آل سعود البارزين سوى أخيه الأصغر « عبد الرحمن » والد « عبد العزيز » .

عبد الرحمـــن

سبق لعبد الرحمن بن فيصل ، أيام اختلاف إخوانه ، أن بايع له بالإمامة أهل الرياض ، وعليها عامل من قبل ابن رشيد . واستمرّ مدة سنتين ، وأخوه الأكبر الإمام عبد الله بعيد عنها . وعاد عبد الله فنزل له عبد الرحمن عن الإمامة (سنة ١٢٩٣ هـ) ولما توفي عبد الله ، وثب عبد الرحمن على عامل ابن رشيد ، واسمه « سالم السِبْهان » فاعتقله ، وجدّد أهل الرياض البيعة له بالإمارة . وكان ذلك في ١٢/١١ ذي الحجة ١٣٠٧

وزحف ابن رشيد من حائل ، ليعالج ما حدث في الرياض . فحاصرها شهراً أو يزيد . وثبتت ، فدعا أهلها إلى الصلح ، فجاءه وفد مؤلف من محمد بن فيصل والشيخ عبد الله بن عبد اللطيف ، وعبد العزيز (الفتى) ابن عبد الرحمن . فاتفقوا على أن تكون الإمارة على العارض لعبد الرحمن ابن فيصل ، وأن يطلقوا عامل ابن رشيد سالماً السبهان . فأطلق سالم ورحل مع ابن رشيد ، في أوائل سنة ١٣٠٨ (١٨٩٠ م)

وفي جمادى الآخرة من السنة نفسها ، علم عبد الرحمن أن ابن رشيد ، تحرّك من حائل ، للغزو ، ووجهته القصيم والرياض . فاستعد عبد الرحمن لصدّه . ووصل ابن رشيد إلى القصيم ، فزحف عبد الرحمن لنجدة أهلها . ولكنه قبل أن يبتعد كثيراً عن الرياض جاءته الأخبار بأن ابن رشيد فتك بأهل القصيم في أرض تدعى « المليداء » واتجه إلى الرياض .

عاد عبد الرحمن بجيشه ، وهو موقن أنه لا طاقة له بحرب ابن رشيد ، وليس أمامه إلا النجاة بنفسه وبأهله ...

الهجرة

وهكذا كانت هجرة عبد الرحمن ، ورحلته من الرياض ، عاصمته وعاصمة أسلافه . وخرج معه بعض أسرته وأقاربه ورجاله ، ولسان حاله يقول :

وتلفتت عيني فمذ خفيت   عني الطلول تلفت القلب !



قافلة في الصحراء

وتوغلت قافلة الإمام عبد الرحمن حتى بلغت صحراء « الدهناء » حيث كان عبد العزيز يسأل : أين نحن ؟ ويجاب : في الدهناء يا عبد العزيز !

عبد العزيز ، في طفولته وصباه

ولد عبد العزيز في قصر الإمارة بالرياض سنة ١٢٩٣ (١٨٧٦ م) وعهد به أبوه – الإمام عبد الرحمن – إلى القاضي عبد الله الخرجي ، من علماء الخرج . فتعلم مبادىء القراءة والكتابة ، وحفظ سوراً من القرآن ، وقرأه كاملاً على الشيخ محمد بن مصيبيح . ثم تلقى بعض أصول الفقه والتوحيد على يد الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف في كراسة صغيرة أعدها خصيصة له .

، ، ،

ويُنقل عن لسانه : أنه أحسن استعمال البندقية وركوب الخيل كأحد الفرسان ، وهو في سن الصبا . وأنه كان في السابعة ، حادّ الطبع ، دائم الحركة ، لا يستطيع الاستقرار في مكان واحد ، فترةً طويلة .

قال مؤلف كتاب « ابن سعود ملك البلاد العربية » بالفرنسية : قَتَل الملك عبد العزيز أول عدوّ له وهو في الحادية عشرة من عمره .

وقال حافظ وهبة : سمعت من بعض أصدقائي الكويتيين الذين عاصروا عبد العزيز ورافقوه أنه كان يفوقهم نشاطاً وذكاءً ، وأنه كان يتزعمهم دائماً في الألعاب ، وأنه كان يميل إلى سماع تاريخ جده الإمام فيصل ، من بعض الشيوخ المسنّين ، في الكويت .

وروى خالد الفرج أن الشيخ عيسى بن علي آل خليفة حاكم البحرين[١] أراد أن يلاطف « الفتى » عبد العزيز . فسأله : قَطَر أحسن أم البحرين ؟ فأجابه عبد العزيز على الفور : الرياض أحسن منهما ... فقال : سيكون لهذا الغلام شأن ...

---

(١) ترجمته في الأعلام ٥ : ٢٩٠

في البادية

تنقّل الإمام عبد الرحمن ، في البادية ، يلتمس مأوى ينأى به ، وبمن معه ، عن العدوان . ولما استشعر من القبائل المخيمة في المناطق القريبة من الرياض ، ذعرها من كبير آل رشيد إذا هي آوت كبير آل سعود ، نصب خيامه على مقربة من منازل آل مرة والعجمان ، بين يبرين والأحساء ، وأقام .

سفارة

ولم تكن حياة البادية ، مما تطيق احتماله حرائر آل سعود ، فقال عبد الرحمن يوماً لابنه عبد العزيز : امض يا بُنيّ إلى ابن خليفة (الشيخ عيسى حاكم البحرين) وحدّثه بما نحن فيه ، واستأذنه لنسائنا بالإقامة في جواره ، ولا ضير عليه من ابن رشيد ، ما دمنا نحن بعيدين عن البحرين .

وأُنيخت الركائب ، فامتطى عبد العزيز إحدى نياقها .. وعاد بعد أيام يحمل إذن ابن خليفة للنساء . ومضين إلى العقير حيث ركبن السفن الشراعية إلى البحرين ومعهن عبد العزيز وأخ له يليه في السن اسمه « محمد »

وكان على عبد العزيز ، بعد استقرار الأسرة في البحرين ، أن يعود إلى مضارب أبيه في الصحراء ، فامتطى الذلول بعد ركوب البحر ، وأقبل يطوي البيد .

أما أبوه (عبد الرحمن) فما كاد ينفرد ، بعد رحيل الأسرة ، حتى عاوده النزوع إلى مصاولة من في الرياض وما حولها من رجال آل رشيد . فجمع أنصاراً من أعراب البادية ، وصحبه إبراهيم بن مهنا الصالح من آل « أبا الخيل » وانثنى زاحفاً — سنة ١٣٠٩ (١٨٩١ م) — فاستولى على الدّلَم (قاعدة الخرج) وطرد من كان فيها من اتباع ابن رشيد .

وكان ابن رشيد (محمد بن عبد الله) بعد خروج عبد الرحمن من الرياض ، قد ولى محمداً (أخا عبد الرحمن) إمارتها ، فدخلها عبد الرحمن

مسالماً . ثم سار منها إلى المحمل ، ونزل في حريملاء على مرحلتين من شمالي الرياض .

ووصلت أخباره إلى ابن رشيد ، وهو في حائل ، فأسرع بجيشه . فكانت المعركة في حريملاء ، وانهزم جمع عبد الرحمن ، وقتل عدد من رجاله وأنصاره . ودخل ابن رشيد الرياض فهدم سورها وقصرين فيها ، وأحرق نصف أشجارها المثمرة ، وأبقى محمد بن فيصل ، أميراً عليها ، وعاد إلى حائل .

وقفل عبد الرحمن عائداً إلى مخيمه في البادية ، فأدركه عبد العزيز في أطراف منازل العجمان .

سفارة ثانية

وأرسله أبوه إلى الهفوف (مركز الأحساء) وكانت تابعة للدولة العثمانية، ليفاوض الترك عساهم يسمحون له ولرجاله بالإقامة فيها ، أو في جوارها . فلم تفلح سفارته هذه المرة ، وأبى الترك إيواءهم .

وضاق رحب البر في وجه عبد الرحمن . فأزمع الرحلة إلى الكويت . ولكن محمد بن صباح (أميرها يومئذ) لم يجرؤ على الجمع بين مناوأة ابن رشيد ومخالفة سياسة الترك ، فاعتذر . وعاد عبد الرحمن إلى البر .

وامتدت إقامة الإمام عبد الرحمن وابنه عبد العزيز ومن معهما ، هذه المرة حوالي سبعة أشهر في قفار تقطن بعضَها قبائلُ من آل مرة ، وبعضاً قبائل كثيفة من العجمان ، ليست بعيدة عن الأحساء كل البعد ، ولكنها قفار وعثاء على أي حال .

يألف البادية

وبدأ عبد العزيز يألف البادية ويجاري أبناءها في احتمال مكاره العيش ،

والصبر على الظمأ والجوع والتعب وافتراش الأرض والتحاف السماء .

لقد وجد عبد العزيز نفسه ، قبل أن ينضج شبابه ، يدخل في المفاوضات ويقوم بالسفارات ، ويألف خشونة الحياة ، ويختبر تقلبات الزمن وطباع الناس .

وفي أحد المصادر أن نزول الإمام عبد الرحمن وأسرته ، في بني مرة ، كان عند «آل شُرَيْم » الرؤساء الكبار لهذه القبيلة .

الفَرَج

وفُرّج الكرب على يد شيخ قطر ، قاسم بن ثاني . وكان أريحياً جواداً .

كتب إليه عبد الرحمن ، يصف ما هو فيه . وأجابه ابن ثاني مرحّباً . وانتقل الجمع إلى قطر .

وفي دليل الخليج أن عبد الرحمن أقام في ضيافة شيخ الدوحة في قطر ، من أغسطس إلى نوفمبر ١٨٩٢ (صفر إلى جمادى الأولى ١٣١٠) ولحقت به أسرته التي كانت في البحرين .

إلى الكويت

وطرأ على سياسة الدولة العثمانية أن تتفق مع ابن سعود – عبد الرحمن – لتأمن تحركاته ، فأرسل إليه متصرف الحَسَا يستدعيه ، فأجاب الدعوة . وتم الاتفاق بينهما على أن يقيم هو وأسرته في الكويت ، وتدفع له الدولة ستين « ليرة » مشاهرة . وقلما كانت تدفعها . وقبل ابنُ صباح إذ ذاك أن يتوطنوا بلاده . فانتقلوا إليها من قطر سنة ١٣١٠ (١٨٩٢ م)

عبد العزيز في الكويت

أدرك عبد العزيز في طفولته ، بقايا عهد النعيم ، في عروس الصحراء

« الرياض » وذاق مرارة الشظف في شمالي الربع الخالي . حول يبرين ، وتفتحت عيناه فرأى العالم في الكويت . وقد جاءها بنساء الأسرة من البحرين . ونزل معهن — قبل حضور أبيه — في دار أعدّها ابن صباح ، مؤلفة من ثلاث غرف . قضى عبد العزيز فيها حوالى عشر سنين من عنفوان حياته .

ويشاء الله أن يشهد عبد العزيز ، وهو لا يزال في مطلع شبابه ، حادثاً في الكويت ، فيه دم وقسوة ، من نوع ما تركه في الرياض ، إلا أنه أشد وأفظع .

ذلك أن بيت آل صباح كان عماده ثلاثة إخوة ، هم : محمد ، ومبارك ، وجراح . والحاكم منهم بالكويت كبيرهم « محمد » وهو الذي نزل عبد العزيز مع أبيه وأهله في ضيافته ، تبعاً لما اقتضته سياسة الدولة العثمانية في ذلك الحين . وكان عبد العزيز يرى محمداً بين وقت وآخر ويشعر منه بشيء من الميل إليه ويعجبه تأنقه وحسن استقباله أباه عند زيارته له .

واستمر ذلك عامين وبعض الثالث ، وإذا بالأخ الأوسط « مبارك » وابنٍ له يثوران على كبير البيت « محمد » سنة ١٣١٣ هـ (١٨٩٦ م) فيقتلانه وأخاه الأصغر جراح بن صباح ، وينفرد مبارك بالحكم في الكويت وسيفه وسيف ابنه يقطران من دم الجريمتين .

ويرى أكثر من كتبوا عن عبد العزيز أن « الكويت » كانت مدرسته التي تلقى فيها فن السياسة العملية . وأن أيام الشيخ « مبارك » المليئة بالمناورات والمحاورات ، كانت تنطبع مقدماتها ونتائجها ، في ذهن « عبد العزيز » وقد اشترك في بعضها حين آنس فيه مبارك صفات الألمعي اللبق ، فقربه منه ، وفسح له المجال لحضور مجالسه ، والاستماع إلى أحاديثه مع ممثلي الحكومات الإنكليزية والروسية والألمانية والتركية .

وكانت لمبارك صلة نسب بآل سعود ، فإذا ذكر « أخواله » عناهم . ذلك أن أمه هي « لؤلؤة » بنت محمد بن ثاقب بن وطبان بن مرخان . ومرخان جدّ آل سعود كما قدمنا .

وبدأت الشكوك تخالج الحكومة العثمانية في ولاء مبارك لها . وظل مبارك يلعب على كل حبل ويبتسم لكم مقبل عليه ، يصارع دهاءَ هذا بدهاء ذاك ، إلى أن ارتطم بالصخرة ، وختم عهده السياسي (الخارجي) بتوقيع معاهدة سرية مع الإنكليز ، أمضاها عام ١٣١٦ هـ (١٨٩٩ م) وأعلنها بعد عامين[١] .

كان « عبد العزيز » يرى كل هذا ، ولا يعنيه مباشرة كما تعنيه حوادث الشيخ مبارك نفسه مع عدوه « ابن رشيد » فقد توفي محمد بن عبد الله بن علي بن رشيد ، في ٣ رجب ١٣١٥ (١٨٩٧/١٠/١ م) وخلفه عبد العزيز ابن متعب . وكان من حسن حظ الأمير الشاب عبد العزيز آل سعود ، أن سميّه الرشيديّ الجديد، طمع بالكويت بعد أن سلس قياد نجد له ولسلفه .

وثبـــة

واحترب ابن رشيد ومبارك . وانتهز عبد العزيز فرصة أقنع بها مباركاً بأن يقوم هو منفرداً بقوة إلى الرياض ، فيضطر ابن رشيد أن يقاتل جيشُه في مكانين مختلفين . وفارقه على غدير شعب يسمى « الشوكي » في الجانب الغربي من الدهناء . وبقي عبد الرحمن مع مبارك ..

* * *

اجتاز عبد العزيز ما بين الشوكي والرياض في يومين . وتصدت له حامية الرياض ، وجلها من رجال ابن رشيد ، يقودها عامل له اسمه

(١) ألغيت هذه المعاهدة في ٤ محرم ١٣٨١ الموافق ١٩ /٦/ ١٩٦١ حين اعترفت بريطانيا باستقلال « دولة الكويت »

عبد الرحمن بن ضَبْعان ، فقاتلها ودخل المدينة . ولجأت الحامية إلى حصنها « المُسْمَك » فعزم عبد العزيز على حفر نَفَق إليه . وباشر رجاله العمل .

على أن المعركة لم تنته بسلام . فإن جيش مبارك الصباح اشتبك بعد ٤ أشهر في معركة حامية مع ابن رشيد ، في مكان يسمى « الصّريف » على مقربة من « الطّرْفية » في « القصيم » يوم ١٧ ذي القعدة ١٣١٨ (١٩٠١/٣/٧ م) وفاز ابن رشيد وانهزم ابن صباح إلى الكويت . ولم يزِ عبد العزيز وهو في الرياض ، أن يتعرض لمقاومة قوى ابن رشيد ، المنتشية بخمرة النصر ، ودعاه أبوه للعودة إلى الكويت ، فأجاب ؛ وانصرف إليها بمن معه . والرأي قبل شجاعة الشجعان .

كيف ينسى الرياض ؟

ولم تطل إقامة عبد العزيز في الكويت هذه المرة ، وقد ذاق حلاوة الظفر في الرياض قبل شهور . فأكثر من التعريض لأبيه بعزمه على المغامرة الثانية ، فما أُجيب بغير الزجر والصدّ . ولقي أباه ساعة على انفراد خارج المدينة ، فأراد الحديث . وأعرض أبوه . فأصر ، وألقى عباءته على الأرض — وعروقه تنتفض — : اجلس يا عبد الرحمن ...!

عبد العزيز ، مثال الأدب مع أبيه ، يخاطبه بهذه اللهجة ، وباسمه المجرد ؟ هناك أمر ، لا ريب ...

جلس الإمام عبد الرحمن وأمامه الشعلة المتوقدة ، ابنه عبد العزيز ، يقول : أنت بين خطتين ، إما أن تأمر أحد عبيدك بانتزاع رأسي من بين كتفيّ فأستريح من هذه الحياة ، وإما أن تنهض من توّك فلا تخرج من منزل شيخ الكويت إلا بوعد في تسهيل خروجي للقتال في بطن نجد .

وافق الإمام عبد الرحمن ، متململاً ، بعد تصميم عبد العزيز . وهرع

إلى مبارك الصباح يسأله تسهيل الأمر ، ولا أحبّ لمبارك من هذا .

وفي الهزيع الأول من تلك الليلة كان عبد العزيز يملك أربعين ذاولاً وثلاثين بندقية ومئتي ريال ، معونة من مبارك . وأسرع إلى توديع أبيه وطلب رضاه .

قال عبد الرحمن : ترى يا عبد العزيز ، ليس لي قصد في أن أقف في سبيل إقدامك . ولكن ، كما ترى ، موقفنا وحالنا يقضيان باستعمال الحكمة في إدارة أمرنا . أما وقد عزمت ، فأسأل الله لك العون والظفر .

ومضى في أربعين راكباً من آل سعود والموالين لهم ، ونحو العشرين من أتباعهم ، ولحق به بعض طلاب « الكسب » من العجمان وغيرهم . حتى قارب عدد الملتفين حوله ألف راكب ذاول ، وأربعمئة خيال ، اجتاز بهم الصمان والدهناء . وأغار على أبيات لقحطان من أعوان ابن رشيد فغنم . وعاد إلى أطراف الأحساء — وفيها « متصرف » من الترك . فتموّن ، وقصد جماعة آخرين من قحطان في « عُشَيْرة » من جهات سُدَير ، فربح . وهاجم فريقاً من « مُطَير » فساق بعض مواشيهم أمامه . وتسامع البدو بخبر الغزو ، فتسارعوا .. يتبعون الظافر على عادتهم .

وقلق ابن رشيد ، فكتب إلى حكومة البصرة يذكر استفحال أمر ابن سعود ، ويقترح طرده من نواحي الأحساء ، ففعلت ، ومنعته أن يتموّن هو ومن معه منها . وأقبل الشتاء ، فتفرّق من صحبه من البدو ، بعضهم يطلب المرعى لمواشيه ، وبعضهم لا يريد أن يتعرّض لسخط « الدولة »

وكان ابن رشيد في الحَفَر يستنجد الأتراك في احتلال الكويت ، ويحرضهم على آل سعود . فقطعت الدولة « معاش » كبيرهم — الإمام عبد الرحمن — كما سدت أبواب الحسا في وجه صغيرهم عبد العزيز .

وكتب الإمام عبد الرحمن ، مشتركاً مع الشيخ مبارك ، إلى عبد العزيز ،

يدعوانه إلى الكفّ عما هو فيه ، ويحذرانه العواقب ، ويسألانه الرجوع إلى الكويت ..

في يبرين

تفقد عبد العزيز رجاله في واحة يبرين ، آخر يوم من رجب ١٣١٩ (١٩٠١/١٠/١٢ م) فلم ير إلا من صحبوه يوم مغادرته الكويت . فجمعهم حوله ، في مجلس للمداولة . وقرأ عليهم كتاب أبيه ، ثم قال :

لا أزيدكم علماً بما نحن فيه . وهذا كتاب والدي يدعونا للعودة إلى الكويت ، قرأته عليكم . ومبارك ينصحنا بالعودة . أنتم أحرار فيما تختارونه لأنفسكم . أما أنا فلن أعرض نفسي لأكون موضع السخرية في أزقة الكويت . ومن أراد الراحة ولقاء أهله والنوم والشبع فإلى يساري ، إلى يساري ...

وتواثب الأربعون ، بل الستون ، إلى يمينه . وأدركتهم عزة الأنفة فاستلوا سيوفهم وصاحوا مقسمين على أن يصحبوه إلى النهاية .

والتفت عبد العزيز إلى رسول أبيه — وهو حاضر يشهد — وقال له : سلّم على الإمام وخبره بما رأيت ، واسأله الدعاء لنا وقل له : موعدنا إن شاء الله في الرياض .

من يبرين

تحرك عبد العزيز من « يبرين » أو جوارها ، على رأس رجاله (الستين) في العشرين من رمضان ١٣١٩ ووجهته الرياض . وأدركه العيد في موضع يقال له « أبو جفان » على طريق الأحساء ، فعيّد فيه . ورحل منه ليلة ثالث شوال ، فوصل إلى « ضِلِع الشقَيْب » على مسيرة ساعة ونصف للراجل من الرياض ، فحط الرحال وترك عند الركائب عشرين رجلاً .

وتقدم بالأربعين ، على أقدامهم . وفيهم أخوه محمد ، وابنا عمه : عبد الله وفهد ابنا جلوي بن تركي .

وكانت الساعة الثالثة عربية – التاسعة ليلاً – فدخل « نخلاً » في شرقي الرياض ، استبقى فيه ثلاثة وثلاثين ممن معه . وجعل قيادتهم لأخيه محمد . وقال لهم : لا حول ولا قوة إلا بالله ! إذا لم يصل إليكم رسول منا غداً ، فأسرعوا بالنجاة ، واعلموا بأننا قد استشهدنا في سبيل الله ..

اقتحام سور القصر

ومضى بالسبعة قُدُماً . وكان أول همه أن يقتحم قصر المُسْمَك (ويقال له : المصمك) وهو المعقل الذي اعتصمت به حامية ابن رشيد في العام الماضي ، وفيه يقيم أمير الرياض من قبل آل رشيد . واسمه « عجلان ابن محمد العجلان » وكانت هناك بيوت تقارب جدار « القصر » الخارجي ، يسكن أحدها فلاح يتّجر بالبقر ، اسمه « جويسر » يعرفه عبد العزيز . ، فطرق بابه فصاحت امرأة من داخله : مَن ؟ فأجابها : أنا ابن مطرف . أرسلني الأمير عجلان لأطلب من جويسر أن يشتري له بقرتين .. ونهض جويسر ففتح الباب ، ووضع عبد العزيز رجله في داخل الباب وأمسك بالرجل ، وقال : إذا تكلمت قتلتك في الحال . ودخل البيت . وكان على عبد العزيز أن يجتاز بيتاً آخر ، ليصل إلى منزل تقيم فيه إحدى زوجات عجلان ، ويبيت عجلان عندها أحياناً . وقد تنشب المعركة فأرسل إلى أخيه « محمد » أن يأتي بمن معه . فدخلوا متسللين .

وتقدم عبد العزيز برفاقه الأول ، فاقتحموا المنزل ، وطافوا بغرفه ، فوجدوا في إحداها شخصين نائمين في فراش واحد ، لم يشك عبد العزيز في أنهما عجلان وزوجته . فأقبل عليهما ، وقد أصلى بندقيته ، وإلى جانبه أحد رجاله يحمل شمعة ، فرفع الغطاء ، فإذا هما امرأتان . فأيقظهما فاستوتا

جالستين من دون أن يعروهما خوف أو هلع . وكانت إحداهما زوجة عجلان . فعرف منها أن عجلان في القصر ، يخرج بعد طلوع الشمس وكان يبيت على الأكثر في القصر الداخلي ، وبينه وبين منزله هذا ساحة فيها مرابط لخيله . ومن عادته أن يخرج بعد طلوع الشمس فيستعرض الخيل ، ويأتي المنزل الذي فيه زوجته ، فيتناول طعام الإفطار ، ثم ينصرف إلى أعمال الإمارة . وباب القصر الداخلي ، بوابة كبيرة في وسطها إلى الأسفل باب صغير يسمى « الخوخة »

وكانت الساعة الثامنة عربية (الثانية بعد نصف الليل) حين تجمع الأربعون حول عبد العزيز في المنزل فأكلوا شيئاً من التمر وجدوه هناك ثم ناموا كأنهم في بيوتهم .

وبعد نوم ساعة واحدة أو أقل ، طلع الفجر . فنهض عبد العزيز وصلى بهم ، وجلس يسبّح ويبتهل . والتفت إلى رفاقه بعد ذلك ، يتحدّث إليهم حتى طلعت الشمس يوم ٥ شوال ١٣١٩ (١٩٠٢/١/١٥ م)

عبد العزيز وعجلان

وتقدم عبد العزيز يرتقب خروج عجلان ، بينما كان عجلان مقبلاً من البوابة ، ومعه نحو عشرة رجال .

ووقعت العين على العين ، وقامة عبد العزيز لا تخفى على أحد .

كان عبد العزيز يحمل بندقية ذات رصاصة واحدة . وسلّ عجلان سيفه ، وأومأ به إليه . وصوّب عبد العزيز بندقيته وأطلقها . وأصيب عجلان في غير مقتل ، فسقط السيف من يده ، وانفتل راجعاً يريد باب القصر .

وعدا عبد العزيز وراءه ، فأدركه وهو يقفز داخلاً ، فأمسك برجليه يجرهما ، وتعلّق عجلان بيديه في الداخل . ورماه فهد بن جلوي بحربة أخطأته واستقرت في الباب . وتمكن عجلان من ضرب عبد العزيز برجله

على شاكلته (خاصرته) فأوجعه وانفلت منه واستمر داخلاً . ولحق به عبد الله بن جلوي ، فأطلق عليه رصاصة أصابت المقتل .

الملك لله

قُتل عجلان ، وصاح عبد العزيز برجاله ، فاقتحموا القصر وفتكوا بنيف وثلاثين رجلاً ممن قاومهم فيه . وتحصن نحو عشرين رجلاً في جهة منه . فأمنهم عبد العزيز على أرواحهم فسلموا ، ونادى المنادي : الملك لله ! ثم لعبد العزيز بن عبد الرحمن !

، ، ،

في الرياض

يوم الرياض ، يوم عظيم — حقاً — في تاريخ جزيرة العرب لا في سيرة الملك عبد العزيز وحده .

يقول جون فانيس (في كتابه : أقدم أصدقائي العرب) : بدأ عبد العزيز مجازفته ، ومعه أربعون رجلاً ويالها من مجازفة ، ويا لها من مغامرة !

ويقول فؤاد حمزة (في قلب جزيرة العرب) : إن قصة حملة الرياض من أروع قصص البطولة وأعظمها شأناً وأجلها قدراً .

ويقول حافظ وهبة (في جزيرة العرب) : إن هذه القصة تشبه قصص أبطال اليونان ، وترينا عظم الأخطار التي أحاطت بابن سعود .

ويقول كنث وليمز (في كتابه ابن سعود سيد نجد) : تمكن ابن سعود من استرداد قلب الإمارة الوهابيّة (كذا) بطريقة تدل على براعة فائقة وحذق مدهش .

باديـــة العرب

كان عبد العزيز ، يتتبع باهتمام ، أخبار ما كانت عليه بادية العرب في عهد تفككها واضطرابها في فترات، منها ما يطول مداه أيام ضعف الحكومات التي بسطت عليها سلطانها ، ومنها ما يقصر مداه في عهد قوة السلطان .

وتخبطت في أكثر تلك الأزمان ، على غير هدى . وتجاهلها التاريخ أو جهلها . فلم نعرف عنها غير أثر ضئيل مما كتبه المعنيون بأخبار الجزيرة والرحالونَ المغامرون في بعض مجاهلها .

، ، ،

وعبد العزيز ، وهو من أعلم الناس بطبيعتها ، يقول في وصفها : « مثَل هذه البادية في حياتها كمثل أرضها تظلّ قاحلة إلى أن يسقيها الغيث ، فإذا سقيت اخضرت وأزهرت كذلك هي في رجالها تستمر عصوراً وهي مستغرقة في جهالاتها ويبرز فيها رجل يحسن تنظيمها وتوجيهها ، فتنقلب والحياة ملء كل ناحية من نواحيها » .

، ، ،

وعلى الرغم من أن دعوة التوحيد والإصلاح التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، قد رسخت في نفوس الكثيرين من سكان قلب الجزيرة ؛ فإن أثرها المادي الذي هو « الدولة » تعرض للتصدّع في فترات متقطعة عصيبة ، انطمس فيها جانب كبير من تاريخ البادية ، كما ضاع تاريخها بجملته قبل دعوة ابن عبد الوهاب .

الاستعداد

وكان أول ما بدأ به عبد العزيز بعد قضائه على عجلان وحامية ابن رشيد في الرياض ، احتياطه للطوارىء المقبلة ، حتماً . فنظم من كان قد بقي في المدينة من آل سعود ، تنظيماً شبه عسكري ، وأمر ببناء سور جديد لها . وكتب إلى والده الإمام عبد الرحمن وإلى الشيخ مبارك الصباح في الكويت ، بما هو في سبيله ورجا من أبيه الإذن لأخيه « سعد بن عبد الرحمن » بالقدوم عليه إلى الرياض ، بنجدة ممن في الكويت من رجالهم وأنصارهم .

وأجابه والده ومبارك . ووصل سعد ، بالنجدة التي طلبها .

وبُني السور في خلال خمسة أسابيع ، محيطاً بالمدينة وبما بقي من أطلال السور القديم الذي كان قد هدمه ابن رشيد .

في الجنوب

ورأى عبد العزيز ألاّ يستثير ، في أيامه الأولى ، نزق ابن رشيد ، في توسعه بالشمال . ففي شمالي الرياض مناطق كان أكثر أهلها موالين لآل سعود ، كالشعيب والمحمل والوشم وسدير . والاستيلاء عليها ، بعد أخذ الرياض ، ليس بالأمر العسير . غير أن أية غارة على إحداها ، وهي الطريق إلى حائل – عاصمة ابن رشيد – ستنبه ابن رشيد إلى ما أمامه ، فيندفع بكل قواه للقضاء على حركة عبد العزيز في مهدها .

وعبد العزيز يعلم أن الرياض وحدها لا تحميه ، فلا بد من التوسع وكسب الأنصار . فاتجه إلى الجنوب حيث يجمع الهدفين ، يضم بلاداً إلى الرياض ، ولا يتحرش بابن رشيد .

استولى على « الخرج » وهي على ٨٠ كيلومتراً من الرياض جنوباً . وفيها الماء والكلأ ، وكانت من معاقل آل سعود فيما تقدم من الزمن القريب . وأخذ الحَرِيق والحَوْطة والأفلاج . وبلغ « وادي الدواسر » على حدود الربع الخالي.

ووصلت أخباره إلى ابن رشيد ، وهو مشغول في محاولة احتلال « الكويت » فلم يأبه لها أول الأمر . وكان يرى الكويت أصلاً والرياض فرعاً . فإذا قضى على الأصل المموِّن سقط الفرع المموَّن .

وفي الشمال

توطد سلطان عبد العزيز ، فيما بين الرياض والربع الخالي جنوباً ، في أقل من ستة أشهر . واتجه إلى الشمال في أوائل سنة ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢ م) فغزا قبائل من قحطان تابعة لابن رشيد ، وأعاد عليها الكرة . ثم أرسل أخاه محمداً يغزو فخذاً من عتيبة ، على مقربة من « الشّعْراء »

ابن رشيد يتحرك

وأدرك ابن رشيد ، وكان نازلاً على الحَفَر ، استفحال أمر عبد العزيز . وأخبارُه تُنقل إليه بين يوم وآخر . وليس في بوادي جزيرة العرب جرائد تحمل الأنباء ، ولكن كل عابر سبيل يروي ما يسمع وما يرى . والأماكن الموالية لابن رشيد ، تتوالى رسلها إليه بوصف حركات عبد العزيز وغاراته ، عليها أو على ما يجاورها . فما كان منه إلا أن انصرف إلى عاصمته « حائل » فجدّد قواه ، وأقبل تتبعه جموع من شمّر ، ثم من القَصِيم وسُدَير والوَشْم ، في ربيع الأول من عام ١٣٢٠ ، زاحفاً على الرياض .

وكان عبد العزيز يتوقع ذلك . فلما علم به ، كتب إلى أبيه يستدعيه من الكويت . وأقبل أبوه ومعه من انضوى إليه من الأنصار . ولم يفته أن يغزو في طريقه قبائل من « الظّفير » و « شمّر » من أتباع ابن رشيد . واستقبله ابنه « عبد العزيز » على مسيرة ثلاثة أيام من الرياض ، فدخلها في يوم مشهود ، بعد غيابه عنها إحدى عشرة سنة .

الإمارة

لآل سعود فيما بينهم سُنّة لا يكادون ينحرفون عنها . هي أن صغيرهم

يتأخر لمن هو أكبر منه إذا حضر ، بالغاً ما بلغ شأن الأول . كان ذلك في عهد أسلافهم ، ولا يزال إلى اليوم بين الأبناء والحفداء .

افتتح عبد العزيز الرياض واستولى على ما حولها ، ولا سيما بلاد الجنوب . وانتظمت له إمارة ، قلق لها عرش « الخلافة » في الآستانة . وأقوى رجل في شبه الجزيرة يومئذ ، ابن متعب الرشيد .

ولقي عبد الرحمن من ولده ، ما يلقى الأب من ابنه البارّ : متخففاً بين يديه ، منطوياً على نفسه ، يجيب بالطاعة والسمع . لأبيه الصدارة وله حيث انتهى به المجلس ، إن لم يكن بعد الخدم . ولم يكن أبوه — وهو الشيخ الوقور العاقل المحنّك — بأقل براً بابنه منه .

وأرسل عبد العزيز إلى والده — وهما في الرياض — يقول : الإمارة لكم ، وأنا جندي في خدمتكم . وأجابه الوالد : إذا كان قصدك من استدعائي إلى الرياض أن أتولى الإمارة ، فهذا لن يكون . وليس أمامي إلاّ أن أخرج منها إذا أصررت .

وتدخل العلماء في الأمر . فقال عبد الرحمن : الإمارة لعبد العزيز . وقال عبد العزيز : إني أقبلها على شرط أن يكون لوالدي الإشراف الدائم على عمالي ، يرشدني إلى ما فيه خير البلاد ويردعني عما يراه مضراً بمصالحها .

وفي اجتماع عامّ بالرياض ، حضره علماؤها وكبراؤها ، بعد صلاة الجمعة ، أعلن الإمام عبد الرحمن نزوله عما له من حقوق في الإمارة ، لكبير أبنائه عبد العزيز . وأهدى إليه « سيف سعود الكبير » نصله دمشقي ، وقبضته محلاة بالذهب ، وقرابه مطعّم بالفضة .

تمت البيعة الأولى لعبد العزيز ، في سنة ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢ م)

وتخلى الوالد لولده عن قصر آل سعود ، لسكناه . واختار منزل عجلان ، فانتقل إليه .

المعـــارك

أخذ عبد العزيز آل سعود ، يتنسم أخبار سميّه عبد العزيز بن متعب ابن رشيد ، في زحفه من حائل ، ماراً بجبلي « أجأ وسلمى » فالقصيم ، إلى أن تغلغل في أراضي نجد ، وعسكر على ماء « رَغْبة » من قرى « المحمل » في الشمال الغربي من الرياض . وأقام قرابة شهرين ، ثم انتقل من رَغْبة إلى « الحَسْي » فمكث نحو أسبوعين . ولأمر ما ، بدا له أن يمهل غزو الرياض ، فعاد أدراجه إلى « حَفَر الباطن » بقرب الحَفْس شرقاً .

وكان الوقت عند عبد العزيز ، من ذهب. فلا مجال للتردد في الاستفادة من عودة ابن رشيد إلى الحفر ، بالاستيلاء على بعض الجهات التي كان يشملها حكمه .

حمل الركبان « إشاعة » عن خلاف بين عبد العزيز آل سعود ، وأبيه . تلك الإشاعة كان مصدرها عبد العزيز ابن سعود نفسه . ولكن ابن رشيد بنى عليها العلالي والقصور .

قالوا : إن عبد الرحمن قرّر أخذ الأمان لأهل الرياض من ابن رشيد ، وخالفه عبد العزيز فخرج من الديرة ساخطاً ..

وحقق الإشاعة أن عبد العزيز خرج من الرياض فعلاً . فلم يكن من ابن رشيد إلاّ أن ترك « حفر الباطن » وأقبل يدلف إلى الرياض . ونزل في « بنبان » على ٢٥ كيلومتراً منها . وهناك علم أن عبد العزيز حصّن

المدينة قبل أن يغادرها ، وأنه رحل إلى « الدِلَم » في الجنوب ، فتابع السير إليه .

وكان عبد العزيز قد أبقى في الرياض مع والده ، حوالي ألف مسلح للدفاع عنها ، إذا هاجمها ابن رشيد ؛ وخرج بجيش قليل العدد ، فقصد الخَرْج ومنه إلى الحَوْطة . وأهل هذه من تميم ، فجمع رؤساءهم وأثار فيهم نخوة الجوار وذكّرهم بماضي أسلافه معهم . فأجابوه بعد جهد وعناء . واجتمع لديه منهم نحو ٨٠٠ مقاتل ، ضمهم إلى من معه ، فكانوا نحو ١٥٠٠

وتواردت عليه أخبار ابن رشيد فعلم أنه تجنب الرياض بعد قيامه من بنبان ، وأنه زاحف بنحو أربعة آلاف ، وقد خيّم في « نعجان » على مسيرة ساعتين من الدلم .

ونهض عبد العزيز بمن معه ، فسرى ليلاً إلى « الدلم » ودخل بيت شيخها قبل انبثاق الفجر ، فصلى ونام مستجماً مطمئناً ، إلى الظّهر . وأمر بذبح ناقتين فأطعم جنده .

وأخذ بعض رجال ابن رشيد يتجولون في ناحية القرية ، على مرأى من رجال ابن سعود ، ولا يعلم أولئك شيئاً عن هؤلاء .

أمضى عبد العزيز بقية نهاره — ورجاله متفرقون في القرية — يتلقف الأنباء عن عدوّه . وأهم ما عرف عنه أنه في صباح كل يوم يخرج هو وبعض رجاله ، يتنقلون في البساتين .

وفي ظهيرة اليوم التالي بدأت معركة السعودي والرشيدي بين النخيل ، بقرب الدلم . فقد فوجىء ابن رشيد بابن سعود يهاجمه . واستمر القتال إلى الليل .

في السلمية

وفي صباح اليوم الثالث ابتعدت جموع ابن رشيد ، متجهة إلى « السَّلَمية » وكانت حركة الجيش السعودي بطيئة لأن ابن سعود لم يكن في جموعه أكثر من أربعين فرساً ، فقصد خصمه متمهلاً . وتلاحق به أنصار جدد ، فناهز عدد من معه الألفين . وكانت المعركة في « السلمية » في ربيع الأول من سنة ١٣٢٠ (حزيران ١٩٠٢ م) وانهزم ابن رشيد ، فتحول عائداً إلى الشمال ، واستقر في « حَفَر الباطن » وعاد ابن سعود إلى الرياض .

القصيم

القصيم : بلاد عامرة في شمالي نجد . أكبر مدنها بريدة وعنيزة . كانت السيادة فيها خالصة لابن رشيد ، وكانت قاعدة له في غاراته على الجنوب ، بعد أن استقر الجنوب ، من سُدير إلى وادي الدواسر ، لابن سعود .

يوم ابن جراد

وأرسل ابن رشيد ، في أوائل ذي الحجة ١٣٢١ (أواخر ١٩٠٤ م) سرية من نحو ٣٠٠ مقاتل ، بقيادة « حسين بن جراد » من رجالات شمر للمرابطة في إقليم السرّ جنوبيّ القصيم . واتصل خبرهم بابن سعود ، فنهض إليهم من الرياض . وصاولهم يوم ١٨ ذي الحجة في قرية تدعى « الفَيَيْضة » فقُتل « ابن جراد » وأكثر من معه . وعاد عبد العزيز إلى الرياض ، يستعدّ مسرعاً لمهاجمة « القَصِيم » قبل عودة ابن رشيد إليه .

قام عبد العزيز من الرياض ، وسبقته الأخبار أو الإشاعات المنطلقة من سرادقه ، بأنه يريد أن ينحدر إلى الكويت .. ووجهته في الحقيقة القصيم .

ولما وصل إلى ماء « الشيحية » في وسط « النفود » علم من كان معه من أهل البادية أنه يريد ابن رشيد فتسلل أكثرهم . واستمر عبد العزيز

برجاله يتابع السرى إلى الصباح . ودخل قصراً يسمى « الحميدية » يبعد عن عنيزة . مسيرة أربع ساعات . فلما كان الغروب تقدم إلى نخل من نخيل عنيزة . فعسكر هناك . وكانت في المدينة سَرِية رشيدية ، بقيادة فهَيْد السبهان . فهاجمها بعض رجال عبد العزيز وقُتل السبهان وأعلن أهل عنيزة التسليم .

ودخل عبد العزيز مدينة « عنيزة » في ٥ محرم ١٣٢٢ (١٩٠٤/٣/١٣) فأقام بضعة أيام . وهاجم « بُرَيدة » فخرج أهلها مسلّمين ، إلاّ أن أميرها من قبل ابن رشيد ، وحاميتها تحصنوا في قصرها . ثم سلّموا في منتصف ربيع الأول ١٣٢٢

الدولة وابن رشيد

كانت سياسة الدولة العثمانية ، القضاء على إمارة آل سعود . بدأت بذلك من عهد أسلاف الملك عبد العزيز . ووقائع بعض ولاتها ممن كانوا في مصر والحجاز والعراق ، مع أهل نجد ، معروفة .

ولما قام آل رشيد ، موالين للعثمانيين وقائلين بخلافتهم ، اتخذهم العثمانيون سنداً لهم في شبه الجزيرة ، بل أداة نَقْمةٍ يسلطونها يوماً على مبارك الصباح ويوماً على غيره .

وفتر ما بين حكومة آل عثمان وابن رشيد ، حين أصرّ هذا على طلب العون لاحتلال الكويت. وكانت الدولة العثمانية أميل إلى أخذ مبارك بالحُسنى بعد أن علمت بلياذه بالحماية البريطانية ، لتبتعد عن الاصطدام بالبريطانيين ، وتترقب الفرص لإعادة آل صباح إلى طاعتها . إلاّ أنه لما برز اسم آل سعود ثانية في شخص عبد العزيز ووصل ابن رشيد إلى أطراف العراق مستنصراً على « الناهض » الجديد من « أعدائهم القدماء » أصغى إليه ولاة « الدولة » وكبار موظفيها في بلاد الرافدين . وأذن « الباب العالي » — كما كان يسمى —

بإمداد ابن رشيد بالسلاح والمال والرجال . ما دام الغرض (المشترك) محو آل سعود من الوجود .

وزحف ابن رشيد تتبعه قبائل شَمّر كلها ــ شَمّر نجد ، وشَمّر العراق ــ وأحد عشر طابوراً من جنود الدولة العثمانية ، من مختلف العناصر الخاضعة لها يومئذ ، فضلاً عمن يتبع مثل ذلك الجيش الجرّار من القبائل الطامعة بالسلب والنهب .

وعلم عبد العزيز ، وهو في بُرَيْدة ، بخبر هذا الزحف الضخم ، فتقدّم للقائه ..

في البكيرية

تلاقى الجيشان في سهل «البُكَيرية» غربيّ القصيم . وكان ابن سعود جعل جيشه قسمين :

الأول ــ أهل العارض (الرياض وما حولها) وتولى قيادتهم مباشرة . وخصهم لمقاتلة شَمّر وابن رشيد .

والثاني ــ أهل القصيم ومن لحق بالجيش من قبائل مطير وغيرها . يقودهم ابن عمه عبد الله بن جلوي . وخصهم لمقاتلة جيش الترك (العثمانيين) النظامي .

ونشبت المعركة ليلة أول ربيع الثاني ١٣٢٢ (١٩٠٤/٦/١٥) فالتحم أهل العارض بقبائل شمر ، حسب الخطة المرسومة . وتقدم أهل القصيم يريدون الجهة التي فيها الجيش النظامي ، حيث تطلق المدافع بكثرة . وكان بينهم وبين هذا الجيش تلّ عال . فضلّلهم الظلام . وسلكوا طريقاً مقوّساً جعلهم يتركون الترك عن يسارهم ويجدون أنفسهم وراء خيام شمر .

وَتلاصقت شمر والترك العثمانيون ، يقاتلون ابن سعود وأهل العارض .

واستمرت المعركة في حلك الليل ، بضع ساعات . فقتل من أهل الرياض وحدها ٦٦٠ رجلاً ومن أهل جوارها نحو ٣٠٠ وأصيب عبد العزيز ابن سعود بشظايا قنبلة ، في يده اليسرى . وفتك عبد العزيز ورجاله بنحو ألف جندي نظامي ، بينهم أربعة من كبار الضباط ، وحوالي ٣٠٠ شمري بينهم اثنان من آل رشيد . ورجحت كفة ابن رشيد والترك. وتفرقت جمهرة ابن سعود . فانسلّ هذا من الميدان في نحو عشرين فارساً ..

وطلع الفجر وابن سعود بعيد عن البكيرية — في جنوبها — يبحث عن مكان يجمع فيه فلول جيشه ، وإذا بأصوات بنادق تطلق في الهواء . فتبين الخبر . فظهر له جمع من رجاله الذين كان عليهم أن يقابلوا الجيش النظامي ويقاتلوه ، قد أقبلوا بأهازيجهم البدوية .

وسرعان ما حدثوا عبد العزيز بأنهم أرادوا مع أهل القصيم أن يصعدوا التلّ لمهاجمة الجيش النظامي ، وضلّوا الطريق ، فوجدوا أنفسهم خلف شمر ، فضربوها ، وغنموا أرزاق باديتها وأقبلوا على مخيمه — مخيم عبد العزيز ابن سعود — فوجدوا فيه زهاء ٣٠٠ جندي من الجيش النظامي ، ففتكوا بهم . ولما لم يجدوا عبد العزيز (ابن سعود) حمل أهل القصيم ما غنموه من الأسلحة الخفيفة وعادوا إلى بلادهم (بريدة وعنيزة) ظافرين .

اطمأن عبد العزيز ، بعد سماعه الحديث إلى أن الهزيمة لم تكن عامة في جيشه ، فقفل عائداً إلى « عنيزة » في الشمال ، يلمّ شمله . وأقبلت عليه النجدات من بوادي عُتَيبة ومُطير وسواهما .

واجتمع عنده في أقل من أسبوع ، ما يناهز عشرة آلاف مقاتل .

هزيمة أعدائه

زحف عبد العزيز ثانية لقتال ابن رشيد وعساكر الدولة في « البكيرية » وكان ابن رشيد قد ترك فيها موَن الجيش وذخائره . وقصد قرية تدعى

« الحَبْراء » يريد الاستيلاء عليها ، وفيها حامية من جند عبد العزيز ابن سعود ، فامتنعت عليه . وعلم ابن رشيد وهو محاصر لها بعودة ابن سعود ، فخشي على ذخائره في البكيرية ، فأرسل ألفاً وخمسمائة فارس بقيادة « سلطان بن حمود » من آل رشيد ، لحمايتها ، ووصل عبد العزيز ، فالتقى نحو ٦٥٠ من فرسانه بحملة سلطان الحمود ، عند انبثاق الفجر ، فقاتلوها وظفروا . ودخل عبد العزيز البكيرية وقتل أكثر من فيها من حامية ابن رشيد .

ورحل ابن رشيد عن « الحبراء » فنزل في « الشِـنانـَة » جنوبي « الرَّس » وتقدم عبد العزيز إلى « الرس » فدخلها .

أقام ابن سعود وابن رشيد ، متقابلين ، تفصل بينهما مسافة غير بعيدة ، ورجالهما يتهاجمون كل يوم ويتطاردون ، مدة ثلاثة أشهر . من منتصف ربيع الثاني إلى منتصف رجب ١٣٢٢ (١٩٠٤ م)

وملّ جيشا ابن سعود وابن رشيد طول الإقامة في تلك الديار ، وقد حلّ فصل الربيع . فانصرف عنهما أهل البوادي ، يرعون مواشيهم . وتهيأ ابن رشيد للرحيل ، فابتعد إلى جهة « قصر ابن عـُقـَيـّل » على أربع ساعات من الرس .

وعلم ابن سعود برحيله فهبّ في نحو ألف من رجاله ، مشاة على أقدامهم ، إخفاءً لحركتهم .

ووصلوا إلى القصر بعد منتصف الليل . ولاحت لهم خيام ابن رشيد . فدخلوا القصر وكان صاحبه من المخلصين لعبد العزيز . وأقفل عبد العزيز أبوابه ، ووضع المفاتيح تحت رأسه . وعند الصباح يحمد القوم السّرى !

غير أن ابن رشيد ، ما لبث أن تابع السير ، بجموعه المقدّر عددها بخمسة عشر ألفاً من عرب وترك ، تتقدمه إبله ومدافعه وذخائره .

وجمع عبد العزيز ما في القصر من خيل . وخرج بها تتبعه المشاة ،

يترسم خطى ابن رشيد ، ويتحين الفرصة للمفاجأة .

وأناخ ابن رشيد ، في وادي الرُّمَة ، ونصب المدافع استعداداً للطوارىء وبنى بيوت الحرب .

وتقدمت كوكبة من فرسان عبد العزيز ، تناوش جيش ابن رشيد فاصطدمت بقوة من رجاله . واستمر القراع من الضحى إلى منتصف النهار وتقهقر الفرسان السعوديون .

معركة حاسمة

وبينما عبد العزيز يشرف بمنظاره على الحركة ، دنا منه اثنان من رجاله ، أحدهما « محمد أبو شيبة » رئيس بلدة الحوطة (حوطة بني تميم) والثاني ابن له ، فقال أبو شيبة : ماذا تنتظر هنا ؟ لماذا لا نمشي ونهاجمهم ؟ فأشار إليه عبد العزيز أن يتريث ولا يعجل .. فما كان من أبي شيبة إلاّ أن علّق بندقيته برقبته ، واستلّ سيفه ومشى . وهو يقول لولده : هذا عبد العزيز يدوّر الدنيا (أي يعمل للكسب) ونحن نبي الجنة (أي نبغيها) وتابعا سيرهما راجلين ، فاخترقا مرامي الرصاص ، والمعركة دائرة ، وأدركا بيوت حرب ابن رشيد ، فقطعا أطنابها بسيفيهما .

وما شاهد السعوديون « البيوت » تسقط حتى هجموا ، وفي مقدمتهم عبد العزيز ، فكانت معركة طاحنة اشتد فيها الضغط على عساكر الترك ، فتفرقوا مولين ، وتبعهم ابن رشيد ورجاله ، تاركين وراءهم ما حملوه من عدة وعتاد ، وأموال وأرزاق ، وإبل وماشية ، وفرش وثياب . اشتغل رجال عبد العزيز عشرة أيام في جمعها واقتسامها . وبينها صناديق من الذهب نُقلت إلى عُنَيزة (مقرّ عبد العزيز في ذلك الحين) فوزعها على رجاله كسائر الغنائم . وكانت قسمة الواحد من الذهب والجمال فقط تتراوح بين مئة ومئة وخمسين لبرة عثمانية ، وبين عشرة وعشرين بعيراً .

تعرف هذه الواقعة بوقعة « الشِنانة » وكانت يوم ١٨ رجب ١٣٢٢ (٢٩ سبتمبر ، أيلول ١٩٠٤) وهي المعركة التي وطدت قدم ابن سعود في نجد ، وقضت على النفوذ التركي ، وانهارت بها الصخرة الأولى من صرح آل رشيد .

مفاوضات

كتب الشيخ مبارك الصباح إلى عبد العزيز ، يخبره بأن الدولة (الحكومة العثمانية) راغبة في مفاوضة أبيه الإمام عبد الرحمن ، في « الزبير » بالعراق ، وأن والي البصرة سيكون هناك .

وأجاب عبد العزيز ، بالموافقة .

وسافر الإمام عبد الرحمن إلى الكويت . فصحبه الشيخ مبارك إلى « الزبير » واجتمعا بالوالي فاقترح هذا أن يكون القَصيم مقاطعة مستقلة تحجز بين ابن رشيد وابن سعود ، ويكون فيها للدولة مركز عسكري ومستشارون . ووعده عبد الرحمن بعرض ذلك على أهل نجد . وعاد .

ووصل إلى قرب القصيم المشير أحمد فيضي باشا ، قادماً من بغداد ومعه ثلاثة « طوابير » من الجند وخمسة مدافع والفريق صدقي باشا ، قادماً من المدينة بطابورين . وكانا قد اجتمعا بابن رشيد ، واقترح هذا أخذ « القصيم » بالقوة ، فخالفاه ، فانصرف إلى « الكهفة » من قرى حائل .

وتقدم أحمد فيضي بعسكره يريد النزول في « بريدة » فمنعه أهلها من دخولها . وكتبوا إلى عبد العزيز ، وكان في « العَمار » على نحو ٢٥ ميلاً من بُريدة إلى الجنوب ، يخبرونه ويستشيرونه في مهاجمة « فيضي »

وتلقى عبد العزيز رسولهم بينما كان عنده رسول آخر من فيضي باشا نفسه ، يقول : إننا لم نأت لتحقيق مقاصد ابن رشيد ، وإنما جئنا للسلم . ويرغب في أن يقابل والده عبد الرحمن في عنيزة . فأجابه عبد العزيز

بالقبول . وأجاب أهلَ بريدة بأن يتمهلوا إلى ما بعد المفاوضة . وكتب إلى أبيه ، وكان في « شقرا » – قاعدة الوَشْم – يخبره ويرجو ركوبه إلى عنيزة .

واجتمع الإمام عبد الرحمن بفيضي باشا ، في عنيزة . فكان البحث في الصلح بين ابن سعود وابن رشيد . واقترح فيضي أن يكون للدولة مركزان عسكريان موقتان ، في بريدة وعنيزة ، إلى أن يتم الصلح .

وبينما المفاوضات تجري ، وعبد العزيز على اتصال بأبيه في كل خطوة منها ، تلقى فيضي باشا برقية من الآستانة تأمره بالسفر في الحال إلى « صنعاء » لمعالجة « ثورة » الإمام يحيى حميد الدين . فعهد إلى « صدقي باشا » بإتمام المفاوضات وودع عبد الرحمن معتذراً ، ورحل . وكان ذلك سنة ١٣٢٣ ﻫ (١٩٠٥ م)

وصمت صدقي باشا . وجاراه عبد الرحمن في صمته .

ثم انتقل الباشا بعسكره إلى « الشيحية » بين بريدة وحائل . وأقام لا يحرك ساكناً . !

ابن رشيد

وأقام عبد العزيز بن متعب الرشيد ، بعد معركة «الشنانة» في قرية تسمى « الكهفة » من قرى حائل ، يلمّ شعثه ، ويكاتب الترك ، ويرقب ما يصنع ابن سعود .

ورأى من مبارك الصباح ، ميلاً إلى الصلح ، فانعقد بينهما .

وعلم بانقطاع المفاوضات بين الإمام عبد الرحمن وفيضي باشا ثم صدقي باشا . وبلغه أن ابن سعود (عبد العزيز) توجه إلى « قطر » لمساعدة حاكمها الشيخ قاسم بن ثاني ، على قمع ثورة داخلية نشبت في بلاده ، فاهتبل فرصة غيابه ، وأسرع إلى القصيم . فكانت بينه وبين حامية ابن سعود وأنصاره

فيها مناوشات ومعارك .

وعاد ابن سعود من قَطَر ، مارّاً بالاحساء ، فواصل سيره إلى الرياض ، وأخبار ابن رشيد في « القَصِيم » تتعاقب عليه .

وفي المحرم من عام ١٣٢٤ (١٩٠٦ م) زحف إلى القصيم لصدّ ابن رشيد عنها .

وكان الجيشان هذه المرة متقاربين في عددهما ، لا يزيد أحدهما عن ألفي مقاتل . غير أن خيالة ابن رشيد أكثر .

ونزل ابن رشيد في « روضة مهنا » بالقرب من بريدة . وهو ورجاله تعبون من غارة عادوا منها .

واقترب ابن سعود من خيام ابن رشيد وقد ابتدأ الليل. وكانت ليلة١٨ صفر ١٣٢٤ (١٩٠٦/٤/١٤ م) فترجل ومن معه ، وتركوا ركائبهم للرعاة . ومشوا متخفّفين ، ظناً بأن ابن رشيد قد نام وأوى رجاله إلى الخيام .

غير أن كشافة ابن رشيد ، رأت ابن سعود قبل وصوله ، فاستعدّ للقتال .

واشتبك رجال عبد العزيز ابن سعود برجال عبد العزيز ابن رشيد ، يعتركون في الظلام ضرباً بالسيوف ، وطعناً بالخناجر ، ولكماً بالأيدي ، ودفعاً بالأقدام .

من هان يالفرَيْخ !

وكان يحمل راية ابن رشيد رجل يسمى « الفريخ » فأبعده رجال ابن سعود عن مكانه في المعركة ورفعوا رايتهم مكان راية ابن رشيد .

وظن ابن رشيد أن « الفريخ » ما زال حيث كان ، فأقبل على مكانه ، وهو لا يميّز بين الرايتين ، من شدة العجاج وظلمة الليل . وجعل يصيح به :

« من هان يالِفرَيْخ ! من هان يالفريخ » ! فعرف السعوديون الصوت فتصايحوا : ابن رشيد ! ابن رشيد ! وكان بارزاً على ظهر جواده، فانصبّت عليه طلقات البنادق ، فخرّ صريعاً وفيه بضع وعشرون رصاصة .

وكان عبد العزيز بن متعب ابن رشيد ، يوم مقتله ، في الخمسين من عمره . وتدعى هذه الوقعة بذبحة ابن رشيد .

والفاروقي ..

لم ترض حكومة آل عثمان عن صمت قائد جيشها ، في الشيحية ، صدقي باشا، وجموده أمام ابن سعود، بعد مقتل عبد العزيز ابن رشيد، فأوعزت إلى « سامي باشا الفاروقي » بالسفر ، وكان في المدينة المنورة ، ليحل محلّ صدقي . وسامي باشا قائد عربي الأصل، مستترك عرفته سورية بعد ذلك في حملته على بني معروف ، قاسياً عنيفاً .

ومر سامي بقرية « سَميرا » من قرى حائل ، فاجتمع بمتعب بن عبد العزيز ابن رشيد — وقد خلف أباه في إمارة حائل — وكان الحديث بينهما عن « القَصيم » كما كان بين فيضي باشا والإمام عبد الرحمن . غير أن سامي باشا طلب موافقة متعب على أن يكون القصيم تابعاً للدولة العثمانية ، ولم يكن لمتعب في القصيم ناقة ولا جمل ، فوافق ...

ووصل سامي إلى « الشيحية » فرحل صدقي . وأرسل سامي إلى ابن سعود برغبته في مقابلته ، فاجتمعا في « البكيرية » ولم يكن لَبقاً ، فقال لابن سعود : إن أهل القصيم يريدون أن تكون السياسة في بلادهم للدولة . وأجابه ابن سعود : ليس لأهل القصيم رأي فهم من أتباعي . وتكلّم بعض أهل القصيم فذكروا أنهم لا يرضون عن ابن سعود بديلاً . فأجابهم سامي : إنكم تجهلون الصالح لكم . جئنا نعلّمكم الإخلاص للدولة ، ولا معلم اليوم غير السيف .. فأجابه ابن سعود : يؤسفني أن توكل الدولة أمورها

إلى مثلك . ما كان العرب يا سامي ليطيعوا صاغرين . لا والله ! ولولا أنك ضيف عندنا ما تركناك تقوم من مكانك ... وافترق المتفاوضون .

وفي مساء ذلك اليوم أرسل ابن سعود إلى سامي ينذره بالقتال في الفجر . وعاد رسول ابن سعود ومعه ثلاثة ضباط يسترضونه ، ويقولون : إن الباشا وعسكره ضيوف عليكم واحسبوهم في معيتكم .

وقام ابن سعود إلى « عنيزة » فعلم أن الفاروقي يتهيأ للانتقال بجيشه إلى حائل ، لينضم إليه ابن رشيد (متعب) ويقوما معاً بمهاجمة القصيم . فأسرع إلى البكيرية . وأرسل إلى الفاروقي يخيره بين أمرين : إما أن يرحل بجيشه ، في خلال خمسة أيام ، إلى السرّ (ليبعده عن الاتصال بابن رشيد) وإما أن يتولى هو — ابن سعود — ترحيل الجيش ، فيرسل العراقيين منه (الذين جاؤوا مع فيضي باشا) إلى العراق ، والشاميين (الذين جاؤوا مع صدقي باشا) إلى المدينة . وإذا رفض الأمرين ، فالحرب بينهما .

ورضي الباشا — مرغَماً — بالأمر الثاني ، فضمن ابن سعود سلامة الفريقين . ورحل سامي مع فريق المدينة آمناً . ورحل فريق العراق على ركائب ابن سعود آمنين شاكرين .

السلطان يشكره

وبعد شهرين ، أرسل السلطان عبد الحميد يشكر « الأمير الخطير والزعيم الكبير عبد العزيز باشا سعود » على معاملته عساكر الدولة ، تلك المعاملة الشريفة . ويسأله أن يرسل وفداً من رجاله إلى الآستانة . فأرسل ثلاثة نزلوا ضيوفاً على « الحضرة الشاهانية » ومُنحوا ألقاب « الباشوية » والنياشين ..

قبل التنظيم الحديث

نشر كاتب في « أم القرى » سنة ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) عشرين مقالة متسلسلة تحت عنوان « كيف قطعت نجد الطور الرهيب » نقتبس منها الطُرَف الآتية :

١ ـ الاستعداد الحربي : كانت الدعوة للجندية وتهيئة الجيش للقتال ، قبل التنظيم الحديث ، عمادها أن كل فرد في نجد ، محاربٌ بطبيعته . يحمل السلاح منذ نشأته ، ويتمرن عليه . فإذا دُعيَ تقلّد بندقيته وركب ناقته ومضى إلى المعركة . وإذا أراد الملك دعوة الجيش أو قسم منه ، كتب إلى بعض الجهات أو كلها ، وأمر بتعيين أمير لكل فريق منهم . ثم يصدر تعليماته إلى « الأمراء » فينفذونها .

٢ ـ فِرَق الجُند : ولم يكن في نجد ثكنات عسكرية ، لأن بلاد نجد كلها ـ على تلك الطريقة ـ تؤلف ثكنة تضم الرجال جميعاً . وهم أقسام لكل قسم منهم طراز خاص . ويمكن حصر الأقسام (تقريباً) بما يأتي : ١ ـ أهل العارض ، وهم اليوم سكان الرياض . وإن **كان المقصود بادية العارض فهم قبائل أهمها سبيع والسهول ٢ ـ أهل** حواضر المدن ٣ ـ أهل الهِجَر ٤ ـ البدو .

٣ ـ المساعدات المالية : وكانت لكل من أهل الأقسام الأربعة مساعدات مالية ، هي أربعة أنواع : « الشرهة » وهي المنحة التي يأمر بها الملك من خزينته الخاصة لمن يفد عليه . وتكون على الغالب مصحوبة بعباءة أو بكسوة يختلف نوعها باختلاف حال الوافد ومنزلته . و « القاعدة »

وهي مرتب سنوي لكل فرد من الأفراد المسجلة أسماؤهم في ديوان الحرب أو غيره . و « البَرْوَة » وهي تحويل بمال أو غيره كمقدار من الأرز والسكر والتمر والقهوة والشاهي . فإن كان مالاً قبضه حامل التحويل من إحدى الجهات التابعة لبيت المال ، وإن كان غير ذلك تَسلّمه من الجهة المختصة . والبَرْوَة تُصرف مرة واحدة ، ما لم يأمر الملك بتكرارها . و « المعاونة » أشبه بالشرهة ، إلا أنها تُعطى إجابة لطلب المستعين . وتكون على الأكثر لغرض معين كزواج أو شراء فرس أو عمارة بيت أو وفاء دين الخ . وكانت لمجموع هذه المساعدات شعبة خاصة في ديوان الملك .

٤ — سَبْر العدوّ : يُستخدم في سبر العدوّ على الأغلب « البدو » فيرسل بعضهم إلى منازل العدوّ وقد تكون على بعد عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً ، فيقصدونها ويتحسسون أحوالها ، ويعاينون مواقعها ثم ينتهزون فرصة انفراد بعض الأباعر فيسوقونها أمامهم « نهباً » ويعودون غانمين بالمال والأخبار .

٥ — منازل الجند : وكان لمنازل الجند ، في أسفار الملك ، ترتيب خاص يأمر به . أما في حال الحرب ، فلا يجعل أحداً من الجند وراء مخيمه بل يكون ترتيبهم على يمينه وشماله . وتكون منازل جماعتهم متقاربة . ولا ينزل بعضهم خلف بعض ، بل يجعلهم صفاً واحداً ، حذراً من مباغتة العدوّ لهم ليلاً ، فإن بُوغتوا خرجوا إلى القتال مصطفين متراصّين .

٦ — نظام السير : يستعلم الملك قبل السير عن الطرق التي أمامه والمياه والمراعي فيها . وقد يرسل من يأتونه بخبرها ، وينتظر فلا يتقدم حتى يعودوا إليه . ولا يعلن موعد السير إلا ساعة ابتدائه . وأول من يركب صاحب « راية الملك » ويعين الناس أماكنهم ، على يمين

صاحب الراية وشماله فإذا مشوا أو تفرقوا أو خاضوا المعركة ، فالراية محورهم .

٧ – أنواع القتال : يقولون : صبّحنا بني فلان ، أو راوحناهم ، أو هَجَدْناهم الخ . ويعنون بالتصبيح مهاجمة العدوّ قبل الصباح . وكثيراً ما يصيح المهاجمون في بدء المعركة : « صبّحناكم لا صبحتكم العافية » ويمدون كلمة العافية في مقطعها الأول . و « الرّوْحة » وهي المعركة التي تنشب من بعد الزوال إلى غروب الشمس . و« الهَجاد» أو « المهْجاد » الهجوم بعد غروب الشمس إلى طلوع الفجر . وهو من أشد أنواع القتال خطراً . لأنه كثيراً ما يختلط فيه الحابل بالنابل فلا يميّز بين العدوّ والصديق . ويسمون وقائع الضحى من النهار « الغارة » أو « اللُّقْوة » – من التلاقي والأصل فيها اللقية – ولا يُقدم عليها إلا المعتدّ بقوته ، يهاجم عدوّه في وضح النهار غير هياب . وأكثر ما كان يعمد إليه عبد العزيز في حروبه الأولى « الهجاد » لقلّة ما كان عنده من الجند .

من كلام الملك عبد العزيز

– لست من المحبين للحرب وشرورها . وليس أحبّ إليّ من السلم والتفرغ للإصلاح.

– الإنسان يقوم على ثلاث فضائل: الدين والمروءة والشرف . وإذا ذهبت واحدة من هذه سلبته معنى الإنسانية .

– أنا ترعرعت في البادية ، فلا أعرف آداب الكلام وتزويقه . ولكني أعرف الحقيقة عارية من كل تزويق .

فــتن وضغائن

صفا ملك القَصِيم لعبد العزيز آل سعود ، بعد خروج الترك منه ومقتل عبد العزيز ابن رشيد ، واعتراف متعب ابن رشيد لابن سعود به . وتعاهد السعودي والرشيدي على أن تنحصر إمارة متعب في حائل وجبل شمر ؛ وأطلق متعب من كانوا في أسره بحائل من بقايا آل سعود . وتهيأ عبد العزيز لمعالجة فتن ومداواة ضغائن عكرت ذلك الصفو ، كان أهمها :

١ — أن متعب ابن رشيد ، لم يلبث أن قتله بعض أبناء عمومته . وتولى مكانه سلطان بن حمود العُبيد (بالتصغير) من آل رشيد ، ولم يتقيد هذا بصلح متعب ، بل كاتب أهل بُريدة يستثيرهم على عبد العزيز ابن سعود ، وأبلغ أمير القصيم أنه « يردّ عليه البَرا » أي أن الصلح بينهما أصبح منقوضاً .

٢ — خرج أمير بريدة محمد أبو الخيل (من آل مهنا) عن طاعة عبد العزيز . ووالى سلطان بن حمود الرشيد . وجاء سلطان إلى جوار بريدة ، يتحرش بعبد العزيز ، ويناصره أبو الخيل .

٣ — تمرد على عبد العزيز اثنان من زعماء « الإخوان » وقادتهم ، هما : فيصل بن سلطان الدويش ، ونايف بن هذال . وتحالفا مع سلطان الحمود ومحمد أبي الخيل ، عليه .

٤ — تكرر من الشيخ مبارك الصباح ، بعد صلحه مع آل رشيد ، ما يؤكد

انحرافه عن عبد العزيز . وهو ما زال يكتب له « يا ولدي » ويجيبه عبد العزيز بيا والدي !

٥ — نشبت فتنة بين الهزازنة (من عَنَزَة) وكانت لهم إمارة الحَرِيق (في وادي الفُرْع) فقتل بعضهم بعضاً ، وعصوا عبد العزيز .

٦ — كان قد أرسل قافلة لتمتار من الأحساء ، والأحساء يومئذ تحت السلطة التركية (العثمانية) فرُدت القافلة ومُنعت من الامتيار ، بقصد التضييق على جيش عبد العزيز ، وإجاعته .

٧ — وأخيراً وهذه خاتمة المزعجات : أرسل عبد العزيز أخاه سعداً ، وهو في السابعة عشرة من عمره ، إلى عتيبة ، يستنفر رجالها لبعض أموره ؛ فنزل سعد بأطراف « القُويعية » في العِرْض ، وكانت لعتيبة هيمنة على بعض تلك الجهات ؛ فأخذت سعداً إلى شريف مكة (الحسين ابن علي) وكان هذا نازلاً بالقويعية ، فاصطحبه معه واتجه شمالاً إلى « الشّعْراء » ومنها شرقاً إلى ماء قريب من « الوشم » وقيل لعبد العزيز : أخوك أسير !

تعاقبت هذه الأحداث بين سني ١٣٢٥ و ١٣٣٠ هـ (١٩٠٧ — ١٩١٢ م) ولسان حال عبد العزيز : كلّما داويتُ جرحاً سال جرح ...

وكان العلاج :

١ — نفض يده من « مُطَير » وهم من جمرات العرب ، بعد خروج كبيرهم فيصل بن سلطان الدويش عليه . واستنصر بقحطان وعتيبة نجد ، فنصروه . وبدأ بضرب الدويش ومطير . فأغار عليهم في جهة من « سُدَير » ثم في أطراف « المَجْمَعَة » فقتل عدداً منهم . وجُرح الدويش ففرّ إلى ابن رشيد (سلطان الحمود) وكان مخيماً قرب بريدة . واستسلم كبار مطير لعبد العزيز ، فأمّنهم ولم يأمنهم .

٢ — أغار عبد العزيز — على خيام سلطان الحمود (ابن رشيد) على مقربة من قصر بريدة ، فكانت بينهما مناوشات ، كبا في إحداها جواد عبد العزيز ، فوقع عنه ، وكسر عظم في كتفه الأيسر ، وأغمي عليه . ولكن رجاله ثبتوا . وتصدى لهم فيصل الدويش وقد شفي من جرحه ، فهزمه رجال عبد العزيز ، وطاردوه إلى « الطرفية » في شمالي بريدة فوجدوا فيها أهله فذبحوا أكثر رجالهم ، واستولوا على البلد . ووصل عبد العزيز على الأثر ، فعسكر في « الطرفية » ولم ينم ليلته تلك ، من آلام كتفه . وكان يتوقع هجوم ابن رشيد وأمير بريدة عليه ، في « الطرفية » فصح حدسه ، وأغارا في منتصف الليل (ليلة ٥ شعبان ١٣٢٥ = ١٩٠٧ م) ودامت المعركة إلى الفجر . وكان يديرها عبد العزيز ، ويده المصابة معلّقة في عنقه . وتمّ له الظفر .

٣ — وبعد سنة وسبعة أشهر كانت المعركة الفاصلة بينه وبين سلطان الحمود : تلاقيا في « الأشْعَلي » من النفود ، فجر خامس ربيع الأول ١٣٢٧ (١٩٠٨ م) فكُسر سلطان كسرة لم تقم له بعدها قائمة . وعاد إلى عاصمته « حائل » حيث قتله « أخواه » سعود وفيصل ، ابنا حمود ، من آل عبيد ، من الرشيد ، لخلاف بينهم وبينه .

٤ — كان عبد العزيز يعلم أن أكثر أهل بُريدة ليسوا على وفاق مع أميرهم محمد أبي الخيل . ولكنهم يخشونه . فحاصرها إلى أن اتصل به بعض أهلها ، ووعدوه بأن يفتحوا له باب السور وقت صلاة العشاء . وفتحوه فدخل ، وقاومه رجال أبي الخيل ، فقُتل عشرة منهم وخمسة من رجال عبد العزيز . وجاءه رؤساء البلد ، في الفجر ، يلتمسون العفو ، فعفا عنهم . واستسلم المقاتلون . وكان ذلك سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م)

٥ — لم يكن بين عبد العزيز والشريف حسين (الملك حسين) حتى ذلك

الحين ، خير ولا شر . لكل منهما شأنه ووجهته . غير أن حكومة الاتحاديين العثمانية ، لما أدركت – على ما يظهر – ضعف آل رشيد ، أرادت أن تقيم في وجه عبد العزيز جبهة ثانية في نجد تحول دون توسعه . فأوعزت إلى شريف مكة – وقد عُين ووصل من الأستانة قبل وقت قريب – أن ينشىء علاقات مع البادية في شرقيّ الحجاز ، ويستميل إليه بعض القبائل ، للاستعانة بها على حفظ التوازن في شبه الجزيرة . ووافق ذلك هوى في نفس الشريف حسين ، فقام برحلة إلى بادية عتيبة–في أطراف نجد الغربية–سنة ١٣٣٠ (١٩١٢م) فعلم بوجود سعد . وجيء به إليه . فاستبقاه ، كما قدّمنا ، ليساوم عبد العزيز عليه .

واضطرب عبد العزيز ، فترك كل شيء إلا سعداً . وزحف بجيشه إلى ضَرَمى غربي الرياض ، وكتب إلى شيوخ « عتيبة » ينذرهم : إن تركوا الشريف يرحل إلى الحجاز ، ومعه سعد ، فالحرب بينه وبينهم لا هوادة فيها . وعرض هؤلاء كتاب عبد العزيز على الشريف وقالوا : إما أن تقيم فنحارب ابن سعود جميعاً ، وإما أن تطلق أخاه ، فلا طاقة لنا بحربه منفردين . وأرسل الشريف حسين مندوباً من قبله إلى عبد العزيز يقول له : إن الشريف ليست له نية سيئة ، ولكنه يبغي تبييض وجهه مع الدولة . يريد منك ورقة تنفعه عندهم ولا تضرك . يريد أن تعترف ولو إسمياً بسيادة الدولة ، وأن تعد بدفع شيء من المال سنوياً . فأمر عبد العزيز كاتبه أن يكتب أن بلاد نجد تدفع للدولة ستة آلاف مجيدي كل سنة .. » وسماها « قصاصة ورق » وعاد سعد يحمل هدايا من الشريف حسين لا يزال بعضها محفوظاً إلى الآن .

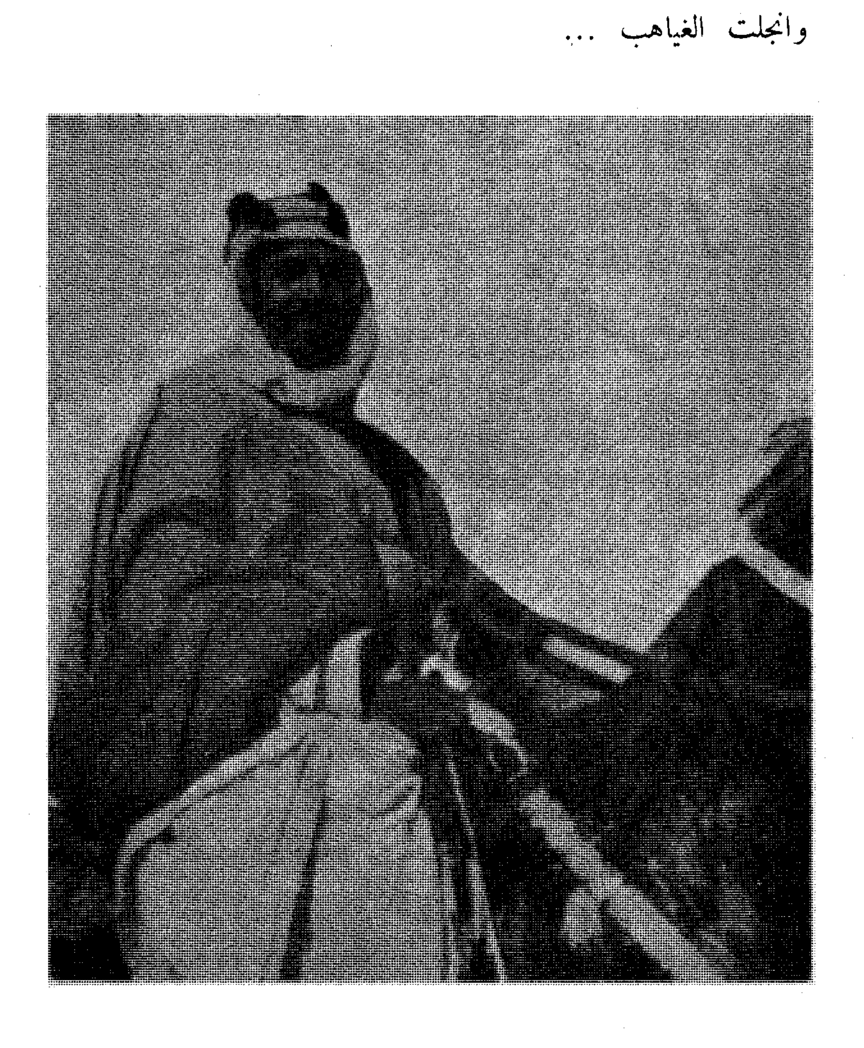
٦ – وانصرف عبد العزيز إلى معالجة فتنة داخلية ، كان ممن خرج بها عن طاعته أهل « الحوطة » وهم معروفون بالشجاعة والقسوة . فزحف عبد العزيز إليهم في مقرهم ببلدة « الحريق » وقاتلوه . فشتتهم

ودخلها ظافراً سنة ١٣٢٨ (١٩١٠ م) وعُرفت المعركة بوقعة الحَريق .

، ، ،

وما كاد يعود إلى الرياض ، حتى جاءه من أنبأه بأن الترك ، في الأحساء على استعداد للسماح لقوافله بالامتيار منها ...

وانجلت الغياهب ...



الترك والعرب

في سنة ١٣٣٠ (١٩١٢ م) كتب إليه والي البصرة (العثماني) سليمان شفيق كمالي باشا . يسأله عن رأيه في أمراء العرب وشقاقهم وخروج بعضهم على الحكومة العثمانية . فأجابه :

« إنكم لم تحسنوا إلى العرب ، ولا عاملتموهم في الأقل بالعدل . وأنا أعلم أن استشارتكم إياي إنما هي وسيلة استطلاع ، لتعلموا ما انطوت عليه مقاصدي . وهاكم رأيي ، ولكم أن تؤولوه كما تشاؤون :

« إنكم المسؤولون عما في العرب من شقاق . فقد اكتفيتم بأن تحكموا ؛ وما تمكنتم حتى من ذلك .

« قد فاتكم أن الراعي مسؤول عن رعيته . وفاتكم أن صاحب السيادة لا يستقيم أمره إلا بالعدل والإحسان . وفاتكم أن العرب لا ينامون على الضيم ، ولا يبالون إذا خسروا كل ما لديهم ، وسلمت كرامتهم .

« أردتم أن تحكموا العرب فتقضوا أربكم منهم . فلم تتوفقوا إلى شيء من هذا أو ذاك . لم تنفعوهم ولا نفعتم أنفسكم .

« وفي كل حال ، أنتم اليوم في حاجة إلى راحة البال ، لتتمكنوا من النظر الصائب في أموركم الجوهرية .

« أما ما يختص بالعرب ، فإليكم رأيي فيه :

« إني أرى أن تدعوا رؤساء العرب كلهم ، كبيرهم وصغيرهم ، إلى مؤتمر يعقد في بلد لا سيادة ولا نفوذ فيه للحكومة العثمانية ، لتكون لهم

حرية المذاكرة . والغرض من هذا المؤتمر التعارف والتآلف ، ثم تقرير أحد أمرين : إما أن تكون البلاد العربية كتلة سياسية واحدة يرأسها حاكم واحد ، وإما أن تقسموها إلى ولايات تحددون حدودها . وتقيمون على رأس كل ولاية رجلاً كفوأً من كل الوجوه ، وتربطونها بعضها ببعض بما هو عامّ مشترك من المصالح والمؤسسات .

« وينبغي أن تكون هذه الولايات مستقلة . استقلالاً إدارياً ، وتكونوا أنتم المشرفين عليها .

« فإذا تم ذلك فعلى كل أمير عربي ، أو رئيس ولاية ، أن يتعهد بأن يعضد زملاءه ويكون وإياهم يداً واحدة على كل من تجاوز حدوده أو أخلّ بما هو متفق عليه بيننا وبينكم »

« هذه هي الطريقة التي تستقيم فيها مصالحكم ومصالح العرب ، وتكون فيها الضربة القاضية على أعدائكم .

، ، ،

ومن كلام عبد العزيز

— إني على استعداد لأن أكون كجندي بسيط أجاهد في سبيل العرب ، وتوحيد كلمة العرب ، وتأسيس الوحدة بين العرب .

— العرب اليوم ، هم كالطفل الصغير يحتاجون إلى عناية شديدة . فمن الواجب على الذي يتولى أمرهم أن ينصحهم ويرشدهم إلى طريق الصواب .

— اثنتان أحمد الله على واحدة منهما وأشكره على الأخرى . أحمد الله على أني أكره أهل الضلال ، وعلى كراهة أهل الضلال لي.وأشكره على محبة أهل الخير لي ومحبتي لهم .

الاحساء والقطيف

الأحساء ، أو الحَسَا ، بقاع أكثرها رملي ، على الساحل الغربي من الخليج العربي . تمتدّ من الكويت إلى قَطَر وعُمان وصحراء الجافورة . ويحدها من الغرب الصَّمّان . وتكثر فيها المياه ، من آبار وعيون وجداول تتكون منها بحيرات صغيرة .

وفي شماليها واحة « القطيف » التي يحدها من الجنوب « الظّهران » وفي القطيف أكثر من أربعين قرية .

وكان الأتراك العثمانيون يسمون الأحساء والقطيف « لواء نجد » استولوا عليهما سنة ١٢٨٨ (١٨٧١ م) أيام اختلاف أبناء الإمام فيصل جدّ الملك عبد العزيز . وكان يتولى إدارتهما « متصرف » تابع لولاية البصرة . وقد آل أمرهما سنة ١٣٣١ (١٩١٣ م) وما قبلها إلى الفوضى ، بانزواء المتصرف والحامية وراء الأسوار تاركين الطُرق للبَدْوِ يعيثون فيها .

ولما استرد عبد العزيز معظم بلاد أسلافه ، ولم يبق في أيدي الترك سواهما ، كان من الطبيعي أن يفكر في الاستيلاء عليهما أيضاً . أضف إلى هذا أن الحكومة العثمانية لم تفتأ إلى ذلك الحين ، تقيم في وجهه العقبات وتؤيد خصومه . والمتصرف المقيم في الأحساء يعمل دائباً على إغراء البدو بعداوته .

وكان ختام ما بينه وبين الترك ، حديث والي بغداد جمال باشا (السفاح) فقد قال لمندوب ابن سعود — أحمد بن ثنيان — : « إن ابن سعود لا يعرف مقامه ، وقد غرّه أن صفح عنه المشير فيضي باشا . فإن كان لا يقبل بما

تطلبه الحكومة ، فإنّ في إمكاني أن أخترق نجداً من الشمال إلى الجنوب بطابورين »

وأجابه عبد العزيز في كتاب : « قلتم إنكم تستطيعون بطابورين أن تخترقوا بلاد نجد من الشمال إلى الجنوب ، ونحن نقول : سنقصر لكم الطريق قريباً إن شاء الله .. »

كتب عبد العزيز هذا . وزحف حتى بلغ ماء « الحَفْس » (خفس العرَمة) في شمالي الرياض ، فنزل عليه ، ثم تقدم حتى نزل على ماء أو موضع يقال له « السيفة » يبعد ميلاً واحداً عن « الهفوف » وفي الهزيع الأول من الليل (الساعة الثالثة عربية — التاسعة زوالية) من يوم ٥ جمادى الأولى ١٣٣١ (١٩١٣ م) تقدم بنحو ستمائة من رجاله ، وقال لهم : سنهاجم الكُوت (القلعة) فلا تجيبوا من يكلمكم حتى تدخلوها ومتى دخلتم فحاربوا من يحاربكم . ولا تدخلوا البيوت ولا تقتربوا من النساء !

وسار — وهم وراءه — مشياً على الأقدام ، يحمل بعضهم حبالاً وجذوعاً من النخل . فلما وصلوا إلى السور — وارتفاعه ٣٤ قدماً — قسمهم ثلاث فرق : تسير الأولى إلى الباب الجنوبي ، فتقبض على الحرس وتتسلم الباب . وتسير الثانية إلى القَصْر لعلّ المتصرّف فيه فتأسره . وتتفرق الثالثة في أبراج السور .

وربطت الجذوع بالحبال على شكل سُلّم ، تسلّقه عشرة منهم . فسألهم الحرس : من أنتم ؟ فلم يجيبوا . وصعد آخرون . وكثروا في داخل السور . وحدثت ضجة . وأطلقت البنادق . وهبّ العساكر من رقادهم فنادى منادٍ من أعلى السور : الملك لله ، ثم لعبد العزيز ! من أراد العافية يلزم مكانه !

وأقبل الناس على عبد العزيز ، لما عرفوه مرحّبين . ولجأ الجند إلى الحصون .

فلما بزغ الفجر ، شرعوا يطلقون البنادق والمدافع على غير هدى . فأرسل إليهم عبد العزيز أن يسلّموا فيؤمنهم ويرحلهم إلى بلادهم.وقَبِل القائد والمتصرف الأمان . وسلّمت الحامية ، وكانت ١٢٠٠ جندي . فأذن لهم عبد العزيز بحمل سلاحهم — ما عدا الذخائر والمدافع — وقال : لا ننزع من الجندي العثماني سلاحه !.. وأمر بالركائب فرحّلهم وعيالهم إلى « العُقَيَر » وأرسل معهم أحمد بن ثنيان يخفرهم ويؤمن طريقهم .

وبعد احتلال الهفوف ، أرسل سرية إلى « القطيف » فبادر أهلها إلى التسليم . وفرّ من فيها من الجند على السفن .

صاحب الدولة !

رضي العثمانيون بالأمر الواقع . وأرسلوا يفاوضونه على « الولاء » وكان رسولهم السيد « طالب النقيب » وعبد العزيز في « الصبيحية » على مقربة من الكويت . فقابل طالباً ومن معه . فطلبوا أن يكون للدولة معتمدون في القطيف والأحساء ، فأبى عبد العزيز ذلك . وطلب أن تكون العلاقات « ولائية » فقط وأن تساعده الدولة ، لقاء هذا الولاء ، بالأسلحة والذخيرة والمال .

وكان لا بد لهم من عرض هذا ، على الحكومة ، فاستمهلوه إلى أن يراجعوا « الباب العالي » فأمهلهم وانصرفوا .

ثم لم يلبث أن أقبل السيد طالب يقول : إن والي البصرة تلقى برقية من الأستانة تتضمن الموافقة على ما تقرر في اجتماع « الصبيحية » مع الشكر لابن سعود وتسميته « والياً » لنجد و « متصرّفاً » للأحساء وإهدائه النيشان العثماني الأول ورتبة الوزارة . وكان ذلك في أواخر سنة ١٣٣٢ (أوائل ١٩١٤م) وبدأوا يلقبونه بصاحب الدولة .

في الحرب العامة الاولى

نشبت الحرب سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م) وسلطان عبد العزيز ابن سعود ، منبسط في قرابة ثلث مليون كيلومتر مربع . وهو دائب على محاربة عدوّ واحد ، في الشمال الغربي (ابن رشيد) ، ويجامل عدواً يلبس لباس الصديق (الشريف حسين) في الغرب ، ويوالي صديقاً يعمل عمل العدوّ (مبارك الصباح) في الشمال .

وانشق العالم الأوربي إلى فريقين : دول التحالف ودول الاتفاق .

وخشي عبد العزيز أن يصل لهب الصراع إلى شبه الجزيرة ، فتحترق بنار غيرها . وأمّل أن يفلح سعيه في تكوين رأي يشترك فيه أمراء الجزيرة في سياستهم الداخلية والخارجية ، أو يتفاهمون على فريق يناصرونه من الفريقين. فكتب إلى جيرانه الثلاثة المتقدم ذكرهم (ابن رشيد ، والشريف حسين ، ومبارك) يقول : « أرى وقد وقعت الحرب ، أن نجتمع للمذاكرة . عسى أن نتفق على ما ينقذ العرب من أهوالها ، أو نتحالف مع دولة من الدول ، لصون حقوقنا وتعزيز مصالحنا »

فكان جواب ابن رشيد : « إني مع الدولة ، أحارب من حاربت وأصالح من صالحت »

وأرسل الشريف حسين ابنه (عبد الله) فاجتمع على الحدود — بين الحجاز ونجد — بمندوب أرسله عبد العزيز ، فقال له عبد الله : « عسى لم ينس ابن سعود ما تعهد به لوالدي يوم أطلق أخاه سعداً » فهزّ المندوب السعودي رأسه . وافترقا .

وأما مبارك فكتب إلى عبد العزيز يدعوه لمفاوضة حاكم الهند البريطاني ..

. . .

لم تفلح الدعوة ، ولكن تفتحت لها أنظار من يعرفون قيمتها . فبادر الإنكليز إلى إرسال من يُذكّر عبد العزيز – قبل توقيعه المعاهدة معهم – بأنهم جيرانه الأقربون في الخليج والخط البحري الممتدّ منه إلى الهند . وأرسل العثمانيون ، ومن ورائهم برلين ، وفدين أحدهما برئاسة طالب النقيب والثاني من أعضائه محمود شكري الألوسي ، يحملون هدية من الدولة لعبد العزيز عشرة آلاف ليرة ذهبية ، فوعدهم بألاّ يمنع تجار نجد من المساعدة على تموين الجيش العثماني بالأرزاق .

واحتفظ عبد العزيز بحياده ، حتى بعد المعاهدة مع البريطانيين ، فكان موقفه نقياً : لم يتعرض للشريف حسين في الحجاز ، قبل الثورة ولا بعدها ولا للقوة العثمانية في عسير واليمن . بل ترك رسلها وأموالها تغدو وتروح بين اليمن والشام عن طريق بلاده . وهو مع ذلك محتفظ بمودة البريطانيين ومعاهدتهم . ومات مبارك ، فصفا الجو بينه وبين خلفه جابر بن مبارك .

وبعد قيام الشريف بثورته على الترك ، كان السِرْ برسي كوكس (المقيم البريطاني في الخليج) يتحدث يوماً مع عبد العزيز ، فذكر الخلافة وانتقالها إلى العرب . وسأل عبد العزيز عن رأيه في أن تكون له ؟ فأجاب : الشريف حسين أجدر بها ...

قبل ثورة الشريف

ولما اشتدّ الضغط على الحلفاء في الجبهة الغربية، أيام الحرب العامة الأولى ، في السنة الثانية من نشوبها ، وأرادوا إثارة العرب على الترك ، أوعزت الحكومة البريطانية إلى مندوبيها الرسميين – وغير الرسميين– أن يتصلوا بزعماء العرب ، في مختلف أقطارهم . فكانت معاهدتهم مع محمد بن علي الإدريسي في عسير ، سنة ١٣٣٣ (١٩١٥ م) فانتقض على من في بلاده

من الترك . . وكانت محادثاتهم الأولى مع الشريف حسين في الحجاز ، وقد تردد في بادىء الأمر . . وكانت محاولاتهم لاستثارة عبد العزيز في الرياض ، وعنده من معتمديهم الكابتن شكسبير ، القنصل البريطاني في الكويت .

عرض عليه شكسبير « وعوداً » من حكومة بريطانيا . واستمهله عبد العزيز لاستشارة والده وزعماء رجاله . فأمهله شكسبير ، وأقام ينتظر جوابه .

وكتب عبد العزيز إلى ابن رشيد (وكان على عدائه المعروف معه) وإلى مبارك الصباح ، وإلى الشريف حسين ، يقول لهم : إن الإنكليز يتعهدون لي إذا نحن قاتلنا الترك وأجليناهم عن بلاد العرب ، أن يتركوها لنا .

وقبل أن تجيء أجوبتهم ، عرف شكسبير أن تأجيل الجواب لم يكن الغرض منه ما ذكره عبد العزيز . فراجعه مرة ثانية ، وقال له : بلغني أنك كتبت إلى أمراء العرب تستشيرهم . وثق أنهم ما فيهم غير عدوّ لك. فأكد له أن غرضه التأني قبل الشروع . واستمهله ...

وجاء جواب ابن رشيد : « إن أنور باشا قد أرسل إليّ عشرة آلاف بندقية . وبعد أن أكسرها عليك وعلى رجالك ، أُفكر في الصلح معك والقيام على الترك »

وأجابه ابن صباح : « إن في ميناء الكويت باخرة بريطانية فاحضر وقابل ربانها وأنا معك على ما تتفقان عليه »

وأجابه الشريف حسين : « سأرتقب الفرصة لعمل ما أراه »

فلما اطلع على أجوبتهم دعا إليه شكسبير ، وقال له : أنت تعلم أنكم بعيدون عنا ، وأن في العرب من يتهمني بالدعوة إلى مذهب خامس . فقيامي معكم وجَعْل رايتي المنقوش عليها « لا إله إلا الله » إلى جانب رايتكم ، أمر غير نافع لي ولا لكم . والرأي عندي أن تكتبوا إلى الشريف حسين فإن

اتفق معكم فأنا أعدكم بأنني لا أعرقل له سعياً ما دام في حرب مع الترك .

وحاول شكسبير أن يقنعه بالقيام . فذهب سعيه سدى . فكتب إلى حكومته ، فكانت الثورة على يد الشريف .

معركة مع ابن رشيد

أمعن عبد العزيز ، في كلمة ابن رشيد : عشرة آلاف بندقية أكسرها على رأسك .. وجاءه من أعلمه أن والي البصرة العثماني قابل ابن رشيد في مكان يُدعى سِفوان قرب البصرة ، وسلمه سلاحاً وذخائر ومالاً لقتال ابن سعود .

ووصلت إليه أنباء بأن ابن رشيد يتأهب للزحف على الرياض . ونهض عبد العزيز ، فتلاقيا على « ماء جراب » شرقي الزلفي وشمالي الأرطاوية يوم ٧ ربيع الأول ١٣٣٣ (١٩١٥/١/٢٤ م)

وكان مع عبد العزيز خيالة من العجمان ومطير . ولما احتدم القتال فرّ العجمان خيانةً وهجم أعراب الجيش الرشيدي على خيام ابن سعود ينهبونها ، وأغار أعراب مطير على مخيم ابن رشيد فجردوه مما فيه وساقوا ما وراءه من الإبل غنيمة باردة . وشُغل الزعيمان السعودي والرشيدي بمطاردة الناهبين ، واختل نظام المعركة وتفرّق الجمعان : لا غالب ولا مغلوب ، كما كان يقول الملك عبد العزيز ، وفاز من معهما من الأعراب بالغنائم والأسلاب .

وقُتل في هذه الموقعة الكابتن شكسبير ، وسيأتي خبره .

عبد العزيز ومبارك الصباح

مبارك بن صباح بن جابر بن عبد الله بن صباح ، ينتمي إلى عنزة من أسد . أمه : لؤلؤة بنت محمد من بني مرخان ، جدّ سعود ، الذي ينتسب إليه آل سعود .

أخباره مع عبد العزيز ، مليئة بالمفارقات والمتناقضات .

عَرف مبارك ، وهو داهية العرب في عصره ، وفي الخامسة والخمسين من عمره ، عبدَ العزيز ، وهو فتى في عنفوان صباه ، لم يتجاوز من العمر السابعة عشرة ، فدعاه : « يا ولدي » ثم لم يزل يعامله على أنه « يافع » وكأحد أولاده ، طوال حياته .

شب عبد العزيز ، واشتهر ، وساد ... ومبارك يخاطبه بولدي ! ولا يحمل له شيئاً من إخلاص الوالد للولد . يؤذيه ويعرّضه للأخطار ، ويسيء إليه حاضراً وغائباً ، وعبد العزيز الوفيّ الحييّ يقابله بالحلم وينجده في الملمات ويقبل معاذيره في الزلات ، ويكتب إليه بيا والدي ...

١ — استعان مبارك بعبد العزيز وأبيه ، أيام كانا عنده في الكويت ، على قتال ابن رشيد ، وانتدبهما لضرب عشيرة موالية له . وفي غيابهما كتب إلى ابن رشيد يفاوضه في الصلح . وعادا ، فلم يأذن بدخولهما الكويت إلاّ بعد خيبته في المفاوضة ! ولو تم الصلح لكانا كبشي الفداء ...

٢ — صالح مبارك ، بعد ذلك عدوّه ابن رشيد ، وكتب إلى عبد العزيز أن يعيد غنائم سمّاها « منهوبات ابن رشيد » ويهدده إذا لم يفعل . ثم علم بمقتل

ابن رشيد ، فأراد تلافي ما فرط منه ، فتجاهل الخبر ، وكتب إلى عبد العزيز ، « أنا أبوك وعونك . لم أصالح ابن رشيد إلا لأقهر الترك . وإني مستعدّ لإمدادك بالمال والرجال »

ولكن عبد العزيز قال للنجاب حامل الكتاب : أخبرني الوالد الشيخ مبارك أنه أوصاك بكتمان مقتل ابن رشيد ؟ فأجاب النجاب : ما نام الشيخ والله من شدّة الفرح عندما بلغه الخبر .. فضحك عبد العزيز ومن حوله.

٣ ــ ألحّ مبارك على عبد العزيز مستغيثاً خائفاً من السعدون ، فجاءه عبد العزيز منجداً . فأراد مبارك توجيهه كما يوجه أحد قواده . ولعبد العزيز طريقته في الحرب ، فخالفه ، فغضب مبارك ، وقال : أظنك تبغي أهلك ؟ فأجابه عبد العزيز : نعم . ورحل عنه ..

٤ ــ بلغ الحكومة العثمانية في جمادى الآخرة ١٣٢٩ (١٩١١ م) أن عبد العزيز عازم على أن يغزو عربان الشمال . فاستفهم يوسف باشا وكيل والي بغداد ، من مبارك الصباح عن حقيقة ما أشيع ، فأجابه : إن عبد العزيز ابن سعود كان عازماً على غزو « ولدي » سعدون ، فمنعته عنه وعن جميع عربان الحكومة المحلية . وقد « انصاع » لما أردت ...

٥ ــ وآخر أخبارهما ، أن مباركاً استنجد بعبد العزيز على « العُجمان » وكانوا بعد فرارهم يوم « جراب » شنوا غارات على بعض البوادي ، ومنها بادية « عريبدار » التابعة للكويت ، فقام شيخ الكويت يطلب من عبد العزيز تأديبهم واسترجاع ما نهبوه . وألحّ على عادته ، وعبد العزيز في شواغل أخرى ، والوقت صيف لا ماء فيه لورود الجيش ولا عشب ، ولكنه اضطر .. فأقبل في عدد قليل ، معتمداً على قوة الحضر من أهل الأحساء وعلى ما سوف يصل إليه من إمداد تعهّد به مبارك . وخيّم العُجمان في موضع قريب من الأحساء يُدعى « كَنْزان » وهو جبل حوله موارد من المياه ، وبقربه سلاسل أكمات اسمها « البُرَق » وهاجمهم عبد العزيز ليلاً فخدعوه بأن

تركوا خيامهم وأوقدوا النار في بعضها إيهاماً بأنها مسكونة ، وكمنوا في المرتفعات وبين النخيل . وما كاد جنده يدخل الخيام ، حتى أخذهم الرصاص من كل جانب . وأصيب عبد العزيز بجرح في جنبه ، وقُتل شقيقه « سعد ابن عبد الرحمن » وكان ذلك سنة ١٣٣٣ (١٩١٥ م) وعاد بمن معه من الفلول منهزماً، إلى الهفوف. وحاصره العجمان وصبر إلى نهاية الصيف . وجاءه مدد من الرياض ، بقيادة أخيه محمد ، ومن الكويت نحو ٢٠٠ كويتي يقودهم « سالم الصباح » الابن الثاني لمبارك . وكرّ عبد العزيز ، فتشتت العجمان متجهين إلى الشمال . وأرسل عبد العزيز من يلاحقهم فلجأ بعضهم إلى « سالم الصباح » وهو في حملة عبد العزيز ، فحماهم من عبد العزيز وألجأهم بأمر من مبارك ودخلوا الكويت يبيعون في سوقها ، ما نهبوه من أهل الأحساء .

واشتد هذا على عبد العزيز ، فشدّ ليقاتل الفريقين معاً : العجمان وآل صباح . ولكنه ما عتّم أن جاءه من أخبره بوفاة مبارك ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ...

، ، ،

كان مبارك وعبد العزيز ، حَظِيظين : مات مبارك قبل أن يكتوي بحرب عبد العزيز ، وخلت صُفحة عبد العزيز من قول مَن يحصي عليه الزلاّت : قاتَلَ من آواه في صباه ، وكان يدعوه أباه ..

الكويت بعد مبارك

خلف مباركاً في حكم الكويت سنة ١٣٣٤ (أواخر ١٩١٥ م) ابنه جابر. وكانت له صلة ودّ بعبد العزيز، أيام كان هذا في الكويت . وزاره عبد العزيز في رحلته إلى البصرة ، سنة ١٩١٥ عقيب وفاة مبارك فعزّاه .

وتوفي جـــابر سنة ١٣٣٥ (أوائل ١٩١٧ م) وليس بمـــا بين

نجد والكويت ما يعكر الصفو .

وتولى بعده أخوه (سالم بن مبارك) وبينه وبين عبد العزيز ما كان من خلاف بشأن العجمان . واشتدت الجفوة حين عمد سالم إلى التجار النجديين فطردهم من الكويت بعد عام من ولايته الإمارة .

وتوفي سالم في جمادى الآخرة ١٣٣٩ (١٩٢١ م) فخلفه ابن أخيه ، أحمد بن جابر بن مبارك .

ومن المصادفات أن أحمد هذا ، كان يوم وفاة عمه ، في « حَفَر العَتْك » ضيفاً على عبد العزيز ، يفاوضه بالنيابة عن سالم ، في وضع أسس للاتفاق بينهما . فلما وصل نعي سالم وانتقال الإمارة إلى أحمد ، أخذ عبد العزيز ما كان أمامه من أوراق المفاوضات ، فمزقها وقال لأحمد : لا حاجة إلى ورق بيننا الآن ، أنت مفوض عني فيما تراه .. وفارقه أحمد مغتبطاً .

وفي أيام أحمد ظهر النفط في بلاده ، وانتعشت حركتها العمرانية ، ووُضعت في العُقير اتفاقية الحدود بين نجد والكويت سنة ١٣٤١ (١٩٢٢ م) وتزاور هو وعبد العزيز ، وعاد الصفو بين البلدين إلى ما يجدر بالأخوين .

وفي ٤ ربيع الثاني ١٣٦١ (١٩٤٢/٤/٢٠ م) عقدت في جدة ، بين المملكة العربية السعودية ومشيخة الكويت ، الاتفاقيات الآتية : (١) اتفاقية صداقة وحسن جوار (٢) اتفاقية تجارية (٣) اتفاقية تسليم المجرمين .

وآخر ما عقد بين الحكومتين ، الاتفاق على تحديد « المنطقة المحايدة » سنة ١٣٦٧ (١٩٤٨ م) وتبلغ مساحة هذه المنطقة حوالي ألفي ميل مربع . وطول ساحلها على الخليج حوالى ٥٥ ميلاً ، تقتسم الحكومتان السعودية والكويتية حصيلة ما يُستخرج من نفطها ، مناصفة .

آل عائض

آل عائض : أسرة تنتسب إلى موسس إمارتها « عائض بن مرْعي » من أهل رَيْدة ، من قبيلة عسير . كان مركز إمارتهم في بلدة « أبها »

وكان عائض في مبدأ أمره من أصحاب الإبل ، وورث الإمارة عن عمّ له يدعى علي بن مجثّل ، سنة ١٢٤٩ (١٨٣٨ م)

وتوفي عائض سنة ١٢٧٣ (١٨٥٧ م) فخلفه ابنه محمد . وانتهى أمر محمد بمقتله على أيدي الترك العثمانيين سنة ١٢٨٩ (١٨٧٢ م) وقام بعده حسن بن عائض . وكان مستبداً ظالماً نفرت منه القبائل ، وحصلت بينه وبين رعاياه خلافات أدت إلى لجوئهم للملك عبد العزيز ، شاكين من ظلمه وعسفه .

وكانت لأسلاف عبد العزيز سيادة في هذه المقاطعة . وأهلها شوافع . ومنهم في الشمال الشرقي حنابلة سلفيون . فأراد عبد العزيز مصالحته مع رعاياه ، فرفض الوساطة وأساء الردّ؛ فجهّز عليه عبد العزيز قوة ظفرت به وأرسلته إلى الرياض . وقوبل بالعفو والأمان . وأعاده عبد العزيز إلى بلاده ، بعد أن ولى عليها والياً من قبله .

ولكن ابن عائض ما عتم أن وثب على الوالي السعودي واعتقله . فجهز الملك عبد العزيز جيشاً بقيادة نجله « الأمير فيصل » سنة ١٣٤٠ (١٩٢٢م) وقاتله ابن عائض ، فظفر فيصل بعد معارك حامية . ودخل أبها في صفر ١٣٤١ فأقام فيها حامية وعاد إلى الرياض بعد نحو ستة أشهر . وانتهز حسن فرصة عودة الأمير فيصل ، وخلوّ الجوّ له ، فجمع قوة وأعاد الكرة على الحامية السعودية وأميرها عبد العزيز بن إبراهيم ، فقضى

ابن إبراهيم على حملة الأمير حسن ، وقبض عليه وأرسله ثانية إلى الرياض حيث عاش مكرّماً .. بقية حياته .

نهاية آل رشيد

شغل الملك عبد العزيز عن آل رشيد ، بأحداث كان منها نشوب الحرب العامة (الأولى) والتزامه الحياد . ولآل رشيد صلة بالترك ، والترك مع أحد طرفي القتال ، فترك الرشيديين وتُرْكهم . وكانت وقعة جراب سنة ١٣٣٣ (١٩١٥ م) المتقدم خبرها ، بداية « هدنة » غير مقصودة استمرت خمس سنوات . وآلت إمارة حائل إلى محمد بن طلال (أشجع رجال البيت الرشيدي) فغزا بعض القبائل الموالية لابن سعود ، ووجّه إليه عبد العزيز قوة بقيادة فيصل الدويش . ثم أقبل عبد العزيز فباشر القتال بنفسه إلى أن جاءه ابن طلال ومعه كبار آل رشيد ، مستسلمين .. وأرسلهم عبد العزيز إلى الرياض معززين مكرمين ، في آخر صفر ١٣٤٠ (١٩٢١ م) وكان ذلك آخر العهد بأقوى إمارة في شبه الجزيرة شغلت ابن سعود ثلاثين عاماً : طريداً فمغامراً ، فنداً ، ففاتحاً .

كيف حارب البداوة

للبداوة خطرها في شبه الجزيرة . فهي تشغل الحيز الأوسع ، فيما بين الخليج العربي والبحر الأحمر ، وما بين خليج عدن وما يقابله في الشمال .

والبدو ليسوا على مستوى واحد من الخُلق والطبع . ففيهم الذين تكثر مجاورتهم للحواضر فيكسبون منها بعض المرونة ، ومنهم الجُفاة القُساة وقد ذاق عبد العزيز من هؤلاء الأمرّين ، في صباه وفي حروبه ، وبعد استقراره ..

وكان رأيه في « البدو » على العموم ، مزيجاً ، فيه الارتياع من تغلّب « الضراوة » على فريق منهم ، وفيه الإشفاق عليهم من حياة كلها مكاره ، وفيه الشكّ في إمكان استصلاحهم لخيرهم وخير غيرهم . فعمد إلى ثلاث وسائل : الأولى : السيف : شنّها حرباً عواناً على البادية . وسيرته مليئة بغاراته على البدو لكسر شوكتهم وإخضاع عصاتهم .

والثانية : الإكثار من « المطاوعة » في القبائل . وأهم ما يقوم به المطوع : الإرشاد إلى « الطاعات » وهو كالخطيب في القرية ، يصلي بأهلها ، ويعلّم أبناءها ويفتي كبارها ، ويعقد لها في الزواج ، ويقسم مواريثها ويتوسط في حلّ مشكلاتها .

والثالثة : وهي من مفاخر عبد العزيز البارزة : « الهِجَر » فحيثما وُجدَ الماء في قلب الجزيرة ، كان على أقرب قبيلة بدوية منه ، أن تهجر بيوت الشعر ، وأن تبني إلى جوار الماء ، وتقتني الماشية ، وتزرع وتحصد ،

وتستقرّ . ولها من بيت المال المساعدة على البناء وعلى الزراعة . ومصيرَها أن « تتحضّر »

، ، ،

بهذه الوسائل حارب عبد العزيز البداوه : بالقوّة تنشر الأمن وتزجر المتمرد ، وبالمطاوعة يعلمونهم أصول دينهم ويصقلون طباعهم ويوجهونهم إلى الخير . وبالهِجَر ، يستعيضون عن انتجاع الكلأ والصراع في سبيله وعن السلب والنهب .

الهجـر

أُنشئت الهجرة الأولى على آبار الأرطاوية الواقعة على الطريق بين الزلفي والكويت عام ١٣٣٠ (١٩١٢ م) وسكنها سعد بن مُثَيب (من حرب) ثم أعطيت لفيصل الدويش وجماعته من (مطير) وأصبحت خلال بضع سنوات مدينة عامرة ، فيها من السكان ما يزيد على عشرين ألفاً .

وتلا إنشاءَ هجرة الأرطاوية قيامُ حركة بين البدو ، لترك حياتهم البدوية والسكنى في قرى جديدة كانوا ينشئونها بمعونة بيت مال المسلمين . تُحفر البئر . ويُبنى المسجد الذي هو مجتمع القرية ومدرستها وتُبنى البيوت بسرعة .

وكانت هجرة البدو ، من بداوتهم إلى « شبه الحضارة » هجرة دينية محضة . فباعوا الإبل وأقبلوا على دراسة الدين . وغُصت بهم المساجد ، فأصدر العلماء فتوى شرعية بضرورة العمل للكسب من التجارة والزراعة ، فعملوا . ودعوا أنفسهم « الإخوان » لرفع الفروق من بينهم ، وصيرورتهم إخواناً في الله .

وبلغ عدد الهِجَر في أيام عبد العزيز ١٥٣ هجرة . وهي من حيث الحرب والسياسة — كما يقول فؤاد حمزة — معسكرات في أنحاء البادية . والإخوان جند هذه المعسكرات ، يسيرون بأمر القائد (ابن سعود) في أي وقت شاء .

عبد العزيز والفروسية

من تتبع أخبار الجزيرة في الأعوام الماضية – بعد استرداد الرياض – وما قبلها بخمسين سنة ، عرف كثيراً عن « الفروسية » التي اكتظّت كتب الأدب العربي بأخبار نظائرها في العصر الجاهلي ، وأيام الفتوح على الخصوص .

وقد عاشت الفروسية في شبه جزيرة العرب ، على الرغم من ظهور المسدس والبندقية والمدفع . وظل السيف ، وأحياناً مع الرمح ، عُدّة الفارس العربي في كثير من الحروب التي خاضها عبد العزيز .

وما غارات القبائل بعضها على بعض ، غازيةً ، أو طالبة ثأر ، أو باغية حِمَى ، أو ناصرة مستنصر ، إلا مظهر من مظاهر الفروسية القديمة : نِزالٌ ونضال ، وهجوم ووجوم ، قائد الجماعة في مقدمتها أو في قلبها ، تلتفّ حوله وتعتصم به في الروع .

ويمكن القول : إن عبد العزيز قضى على آخر ما عرفته الجزيرة من أساليب الفروسية الأولى ، بشجاعته ومنعه الغزو ، وجعله الفروسية جندية .

تفرّد عبد العزيز بين أقرانه بمزايا أهمها : المفاجآت تصبيحاً أو هَجاداً ، أو من حيث لا ينتظر عدوّه الهجوم. وكان يعتمد على « الاستخبارات » قبل الملاقاة ، فقلما أغار على أرض يجهلها أو ليس له عين فيها يبعث إليه بأخبارها . ويُكثر من الاحتياط إذا همّ بالزحف ، ويفترض في خصمه من القوة أضعاف ما هو فيه .

وقد يفاجىء خصمه بقليل من رجاله ، ثم يعيد الكرة مناوشاً ومستدرجاً

ودافعاً إلى أن يضعفه أو يختبر مكامن الضعف فيه، فيكرّ عليه الكرة الساحقة .

وكان بطول قامته هدفاً بارزاً للرماة . وهذا سرّ ما في جسده من ثقوب وخدوش هي إصابات من رصاص أو طعنات من حراب .

، ، ،

ويتحدّث الملك عبد العزيز في المناسبات عن وقائعه . ولكنه قلما يذكر منها إلا مواقف الخطر . ولا يأنف من أن يقول انهزمنا أو هربنا أو خفنا ... فالحرب سجال كما يعرفها ، وخدعة كما يصفها ، والأمور بخواتيمها .

قال يوماً في أحد مجالسه الخاصة : لست أشجع الناس . ولكن إذا كانت المعركة ذاتَ بال ، وسيعقبها أمر فاصل ، وعزيزة المسلمين في خطر ، فإني آتي من الأعمال بما لا يأتيه غيري في المعركة .



ــ عبد العزيز في عَرْضة مع بعض رجاله ــ

عبد العزيز والانكليز

أصبح عبد العزيز بعد استيلائه على الأحساء والقطيف ، من جيران الإنكليز الأقربين .

برز من قلب الجزيرة . وامتد سلطانه إلى الشاطىء الغربي من الخليج . والخليج طريقهم إلى الهند ، ولهم فيه « معتمدون » و « أحلاف » وفيه ميناء « أبي شهر » وغيره .

وجاور الكويت من برها الجنوبي . وغربها مفتوح أمامه . وصاحب الكويت « حليف » لهم يومذاك .

بل جاور الكويت وقطر والبحرين معاً . وما كان بعيداً عن مسقط وعُمان قبل أن يوقّع الاتفاق بين الحكومتين البريطانية والعثمانية سنة ١٣٣١ هـ (١٩١٣ م) وقد نزلت فيه الحكومة العثمانية عن حقوقها في موانيء تلك البلاد مما تملك وما لا تملك ! وباتت « الخفارة » في موانيء الخليج من حق الإنكليز وحدهم . فلا بدّ لهؤلاء إذاً من معالجة جارهم الجديد .

وهناك عامل آخر لا يمكن إغفاله . فعبد العزيز جار للعراق أيضاً ، والعراق — يومئذ — من بلاد الدولة العثمانية . وعبد العزيز عدوّ لابن رشيد . وابن رشيد حليف للدولة العثمانية . وعبد العزيز ليس بأول سعودي عادته الدولة العثمانية وقاومت توسعه ، فالعداء متوارث بينهما . وقد تضاءل النفوذ البريطاني في أروقة وزارة الخارجية العثمانية ، وبدأ النفوذ الألماني ينبسط . فسياسة الإنكليز على وشك الاصطدام بسياسة آل عثمان . وأهداف

« الجار » الجديد المنبثقة من وضعه السياسي والجغرافي والتاريخي ، تلتقي بأهداف وزارة الخارجية البريطانية ، فعليها أن تمدّ يدها إليه لتتخذه «حايفاً » أو صديقاً .

أرسلوا وكيلهم السياسي في البحرين ، فقابل عبد العزيز في العُقير (أواخر ١٣٣١ هـ ، ١٩١٣ م) وكان في جملة الحديث خطر امتداد النفوذ الألماني من العراق إلى الخليج ، والرغبة في وضع خطة للتعاون معه على « أساس » متين .

وبعد اشتعال الحرب العامة ١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م) كتب مبارك إلى عبد العزيز يدعوه لمقابلة حاكم الهند اللورد هاردنج **Lord Harding** للمفاوضة في البصرة ، فلم يرتح عبد العزيز إلى وساطة مبارك .

الكابتن شكسبير :

وكان وكيل البحرين السياسي قد عرّف عبد العزيز بالكابتين « شكسبير » وهو يقوم بعمل القنصل البريطاني في الكويت . فجاء شكسبير كما قدمنا يزور عبد العزيز ، ويحاول جرّه إلى حرب الدولة العثمانية . وهو حريص على موقف الحياد .

ورأى شكسبير ، الملكَ عبد العزيز ، يتهيأ لمعركة مع ابن رشيد ، فعرض أن يكون في جملة فرسان الحملة . وأجابه الملك برقته المعروفة : خير لضيوفنا أن يريحوا أنفسهم من متاعبنا .

وألحف في الرجاء ، فعرّض له عبد العزيز بمخاطر الحروب البدوية ، فازداد إصراراً على خوضها .

ويقول لويل توماس ، نقلاً عن فلبي : إن مهمة شكسبير كانت استمالة عبد العزيز وابن رشيد معاً ، إلى الوقوف في وجه الترك .

ويظهر أن شكسبير لما عرف أن الترك، أحلافَ الألمان، يرسلون السلاح إلى ابن رشيد،اعتبر معركة عبد العزيز مقاومةً لتسرّب النفوذ التركي بل الألماني إلى بلاد العرب ، وأراد بحضوره العراك أن يجمع بين إرضاء عبد العزيز ، ومقاومة عميل الترك ، ويفوز بفخار الموقفين . ولكنه لسوء الحظ لم يتمتع بحلمه الجميل ، فقد كانت قبعته هدفاً للرماة الشمـّريين في بدء الجولة ، على ماء « جراب » وانصب عليه الرصاص ، ولم يكتفوا بهذا فأجهزوا عليه بسيوفهم .

معاهدة دارين

وفي جزيرة دارين ، المواجهة للقطيف ، عـُقدت بين عبد العزيز وپرسي كـُوكـْس « معاهدة دارين » ويقال لها أيضاً « معاهدة القـَطـِيف » سنة ١٣٣٤ (١٩١٥ م) وهي على غرار المعاهدات التي كان الإنكليز يعقدونها مع إمارات الخليج .

في البصرة :

ودعاه پرسي كوكس إلى زيارة البصرة ، والنزول بها ضيفاً عليه وعلى القائد العام ، فكانت هذه أول مرة سافر بها عبد العزيز إلى بلد خارج شبه الجزيرة . واهتبلها فرصة للمرور بالكويت وتعزية شيخها الجديد ، جابر ابن مبارك ، بوفاة أبيه .

وفي ٢٣ محرم ١٣٣٥ (١٩١٦/١١/٢٠ م) شارك في مؤتمر عقده البريطانيون في الكويت . قال فلبي : وقـُدمت في المؤتمر أوسمة بريطانية لعبد العزيز ولجابر الصباح .

وفي المـُحـَمـّرة :

وعقد في رمضان ١٣٤٠ (١٩٢٢ م) مؤتمر في بلدة المحمرة ، حضره مندوبون عن حكومة الملك عبد العزيز ، ومندوبون عن حكومة العراق

ومندوبون بريطانيون ، للنظر في قضايا الحدود والعشائر بين نجد والعراق . وأسفر المؤتمر عن اتفاق سمي « معاهدة المحمرة » لم يوافق عليه عبد العزيز ، حين قدم إليه ، ولكنه أقره بعد بضعة أشهر ، عند توقيعه على « بروتوكولي العُقير » كما سيأتي .

وفي العُقَير :

وانعقد في العُقير ، مؤتمر ، في ربيع الثاني ١٣٤١ (أواخر ١٢/١١/ ١٩٢٢ م) بين الملك عبد العزيز ، ومعه من المستشارين عبد اللطيف باشا المنديل وكيله في البصرة ، والدكتور عبد الله بن سعيد الدملوجي وآخرون . وحضر بعض اجتماعاته الأستاذ أمين الريحاني وقام أحياناً بعمل الترجمان . ومن الجانب الثاني وفد بريطاني برئاسة پرسي كوكس ، ووفد عراقي برئاسة صبيح نشأت .

وكان عبد العزيز في الفترة التي انقضت بين عقد معاهدة المحمّرة وهذا المؤتمر ، قد توسع في حدوده الشمالية والغربية الموالية لبلاد شمّر ؛ وضم واحتي تيماء وخيبر ، والجوف ووادي السرحان ، إلى بلاده . ونشأت عن اجتماعات المؤتمر أمور ، أهمها :

أ ـ الاعتراف بعبد العزيز سلطاناً على نجد وملحقاتها

ب ـ قبول مبدأ تخطيط خطّ للحدود النجدية ـ العراقية ، على الأرض.

ج ـ تثبيت القبائل التابعة لكل فريق .

د ـ تعيين خط الحدود بين نجد والعراق ، ونجد والكويت .

هـ ـ تأسيس منطقتين محايدتين بين نجد والعراق ، ونجد والكويت ، ومنع إنشاء الأبنية والمخافر على أطراف الحدود .

و ـ تثبيت تابعية قريات الملح ووادي السرحان لنجد .

وفي ختام المؤتمر رأى عبد العزيز أنّ ما تقرّر فيه قد عوض ما كان

يراه من نقص في « معاهدة المحمرة » وكانت لا تزال غير موقّع عليها منه ، فوقعها . وجُعلت مقررات العقير خاتمة لها ، فصيغت في « ملحقين » متممين للمعاهدة ، سُميا « بروتوكولي العُقير »

اتفاقيتا بحرة وحدة

وبينما الملك عبد العزيز في معسكره ، بالرغامة ، على أبواب جدة (سنة ١٣٤٤ هـ ١٩٢٥ م) يحاصرها ويرتقب الفرصة لدخولها ، جاءه الجنرال جلبرت كلايتون (مندوباً من الحكومة البريطانية ، ومخوّلاً أن ينوب عن الحكومة العراقية في الاتفاق والتوقيع) ومعه السيد توفيق السويدي باسم حكومة العراق .

وعقد المندوبان مع عبد العزيز اتفاقيتين : إحداهما عرفت باتفاقية « بَحْرة » صُفيت فيها مشكلات القبائل في الحدود النجدية العراقية؛ والثانية سميت اتفاقية « حَدّة » زيد فيها تعيين الحدود بين نجد وشرقي الأردن .

معاهدة جدة تمحو معاهدة دارين

وانقضت اثنتا عشرة سنة ، كانت فيها الدولة السعودية تضيق ذرعاً بضغط معاهدة دارين (القطيف) الموقّعة سنة ١٩١٥ م ، على الرغم من تجاهل عبد العزيز لها في كثير من المواقف .

ودارت مفاوضات سنة ١٩٢٧ م ، في « وادي العقيق » بقرب المدينة المنورة ، لوضع أسس عملية لمعاهدة جديدة . ثم وصلت إلى جدة بعثة برئاسة الجنرال كلايتون ، انتهى البحث معها إلى وضع « معاهدة جُدّة » في ١٨ ذي القعدة ١٣٤٥ (١٩٢٧/٥/٢٠ م) وتبودلت قرارات إبرامها في يوم توقيعها . وأصدر الملك عبد العزيز مرسوماً بتصديقها في ٢١ ربيع الأول ١٣٤٦ الموافق ١٧ سبتمبر ١٩٢٧

وبهذه المعاهدة أُقيمت العلاقات بين الحكومتين السعودية والبريطانية ،

على أسس سليمة ، من الصداقة وحسن التفاهم ومعاملة الند للند .

وقد احتفظت فيها المملكة العربية السعودية بحق مطالبتها بالعقبة ومعان ، باعتبارهما تابعتين للحجاز ، وأصبحت اتفاقية دارين أو « القطيف » لغواً .

صداقته

كان الملك عبد العزيز ، يُحب أن « يرتكز » على « الصداقة » في كثير من علاقاته مع الآخرين ، وخصوصاً البريطانيين .

وكان ، مع علمه بأن « الصداقة » كلمة جوفاء ، لا معنى لها في عرف أهل المادة ، يحرص على أن يطبعها بطابع مادي ، وأن يبني عليها غير القليل من « الثقة » في التعامل وحل المشكلات .

ولما تحدث الناس أخيراً عن خلافه مع الإنكليز ، من أجل البريمي — وسيأتي حديثها — لم يدرك أحد ما كان لذلك الخلاف من ألم الوقع وقسوة المرارة في نفس عبد العزيز .. ومن مأمنه يُؤتى الحذر !

من كلامه

كل أمة تريد أن تنهض ، لا بد لكل فرد فيها من أن يقوم بواجبات ثلاثة : أولها واجباته نحو الله والدين . وثانيها واجباته في حفظ أمجاد أجداده وبلاده . وثالثها واجباته نحو شرفه الشخصي .

يجب أن تحرصوا على العمل . والعمل لا يكون إلا بالتساند والتعاضد .

أنا وأسرتي وشعبي ، جند من جنود الله ، نسعى لخير المسلمين .

أنا قويّ بالله تعالى ثم بشعبي . وشعبي كلهم : كتابُ الله في رقابهم ، وسيوفهم بأيديهم ، يناضلون ويكافحون في سبيل الله . ولست أدّعي أنهم أقوياء بعَددهم أو عُددهم ، ولكنهم أقوياء إن شاء الله ، بإيمانهم .

عبد العزيز والحسين

ليس في تاريخ عبد العزيز حادث واحد يدل على أنه ابتدأ إنساناً بشرّ أو عداء .

وخصومته للشريف الملك حسين بن علي ، قبل أن يثور على الترك وبعد الثورة والمُلك ، لم يكن عبد العزيز من جُناتها .

عُيّن الشريف حسين أميراً بمكة ، من قبل الدولة العثمانية . وأراد إحكام صلته ببعض القبائل في بادية الحجاز ، فحدث ما سبق أن ذكرناه من وجود الأمير سعد بن عبد الرحمن في منازل عتيبة ، وأخذه معه ، وقلق عبد العزيز من أجله . ومع أن الأمر انتهى بعودة « سعد » ومعه الهدايا من الشريف ، فإن ذلك أبقى في نفس الملك عبد العزيز صورة للشريف تدعو إلى الحذر . وظل عبد العزيز والحسين يتبادلان الرسائل والهدايا . وانتهت الحرب العامة الأولى سنة ١٣٣٧ (١٩١٨ م) واستسلمت الحامية العثمانية في المدينة المنورة للأمير عبد الله (ابن الملك حسين) فكتب عبد الله إلى عبد العزيز في ١٣ ربيع الثاني ١٣٣٧ (أوائل ١٩١٩ م) يخبره بذلك ويقول : ولا يخفى على مدارككم أنه لم يبق ، والحالة هذه ، شاغل ما يشغل حكومة صاحب الجلالة أدامه الله وأيده ، عن الالتفات لإصلاح داخليتها وشؤونها ، والتنكيل بمن يسعى للإفساد والتخريب من العشائر التابعة لها .

وأجابه عبد العزيز ، مهنئاً ومكرراً اقتراحاً سابقاً منه ، في الفصل بأمر العشائر المشتركة بينهما ، وأن كل ما يرمي إليه هو استقرار السلام .

وجاءه من عبد الله (في ٣ جمادى الآخرة ١٣٣٧) أنه عائد إلى الوطن بعد أسبوع ، ويقترح عليه إرسال أحد رجاله أو أنجاله لحسم الخلاف ، ثم يقول : وكيف يمكن أن يحدث خلاف بين رجلين كبيرين بخصوص تَرَبَة والخُرْمَة والبادية ؟

تَرَبَة والخُرْمة

تربة والحرمة قريتان ، أو واحتان ، بين الحجاز ونجد . كان يسكن الأولى نحو ثلاثة آلاف نفس ، أكثرهم من عرب البقوم ، وفيها عدد من الأشراف يملكون كثيراً من أرضها ، وهي باب الطائف من جهة نجد ، في جنوبي حَضَن . وكان يسكن الثانية نحو خمسة آلاف ، بعضهم من عرب سُبَيْع وبقيتهم من العبيد المعتوقين . وبين سكانها نحو ٣٠٠ من الأشراف.وأميرها الشريف خالد بن منصور بن لؤيّ (المعروف بخالد ابن لؤي)

، ، ،

كان الحسين يرى القريتين من قرى « الحجاز » وابن سعود يراهما من نجد . ولكل منهما حجته .

وكان عبد العزيز كلما طلب البحث في تعيين الحدود ، يعني هذه المنطقة الصغيرة . كما كان الحسين وابنه عبد الله كلما ذكرا « تأديب » العصاة في الشرق ، أرادا بادية « تربة » و « الخرمة » والممتنعين من أهلها عن الخضوع لحكومة الحجاز العثمانية . ولم يكن خالد بن لؤيّ — أمير الخرمة — بالمرضيّ عنه من الشريف حسين ، لحنبليته . وقد انتهز الحسين فرصة ظهوره بمظهر القوة في خلال الحرب العامة ، فحبس خالداً أوائل سنة ١٣٣٦ هـ (١٩١٧ م) بعد مكاتبات أدت إلى العنف بين ابنه عبد الله وخالد .

ولكنه عاد فأطلقه ، وأرسله ليساعد ابنه « عبد الله » في حصاره للحامية التركية بالمدينة . وأُهين خالد ، فعرّض للأمير بالانسلاخ عنه ، فحنق

عبد الله ولطمه على وجهه ، فانصرف خالد إلى الرياض يشكو ظلامته إلى عبد العزيز ويطلب معونته . وعاد . فأرسل الشريف عبد الله نحو عشر حملات على الخُرمة ، في أواخر السنة نفسها ١٣٣٦ (١٩١٨ م)

وجاء من أخبر الملك عبد العزيز بأن الشريف عبد الله لم يتوجه إلى وطنه كما ذكر له في كتابه (٣ جمادى الآخرة ١٣٣٧) وإنما جعل وجهته « تربة والخرمة » لضربهما .

فكتب إلى عبد الله في ١٠ شعبان ١٣٣٧ (١٩١٨ م) كتاباً مطولاً قال فيه : قد تحقق عندي خلاف ما أخبرتني به، من أنك عائد إلى مكة. والظاهر أنك مهاجم « تربة والخرمة » الخ .

وأجابه عبد الله بكتاب مطول أيضاً (في ٢٣ شعبان) يقول فيه : « وصلني خط الجناب الموقر ولم أجد فيه ما استغربته واستعذبته — ثم يقول — كل من شق عصا الطاعة من رعايا صاحب الشوكة ، وعثا في الأرض فساداً يستحق التأديب شرعاً .

وزحف عبد الله على الأثر بأكبر جيش تمكنت حكومة الشريف حسين من جمعه تحت لوائها . فاحتل « تربة » يوم ٢٤ شعبان ، وفتك بأهلها .

وكان الملك عبد العزيز قد احتاط للأمر ، بأن أوعز إلى سلطان بن بجاد ، كبير هجرة « الغُطْغُط » أن يذهب في سَرِية من « الإخوان » إلى جهة الخرمة . وكتب إلى خالد بن لؤي بمسيرهم لمعونته على الدفاع . فلما احتل عبد الله « تربة » اتفقوا على مباغتة جيشه في تلك الليلة .

، ، ،

وقعة تُرَبة

تقدم خالد في أهل « الحرمة » ومن جاءهم من تربة ، متجهاً إلى مخيّم الأمير عبد الله . واتجه ابن بجاد برجاله إلى العسكر النظامي ، حيث المدافع والرشاشات . وذهب الخيالة — من الجماعتين — إلى ما وراء حرس الأمير ، يقطعون عليهم خط الرجعة .

وبينما الأمير عبد الله وجيشه ثملون بخمرة الفوز في تربة ، صباح ذلك اليوم ، وقد ناموا هادئين ، إذا بجلجلة المغيرين في منتصف الليل تثيرهم ، والأسياف تلمع في حلك الظلام ، ومدافع الشريف تطلق على غير هدى . وأسرع الشريف شاكر بن زيد إلى الأمير عبد الله ، فأردفه خلفه على جواده ، وطار به ينشدان النجاة .

مُزّق جيش الأمير عبد الله ، ليلة ٢٥ شعبان ١٣٣٧ (١٩١٩ م) على مقربة من تربة ، وقتل بعضه بعضاً ، واستولى خالد وابن بجاد ومن معهما على مُعَدّات الجيش الهاشمي وذخائره ، وكان أكثرها لم يزل في صناديقه .

، ، ،

وبعد أسبوع وصل الملك عبد العزيز ، ولم يعلم بالمعركة إلاّ بعد يومين أو ثلاثة أيام من وقوعها . فلما رأى جثث القتلى كالتلال ترقرق الدمع في عينيه ، وبكاهم .

استثارة ، وأخْذ ورَدّ

اكتفى عبد العزيز بما كان . وعاد إلى الرياض . وسعى لافتتاح عهد جديد مع الشريف حسين ، أقرب إلى الصفاء . ولكن الحسين بادأ أهل نجد بوضع العراقيل في سبيل دخولهم الحجاز . حتى زمن الحج . وتكرر ذلك سنة بعد أخرى .

ونشر الحسين أحاديث في المقطم (بالقاهرة) في ٢١ جمادى الآخرة

١٣٤٢ (٢٧ يناير ١٩٢٤) وفي بعض الصحف السورية والعراقية ، تعريضاً بسلطان نجد ، وتجريحاً لموقفه من القضية العربية والاتحاد العربي . فتصدى لإجابته الأمير فيصل بن عبد العزيز ، وكان يومئذ في الأحساء ، فكتب إلى جريدة « الأهرام » تحت عنوان « للحقيقة والتاريخ » مظهراً أسفه لتجرؤ « بعض المسؤولين » على الاختلاق ، ثم يقول :

« يصرح ملك الحجاز ، بأنه خاطب سلطان نجد ، في أنه مستعد للتنازل عن عرشه وتسليم زمام الأمر إلى من يستطيع أن يقود العرب إلى طريق النجاة والسلامة . وهذا أمر لا أساس له بالمرة ، بل الواقع يخالفه تمام المخالفة. نعم إن ملك الحجاز قد يصرح أمام بعض الجماهير بمثل هذه التصريحات للتمويه على البسطاء .

إلى أن يقول : « إن سلطان نجد لم يكن في جميع مواقفه ، إلاّ مدافعاً عن نفسه وبلاده وشرفه . وكان ، ولا يزال ، راغباً من صميم فؤاده في إنشاء « الوحدة العربية » على أساس يجعل للعرب قوة ومكانة تليق بتاريخهم المجيد » .

الحـــج

مضت خمسة أعوام ، وأهل نجد منقطعون عن تأدية الفريضة . واجتمع أعيانهم عند عبد العزيز ، تحت رئاسة الإمام عبد الرحمن في الرياض .

فقال بعض متكلميهم : لا نريد أن نصبر أكثر مما صبرنا ، على ترك ركن من أركان الإسلام ، مع قدرتنا عليه . نريد أن نحج يا عبد العزيز ، فإن منعنا الشريف ، دخلنا مكة بالقوة ..

وكان مما أجاب به عبد العزيز : « ما ادّخرت جهداً لحلّ ما بيننا وبين الحجاز بالتي هي أحسن ، ولكن الحسين كلما دنوت منه تباعد ... » فكان هذا إيذاناً من الملك عبد العزيز ، بالحركة .

الـــزحف

مشى من « تُـرَبَة » نحو ثلاثة آلاف مقاتل من مختلف القبائل ، يتقدمهم سلطان بن بجاد والشريف خالد ابن لؤْي (بطلا تربة) فاجتازوا جبل « حـَضَن » وْأناخوا بالحَـوِيـّة (مطار الطائف اليوم) في أول صفر ١٣٤٣ (١٩٢٤ م)

وخرج الجيش النظامي الهاشمي ، من الطائف ، لصدّ « الإخوان » فدارت معركة في الحوية ، انتهت بتراجع الهاشميين واعتصامهم ببعض المرتفعات في الطائف ، يطلقون منها نيران مدافعهم ، وهم في شبه حصار .

ووصل بعد يومين الأمير علي ، كبير أبناء الحسين ، في نجدة من مكة . وعسكر في الهـَدَة . وهرعت إليه فلول الجيش النظامي وكبار موظفي الطائف .

وبعد مناوشات ، اقتحم السعوديون مدينة الطائف ، يوم ٧ صفر ، وانطلق الأعراب يقتلون وينهبون ، على عادتهم في ذلك العهد ، وبئست العادة .

وتتابعت النجدات للأمير علي ، من مكة وأطرافها ، جنداً وقبائل ، إلى أن كانت المعركة الفاصلة مساء ٢٧/٢٦ صفر ، فاستولى السعوديون على معسكر الأمير علي ، في الهـَدَة واستباحوه ، وتفرّق الهاشميون ومن معهم .

خلع الحسين وتولية علي

توقف الزحف في الطائف والهدة . وأرسل ابن بجاد وابن لؤيّ إلى الملك عبد العزيز — وهو لا يزال في الرياض — يُخبرانه وينتظران إذنه بمواصلة السير إلى مكة .

وعاد عليّ إلى أبيه بمكة ، يقلبان وجوه الرأي . ثم نزل علي إلى جدة

فأبرق أعيانها إلى الحسين (في ٤ ربيع الأول ١٣٤٣) يطلبون نزوله عن عرش الحجاز، لابنه علي. وبعد مداولات هاتفية أعلن الحسين اعتزاله العرش، في عشية ذلك اليوم.

وفي صباح ٥ ربيع الأول، نُودِي بالأمير علي – في جُدّة – ملكاً على الحجاز.

حوادث:

يوم ٦ ربيع الأول ١٣٤٣ (١٩٢٤ م) – عاد «الملك» علي إلى مكة ووالده فيها.

يوم ١٠ ربيع الأول – وصل الحسين إلى جدة وأبى أن يقابل أحداً.

يوم ١٥ ربيع الأول – أخلى الملك علي مكة، وانتقل ليلة ١٦ إلى ظاهر جدة.

يوم ١٦ ربيع الأول – نزل الحسين وحرمه وخدمه إلى البحر. وودعه بعض موظفيه السابقين. ولم يخرج ابنه علي لوداعه. وأبحر على سفينة له تسمى (الرقمتين) ووجهته العقبة.

وظلّت قصور الحسين وأبنائه في مكة، قرابة يومين، بين خروج علي (في ١٥ ربيع الأول) ودخول السعوديين (في ١٧ منه) عُرضة لعبث البدو والغوغاء. لخلوّها من سلطة تصون الأمن.

دخول مكة

أفتى علماء الرياض بأنه لا يجوز دخول «الحرم» بنية القتال. ودخل خالد ابن لؤيّ وسلطان بن بجاد مكة بجيشهما، وكلهم بملابس الإحرام، ينادون بالأمان. وطافوا حول «البيت» وسعوا. ثم تسلموا زمام الأمور يوم ١٧ ربيع الأول ١٣٤٣ (١٩٢٤ م) وتولى خالد إمارتها.

عبد العزيز في طريقه إلى مكة :

وما كان لعبد العزيز ، المتحفز لانتهاز الفرص قبل فواتها ، أن يستقر في الرياض ، ورجاله وجنده في مكة أمام تقلبات السياسة ومفاجآت الأحداث فأزمع السير .

دخل على أبيه الإمام عبد الرحمن في الرياض ، فقبل يديه ، وتزود بدعائه ورضاه . واحتشد من في الرياض لوداعه ، فكان مما قال لهم :

« إني مسافر إلى مكة ، لا للتسلط عليها ، بل لرفع المظالم عنها .

« إني مسافر إلى مهبط الوحي، لبسط أحكام الشريعة . ولن يكون في مكة بعد الآن سلطان لغير الشرع .

وكان سفره من الرياض ، على الذلول ، يوم ١٣ ربيع الثاني ١٣٤٣ (١١ نوفمبر ١٩٢٤) ومعه جمع كبير قيل لي : إن حاشيته فيه وحدها كانت هاء ثلاثمئة هجان .

إلى جدة :

وأذن عبد العزيز ، بالزحف إلى جدة ، يوم السبت ٧ جمادى الآخرة ١٣٤٣ (٣ يناير ١٩٢٥ م) فابتدأت المناوشات ، ثم الحصار .

وأحاط عليّ أطراف جدة بالمتاريس والأسلاك الشائكة . وتوالت عليه النجدات والمؤن والذخائر ، قادمة من العقبة في البحر ، حيث كان والده الحسين يبذل ما ادّخر من المال لشراء العتاد وتجهيز المحاربين . وابنه الأمير عبد الله يجمع « المتطوعة » والسنابيك تغدو وتروح بين جدة والعقبة .

وظهرت في جيش الملك علي طيارات ومصفحات ، كانت تقوم ببعض الغارات ، على الرغم من قلة البنزين ونفاده في أكثر الأحيان .

وتولى عبد العزيز قيادة جيشه . فرابط أولاً في « الوزيرية » ثم في « الرغامة » على مقربة من جدة ، وأخبارها تصل إليه باستمرار . والمناوشات تشتد وتهدأ . وأبى على من معه من قادة « الإخوان » كالدويش وابن بجاد اقتحام جدة عنوة ، مخافة أن يصاب أحد الأجانب . ومن يدري ما يعقب ذلك ؟

ووجّه السرايا إلى شمالي جدة وجنوبها ، فاحتلت الليث والقُنفُدة . وضبطت رابغاً وينبع النخل والعلا . وفتح الطريق بين مكة وهذه الجهات .

واقترب موسم الحج فخشي عبد العزيز تعطيله على المسلمين ، في الخارج . فأذاع بياناً أعلن فيه استتباب الأمن في الطرق الموصلة إلى مكة من موانيء رابغ والليث والقنفدة . وجاء بضعة آلاف ، حجوا وعادوا إلى بلادهم سالمين . كما حج كثيرون من أهل نجد والتهائم وغيرها .

وتولى حصار المدينة المنورة فيصل الدويش ، فكتب أهلها إلى عبد العزيز يطلبون أحد أنجاله لتسليم المدينة إليه . واستسلمت حاميتهم إلى الأمير محمد ابن عبد العزيز ، فدخلها في ١٩ جمادى الأولى ١٣٤٤ (١٩٢٥ م) بعد أن أعلن الأمان للضباط والجنود والأهالي ، والعفو العام .

فيصل بن عبد العزيز :

وبعد قيام عبد العزيز من الرياض ، ظل ابنه فيصل فيها قرابة عام . ودعاه والده من أسوار جدة ، فلبى الأمر مسرعاً ، على رأس قوة معظمها من أهل العارض .

التسليم :

ولم ينقض على وصوله أكثر من ٢٥ يوماً ، حتى انتهى الأمر .

كلّف الملكُ عليٌّ المعتمدَ البريطاني بجدة ، أن يتوسط لطلب « الصلح »

وكُتبت الشروط وأمضاها عبد العزيز وعليّ ، في أول جمادى الآخرة ١٣٤٤ (١٧ ديسمبر ١٩٢٥ م) وأهمّ ما فيها :

— يغادر الملك علي الحجاز قبل مساء الثلاثاء ٦ جمادى الآخرة ١٣٤٤ وله أن يأخذ معه جميع أمتعته الشخصية ، وفي ذلك سيارته وخيوله .

— يتعهد الملك علي وحكومته بأن لا يخرجوا شيئاً من المهمات الحربية ، أو يتصرفوا بها . وكذلك ما تملكه حكومته من بواخر ولنشات وسنابيك ، وأن يسلموا ذلك في الحال إلى « السلطان » عبد العزيز .

— يضمن « السلطان » عبد العزيز سلامة الموظفين الملكيين والحربيين والأهالي والقبائل عموماً ، ويمنحهم العفو العام . ويتعهد بترحيل الضباط والعساكر الذين يرغبون في العودة إلى أوطانهم . ويوزع على الموجود منهم بجدة خمسة آلاف جنيه .

وسافر الملك علي ، على البارجة « كورن فلاورد » الإنكليزية ، إلى العراق . واستسلمت جدة مرحبة بالعاهل السعودي . فدخلها يوم ٧ جمادى الآخرة . وأُسدل الستار على ما كان يسمى العرش الهاشمي في الحجاز .. وتلك الأيام نداولها بين الناس ..

بلاغ عامّ

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، إلى إخواننا أهل الحجاز سلمهم الله تعالى

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد فإني أحمد الله الذي صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وأُهنئكم وأُهنيء نفسي بما منّ الله به علينا وعليكم ، من هذا الفتح الذي أزال الله به الشر ، وحقن دماء المسلمين ، وحفظ أموالهم . وأرجو من الله أن ينصر دينه ويعلي

كلمته ، وأن يجعلنا وإياكم من أنصار دينه ومتبعي هداه .

إخواني : تفهمون أني بذلت جهدي ، وما تحت يدي ، في تخليص الحجاز ، لراحة أهله وأمن الوافدين إليه . إطاعة لأمر الله . قال جَلّ من قائل : « وإذ جَعَلنا البيتَ مثابةً للناس وأمْناً . واتّخِذوا مِن مقام إبراهيم مصلى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طَهِّرا بيتِيَ للطائفين والعاكفين والرُكّع السجود » وقال تعالى : « ومَن يُرِد فيه بإلحاد بظلم نُذِقْهُ من عذاب أليم »

ولقد كان من فضل الله علينا وعلى الناس . أن ساد السكون والأمن في الحجاز ، من أقصاه إلى أقصاه بعد هذه المدة الطويلة التي ذاق الناس فيها مُرّ الحياة وأتعابها .

ولمّا مَنّ الله بما مَنّ ، من هذا الفتح السِلْمي الذي كنا ننتظره ونتوخاه ، أعلنت العفو العام عن جميع الجرائم السياسية ، في البلاد . وأما الجرائم الأخرى فقد أحلت أمرها للقضاء الشرعي ، لينظر فيها بما تقتضيه المصلحة الشرعية في العفو .

وإني أبشركم — بحول الله وقوته — أن بلد الله الحرام في إقبال وخير ، وأمن وراحة ، وأنني إن شاء الله تعالى ، سأبذل جهدي فيما يؤمن البلاد المقدسة ، ويجلب الراحة و الاطمئنان لها .

لقد مضى يوم القول ، ووصلنا إلى يوم البدء في العمل ، فأوصيكم ونفسي بتقوى الله واتباع مرضاته ، والحثّ على طاعته فإنه من تمسك بالله كفاه ومن عاداه — والعياذ بالله — باء بالخيبة والخسران . إن لكم علينا حقوقاً ، ولنا عليكم حقوقاً . فمن حقوقكم علينا النصح لكم في الباطن والظاهر ، واحترام دمائكم وأعراضكم وأموالكم إلاّ بحق الشريعة ، وحقّنا عليكم المناصحة ، والمسلم مرآة أخيه . فمن رأى منكم منكراً في أمر دينه أو دنياه فليناصحنا فيه . فإن كان في الدين ، فالمرجع إلى كتاب الله وسنّة رسوله

صلى الله عليه وسلم ، وإن كان في أمر الدنيا فالعدل مبذول إن شاء الله للجميع على السواء .

إن البلاد لا يُصلحها غير الأمن والسكون . لذلك أطلب من الجميع أن يُخلْدوا للراحة والطمأنينة . وإني أحذّر الجميع ، من نزغات الشياطين والاسترسال وراء الأهواء التي ينتج عنها إفساد الأمن في هذه الديار . فاني لا أراعي في هذا الباب صغيراً ولا كبيراً . وليحذر كل إنسان أن تكون العبرة فيه لغيره . هذا ما يتعلق بأمر اليوم الحاضر ، وأما مستقبل البلد ، فلا بد لتقريره من مؤتمر يشترك المسلمون جميعاً فيه مع أهل الحجاز ، لينظروا في مستقبل الحجاز ومصالحه . وإني أسأل الله أن يعيننا جميعاً ، ويوفقنا لما فيه الخير والسداد ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تحريراً بجدة في ٨ جمادى الثانية ١٣٤٤

عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل السعود

دستور البلاد

كان عبد العزيز ، كلما سئل عن دستور بلاده أجاب : دستورنا القرآن . وهو يعني تقيده هو ومملكته بأحكام الشرع الإسلامي المستمدة من معاني القرآن ، وما لم يكن فيه فمن حديث رسوله وعمله ، وما لم يكن فيهما فمن قضاء أصحابه وسيرتهم ، وما لم يكن فمن نهج أهل العدل والعقل والسيرة الحسنة من سلف الأمة . وما لم يكن ففي النظم ما قد يقوم مقام التشريع .

التعليمات الأساسية

أما التعريف بالدولة وشكلها وترتيباتها الإدارية وما إلى ذلك . فأول نظام وُضع لها ، كانت مادته من إملاء عبد العزيز بمكة ، في ١٦ صفر ١٣٤٥ (٢٧ آب ١٩٢٦) وتولت صياغته جماعة كانت تعرف بالجمعية العمومية . ونشر في الجريدة الرسمية ، يوم ٢١ صفر (٣١ آب) باسم

« التعليمات الأساسية للمملكة الحجازية » وذلك قبل أن يكون لقب الملك « ملك الحجاز ونجد وملحقاتها » بثلاثة أشهر ، وقبل توحيد أجزاء المملكة وتسميتها بالعربية السعودية ، بنحو ستة أعوام .

وأهم ما في هذه « التعليمات » :

١ — المملكة : مرتبطة بعضها ببعض ، ارتباطاً لا يقبل التجزئة ولا الانفصال بوجه من الوجوه .

٢ — الدولة : دولة ملكية ، شورية ، إسلامية ، مستقلة في داخليتها وخارجيتها .

٣ — عاصمة الدولة : مكة . ولغتها الرسمية اللغة العربية .

٤ — إدارة المملكة: بيد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل وهو مقيد بأحكام الشرع .

٥ — جميع أحكام المملكة ، تكون منطبقة على كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه الصحابة والسلف الصالح .

٦ — يُعيّن من قِبَل الملك ، نائب عام .

وهناك بقية لهذه « التعليمات » خُصت بالتنظيم الإداري ، فَعُدّل بعضها فيما بعد ، وأُهمل بعض ، جرياً مع الأحداث والتجارب .

الملك مرجع السلطات

وُضعت في مكة « التعليمات الأساسية » الشبيهة من بعض الوجوه بما نسميه « الدستور » ووضعت للبلاد نظم قامت مقام « القوانين » وتألفت وزارتان ثم ثالثة . وفي أواخر عهده رابعة وخامسة .

ولكن الحقيقة التي يجب أن تذكر في هذا المجال ، هي أن الملك عبد العزيز . كان كلّ شيء في الدولة . ليس لأحد من إخوته أو أبنائه أو وزرائه أو أمرائه في الأقاليم . فمن دونهم . أن يتصرف في أمر أو يبت في شأن

داخلي أو خارجي ، قبل عرضه عليه برقياً أو هاتفياً أو مواجهة أو كتابة . فإن أقره وإلا ذهب مع الريح .

تشكيلات القَصْر :

وكان بلاط الملك عبد العزيز ، في الرياض ، يشتمل على ما يأتي :

١ — المجلس الخاص : ويسمّى أعضاؤه بالجماعة ، أو « الرَّبْع »
٢ — الشعبة السياسية
٣ — الديوان الملكي
٤ — شعبة الشفرة والبرقيات
٥ — شعبة البادية
٦ — شعبه المحاسبات والأعطيات
٧ — شعبة الوفود والضيافة
٨ — الخاصة الملكية
٩ — شعبةأهل الجهاد (الجندغير النظامي)
١٠ — شعبة الخزينة الخاصة
١١ — شعبة المستودعات
١٢ — شعبة الخيل
١٣ — شعبة الجيش (الإبل)
١٤ — شعبة السيارات
١٥ — شعبة الإذاعة (بعد وصول الراديو إلى بلاد العرب)
١٦ — الشعبة الصحية
١٧ — الحرس الملكي .

النائب العام

وكان أول ما عني به الملك عبد العزيز ، بعد استصفائه الحجاز والدخول في طور الاستقرار ، تنظيم الدولة وتوزيع التبعات (المسؤوليات) فأسند إلى ثاني أنجاله « الأمير فيصل » رئاسة الحكومة بمكة ، وأقامه « نائباً عاماً » عنه في الحجاز سنة ١٣٤٤ (١٩٢٦ م) ثم أضاف إليه رئاسة مجلس الشورى سنة ١٣٤٥ (١٩٢٧ م) فوزارة الخارجية ، في رجب ١٣٤٩ (أواخر ١٩٣٠ م)

وأُضيفت إليه رئاسة « مجلس الوكلاء » فكان يخاطب بلقب النائب العام حين يكون والده االملك عبد العزيز في نجد ؛ ورئيس الوكلاء حين يكون الملك في الحجاز ؛ ووزير الخارجية في كل ما يتعلق بهذه الوزارة في داخلها ، وفي الشؤون الخارجية كافة .

وزارات عبد العزيز

أول عهد المملكة العربية السعودية بالوزارات . بمعناها المعروف ، يرجع إلى ما بعد دخول مكة وتسلم جدة والمدينة سنة ١٣٤٤ (١٩٢٥ م) حين بدأ التفكير في تنظيم الدولة ووضع التشكيلات لها ، على القواعد والأساليب الحديثة . وكانت تسمى بالمملكة الحجازية النجدية وملحقاتها .

أما قبل ذلك ، ما بين استرداد الرياض ودخول جدة . فكان « ديوان الشيوخ » هو وحده المتولي أعمال ما سُمي فيما بعد بالوزارات ، ومرجعه المباشر رأس الدولة الأعلى (الملك) وكان لقب الملك إلى ما بعد فتح الحجاز « عظمة السلطان »

وكلمة « وزير » ليست بغريبة على عامة أهل نجد ، ولا هي فيهم حديثة عهد . وإنما يختلف « مفهومها » أو معناها هناك، عن مفهومها في العالم الخارجي . بل هي — في تعبير أدق — تؤدي عند العامة وكثير من الخاصة معنى كلمة « السكرتير » أو الأمين . فلكل أمير ، حتى اليوم ، في الديار النجدية وزير . وقد يكون لبعض أتباع الأمراء وزراء ، وهم الذين يتولون حساباتهم ومكاتباتهم وقضاء مصالحهم . ويمكن القول إن أكثر من واحد ممن كانوا يعملون في ديوان « عظمة السلطان » أو الشيوخ ، كان ثمة من يلقبهم بالوزارة ولكن بمعناها الذي عرفوه لا بالمعنى الذي عرفه « التشكيل » النظامي .

وزارة الخارجية

نشأت وزارة الخارجية العربية السعودية نشوءاً تدريجياً متناسباً مع تطور العلاقات بالدول الأجنبية . ولكنها لم تتخذ شكلاً واضحاً معيناً إلا بعد أن تم للملك عبد العزيز استخلاص الحجاز وفتح جدة . أما قبل ذلك التاريخ فكان الملك نفسه هو الذي يراسل الحكومات ويتلقى أجوبتها ، ويشرف على الشؤون الخارجية وإلى جانبه بعض أهل الخبرة .

وبعد دخول جدة ، أُنشيء في مكة « مكتب » رسمي لإدارة شؤون الخارجية ، استمر إلى أن صدر في رجب ١٣٤٩ (أواخر ١٩٣٠ م) أمر ملكي بتحويله إلى وزارة ، وبتعيين الأمير فيصل وزيراً لها . وهي أول وزارة أُحدثت بصفة رسمية .

وظلت وزارة الخارجية في عهدة فيصل بن عبد العزيز ، إلى ما بعد وفاة والده . واحتفظ بها أيام ولايته العهد ورئاسته مجلس الوزراء . وما زالت تحت نظره ، حتى بعد توليه عرش أبيه .

وزارة المالية

ولم تكن للمالية في بدء نشوء الدولة « تشكيلات » بالمعنى المعروف واستمرت على ذلك إلى أن بدأ عهد التنظيم . وقد تنقلت في مراحل« التجارب» الآتية :

١ – أنشئت في كل بلدة من بلدان المملكة « إدارة » لجباية الزكوات ، مستقلة عن غيرها ، مرجعها حاكم البلدة الإداري . والملك عبد العزيز مرجع الجميع .

٢ – أمر بوضع « ترتيب » لربط الإدارات المالية الصغيرة المتفرقة في الحجاز بإدارة واحدة مسؤولة أمامه . فأنشئت في ١٧ ربيع الثاني ١٣٤٦ (١٩٢٧م) مؤسسة بمكة سميت « مديرية المالية العامة »

٣ — جُعلت المديرية « وكالة » في جمادى الآخرة ١٣٤٨ (١٩٢٩م) ورُبطت بها مالية « الأحساء » وجيء بخبير هولندي اسمه « فان لي » بلقب « المستشار المالي » فقام بشيء من التنظيم ، ولم تطل إقامته . وبعد التجارب رأى الملك عبد العزيز أن تكون للشؤون المالية « وزارة » واسعة النطاق ، فأنشئت « وزارة المالية » سنة ١٣٥١ (١٩٣٢ م) وسُمي عبد الله السليمان الحَمْدان وزيراً وأخوه حَمَد السليمان وكيلاً .

وربطت بالوزارة إدارات « التموين » و « الحج » و « الزراعة » و « الأشغال العامة » و « السيارات » وما يجري مجراها . فجاءت بالخبراء الماليين والجمركيين والزراعيين والمهندسين ، من سورية ولبنان ومصر والعراق .

ولما اكتشف منجم الذهب ، ثم آبار النفط ، تولى وزير المالية عقد الاتفاق مع الشركات ، وأنشأ في الوزارة إدارة خاصة تقوم بهذه الشؤون سميت « إدارة المعادن »

واستقال عبد الله السليمان (سنة ١٣٧٤ هـ) بعد وفاة الملك عبد العزيز فتعاقب عليها بعض الأمراء وغيرهم ، إلى أن تولاها الأمير مساعد بن عبد الرحمن (أخو الملك عبد العزيز) باسم « وزير المالية والاقتصاد الوطني » ولا يزال .

التمثيل السياسي

لم يَعرف بلد من البلدان التي تألفت منها مملكة عبد العزيز ، التمثيل السياسي الأجنبي قبل عهده . وكل ما كان من قبل ، بضع قنصليات في الحجاز لشؤون الحج ومآرب أُخرى ، يضاف إليها عدد غير محدود من « أشخاص » مبعثرين في طول البلاد وعرضها ، أجانب يحملون ألقاباً مختلفة وهم على كل حال « غير مسؤولين » وليست لأحد منهم صفة « التمثيل »

الرسمية المتعارف عليها دولياً .

وكان أول ما بدأ به عهد الملك عبد العزيز ، بعد دخوله الحجاز ، تنظيم العلاقات الدولية بين بلاده وبلاد الأمم الأخرى ، تنظيماً صحيحاً أُقيم على قواعد « المعاملة بالمِثل » والصداقة المتبادلة ، وفاقاً للنصوص المعمول بها بين تلك الأمم نفسها . وانقضى العهد الذي كان يتدخل فيه « غير المسؤولين » فيما يعنيهم وما لا يعنيهم ، وحل محله قيام سفراء ووزراء مفوضين وقناصل ، مرجع كل منهم وزارة الخارجية ،أو الجهةالمختصة المخولة ذلك فيحكومة عبد العزيز . لا تفريق بين ممثل دولة وممثل أخرى ، إلا بما يقتضيه نظام « الديبلوماسية » المتبع في كل بلاط وكل دولة .

في الخارج

وأقام الملك عبد العزيز ، لدى الحكومات العربية والأجنبية في الخارج إلى سنة ١٣٧٠ (١٩٥١ م) موًسسات سياسية وقنصلية في لندن ، وباريس ، واشنطن ، والقاهرة ، ودمشق ، وبيروت ، وبغداد ، وأنقرة ، وطهران ، كراتشي ، وكابل ، وبومباي ، وعَمّان ، وروما ، وجاكرتا .

الصحة

وكانت العناية بالصحة العامة ، في الجزيرة ، وفي الحجاز على الخصوص ، من أبرز ما عرف عن الملك عبد العزيز .

شَغَلَه القضاء على نزعات الفوضى ، ردحاً من الزمن ، لم ينس في خلاله مَنْح الناحية الصحية في الصحراء ،كما في الحواضر ، جانباً من اهتمامه . فاستقدم أطباء معروفين ، من البلاد المجاورة غرسوا بين يديه نواة « التنظيم الصحي »

دخل عبد العزيز مكة وأقبلت مئات الألوف من سائر أنحاء المعمور ، لحج بيت الله . وأدرك عِظَم التبعة أمام ربه ، في رعايتهم ورعاية شعبه . فأمر بإنشاء « مصلحة الصحة العامة » على النظام الحديث ، سنة **١٣٤٣** (١٩٢٥ م) وجعل مقرها مكة (العاصمة) وفروعها بجدة والمدينة المنورة والرياض والأحساء ، ثم في منطقة عسير ، وأخيراً في منطقة خط الأنابيب . وأُنشئت إدارة خاصة لمنطقة مكةالمكرمة ،وإدارة خاصة للمحاجر الصحية (الكرنتينات) في جدة .

وقُسمت البلاد إلى ست « مناطق صحية » في مكة وجدة والمدينة المنورة والرياض والأحساء وأبها ، تتبعها مستشفيات ومراكز طبية ومستوصفات .

كما أُنشئت إدارة خاصة ، قوامها عشرة أطباء متنقلين يقومون بجولات في الجهات التي تحتاج إلى إسعافات طبية في البادية .

وأُنشئت للمحاجر الصحية إدارة مركزها الرئيسي في جدة تتبعها مراكز صحية ساحلية في جميع الموانىء .

وقامت المستشفيات والمراكز الصحية ، بتوزيع « الأدوية » مجاناً .

وجعلت للحجاج ، في كل موسم، ترتيبات خاصة بين مكة وعرفات. وخُصت عرفات بمستشفى سيار ، ثم مستشفيات .

وأُقيمت مستوصفات في « بَحْرة » و « رابغ » و « المسيْجِيد » وغيرها لخدمة المسافرين بين جدة ومكة والمدينة .

معلومات وإحصاآت

كان في المملكة أواخر سنة ١٣٦٨ (١٩٤٩ م) أحد عشر مستشفى و ٢٥ مستوصفاً و ٣٤ مركزاً صحياً عدا الأهلية .

وكان يعمل في الدوائر الصحية والحكومية ١٤٤ طبيباً و ٨ صيادلة قانونين ، و ٤٩ مساعد صيدلي ، و ٧٠ ممرضة فنية وقابلة ، و ٩٦ ممرضاً متمرناً ، و ١٠٩ ممرضين عاديين و ٢٦ ممرضاً سياراً و ٣٣ مساعد مَخْبر .

وتضاعفت ، بعد ذلك المستشفيات في كل مكان وإنما الحِديث عن أيام الملك عبد العزيز ، رحمه الله .

مؤسســات

خفر السواحل

وأُنشئت في مطلع العهد السعودي بالحجاز ، مصلحة سُميت « دائرة المرافىء » انحصر عملها في إصدار رخص للغواصين والحواتين ، والسنابيك السفرية ، واستقبال البواخر القادمة إلى الميناء والمسافرة منه ، وإجراء معاملاتها، واستيفاء الرسوم المقررة عليها .

وفي سنة ١٣٥٠ (١٩٣١ م) أُحدثت « مديرية مصلحة خفر السواحل »

وجُعل مركزها الرئيسي بجدّة . وربطت بها « دائرة المرافىء » والدوريات البرية والبحرية . وصدر في تعيين اختصاصاتها « نظام » مؤلف من ٨٣ مادة .

البلديات

وأمر بإنشاء « بلديات » في البلدان الكبيرة . جُعلت لها صفتان: الأولى أهلية ، وهي تتمثل في المجالس البلدية ، التي يجري اختيارها بطريق الانتخابات والثانية حكومية . ومراجع البلديات في سائر الأنحاء ، حكامُها الإداريون . إلا مكة ، فمرجعها النيابة العامة . ولها اختصاصات انفردت بها عن مثيلاتها .

الهاتف اللاسلكي

وكان مما اهتمّ له عبد العزيز ، ربط المناطق بعضها ببعض ، ثم ربط المملكة كلها ، بشبكة لاسلكية أفادته كثيراً في حروبه ، وكانت معواناً على حفظ الأمن . فأمر بإنشاء مدارس لتعليم أعمال الهاتف اللاسلكي ، وأرسل بعض خريجيها في بعثات إلى الخارج . وأصبح مدرسو اللاسلكي في المملكة سعوديين كلهم . وأعمال المراكز في أيدي السعوديين .

وكان في المملكة ما يزيد على ستين مركزاً لاسلكياً ثابتاً . بعضها يتصل بأبعد المراكز في العالم . وجُلب عدد كبير من آلات الهاتف ، والمراكز (السنترالات) وُزعت في البلاد .

، ، ،

وكان اللاسلكي لا يفارق ديوان الملك ، في إقامته وفي أسفاره ، حتى رحلاته للصيد ، وعلى مقربة من مجلسه في قصر الزعفران أيام زيارته لمصر .

، ، ،

وعانى أشد المصاعب في إفهام الغُلاة من « الإخوان » أن اللاسلكي والهاتف هما من المبتدعات النافعة ؛ وليس للشيطان يد فيهما ..

القضاء قبل الاستقرار

انقضى أكثر من الثلث الأول من حياة الملك عبد العزيز ، والقضاء في بلاده ماض على ما كان عليه في العهود السابقة : في كل مدينة قاض وأمير . يستعرض الأول ما بين المختصمين ، ويحكم . فإن رضيا بالحكم نفذ من دون عناء . وإن أبياه أو أباه أحدهما ، رُفع إلى الأمير فتولى إنفاذه . محكمة القاضي بيته أو المسجد أو أيّ مكان وجد فيه . وربما كان مجتازاً الطريق ، فاستوقفه الشاكي في أمره . لا محاكم ذات درجات، ولا محامون ، ولا مرافعات .

وكان يحدث ، ما يقع كثيراً في بعض بلاد العالم الأخرى ، من تداخل السلطتين القضائية والتنفيذية ، فيرفع الأمر إلى الإمام .

هذا في المدن . وأما العشائر ، فكان السائد في كثير منها حكم « العارفة » والعارفة عندهم كالقاضي في الحواضر ، وأحكامه مزيج من الشرع والعرف والعادات .

إلاّ أن صفحة « العارفة » انطوت في نجد ، بعد قيام « المطاوعة » وهم على شيء من العلم بفقه الدين .

أما القضايا الخطيرة ، في البادية والحاضرة على السواء ، فترفع إلى الإمام. وهو في نفس الوقت، يسمع كل شكاية ، ويحيل بعضها إلى الشرع (ويقصد به القاضي) ويفصل هو بما يَحْسُن له أن يفصل فيه .

ومن سهولة القضاء في بلاد عبد العزيز ، وحدة المذهب ؛ فليس هناك

إلا مذهب الإمام أحمد بن حنبل وكتبه وكتب فقهاء الحنابلة .

الشرع يدعوك :

كتب زائر للمملكة سنة ١٣٥٣ (١٩٣٤ م) :

إذا اختلف اثنان في المملكة العربية السعودية ، وبالأخص في نجد ، على شيء ما ، وقال أحدهما للآخر : الشرع يدعوك ، اضطر الثاني إلى الذهاب فوراً إلى مجلس القضاء . حيث يستمع القاضي إليهما ، ويفصل بينهما . وإذا امتنع المحكوم عليه عن تنفيذ قرار القاضي ، رجع إليه المدعي ، فيكتب رقعة صغيرة إلى حاكم المدينة ،فيرسل هذا مع المدعي جندياً يكلف المحكوم عليه أن يدفع أو ينفّذ القرار . وان لم يذعن ، فالى السجن .

وبعد الاستقرار

قُسمت البلاد من حيث نظامها القضائي بعد الاستقرار وتوحيد أجزاء المملكة ووضع النظم الإدارية ، إلى قسمين :

الأول ، قسم تغمره البساطة في جميع مظاهره . وإن لجأ أفراد منه إلى القضاء ، فإنما يريدون الاحتكام إلى الشريعة لتقول كلمتها فيخضع لها المحكوم عليه في استسلام ورضاء . وليس في هذا القسم غير قاض واحد للقبيلة أو المنطقة الصغيرة ، له كلمته الفاصلة .

والثاني ، قسم وضعت له أصول للمحاكمات ، وقواعد للمرافعات ، توضح طرائق تقديم الدعوى ، وتحديد الجلسات وجلب الخصوم وتحديد الاختصاص المكاني أو الموضوعي للمحاكم ، وحقوق المتداعين في طلب التأجيل والإمهال ، وحقوق القضاة تجاه القضايا والمتقاضين ، وكيفية الاعتراض على الحكم واستئنافه ، وطريقة التسجيل للأحكام وتسليم الصكوك الشرعية ، إلى أمثال ذلك ، مما وُضعت له أنظمة وتعليمات هدفها حفظ الحقوق وصيانة العدالــة .

رئاسة القضاة :

وأكبر منصب قضائي في الدولة « رئاسة القضاة » كان مقرها في مكة . وتتألف من الأشخاص والهيآت الآتية :

١ — رئيس القضاة ٢ — معاون رئيس القضاة ٣ — هيأة التدقيقات الشرعية ٤ — ديوان رئاسة القضاة .

وقد بلغ ما دققته رئاسة القضاة من القرارات الشرعية والأحكام ، سنة ١٣٦٧ (١٩٤٨ م) ٣٦٧٠ قراراً وحكماً ، وأصدرت من المعاملات الرسمية في تلك السنة نحو ٨٠٠٠ معاملة .

المحاكم

والمحاكم في المملكة أيام الملك عبد العزيز أربعة أنواع :

١ — المحاكم الكبرى . وهي في كل من مكة ، والمدينة ، والرياض . وتشتمل المحكمة على أربعة قضاة اختصاصهم النظر في قضايا العقارات والديون من ٣٠٠ ريال فأكثر ، وقضايا الزواج والفسوخات ودعاوى الطلاق والحدود الشرعية ، ودعاوى القصاص وجميع القضايا الحقوقية والإقرارات بالعتق والوقف وغير ذلك .

وهناك محاكم شرعية ، في كل منها قاضيان ، كمحكمة جدة ومحكمة الطائف ومحكمة الظفير ؛ وهي تقوم بأعمام المحاكم الكبرى تماماً .

٢ — المحاكم المستعجلة : تنظر في القضايا الجنائية والتعزيرات والحدود التي لا قطع فيها ولا قتل ، وفي القضايا الحقوقية التي تكون في ٣٠٠ ريال فما دونها . وهي موجودة في مكة والمدينة والطائف .

٣ — المحاكم الشرعية في الملحقات : تنظر في القضايا الخاصة بالمحاكم الكبرى والمستعجلة .

٤ — وفي بعض الأماكن القريبة من المدن ، قضاة للنظر في القضايا

الجزئية البسيطة التي لا تستدعي ما يقضي بتشكيل محكمة مستقلة . وفي بعض المقاطعات يقوم رئيس المحكمة بالوساطة بين رئاسة القضاة وقضاة المقاطعة .

أنظمة الدولة

بدأ وضع النّظُم للدولة ، في عهد الملك عبد العزيز ، بعد دخوله الحجاز ، سنة ١٣٤٥ (١٩٢٦ م) تبعاً لمقتضيات الحاجة ، وتنظيماً للأعمال .

وكانت المعاملات على أثر دخول الملك عبد العزيز الحجاز ، تتبع أحكام القانون العثماني . فلم يكن بد من انقضاء زمن على انتظام الدولة الجديدة لتستطيع وضع أحكام تحل محل الأحكام المعمول بها . فأذن باستمرار أحكام ذلك القانون إلى أن قامت النظم الحديثة مقامها .

الامــن

ومن تحصيل الحاصل أن نقول : إن الأمن في بلاد المملكة العربية السعودية كان ولا يزال مضرب المثل . فهو قول يردّد في كل مناسبة ويَرِد على كل لسان .

وما من إنسان دخل تلك البلاد ، حاجاً أو معتمراً أو سائحاً أو زائراً إلاّ عاد منها يحدّث – إذا سئل عن الأمن – بالأعاجيب .

فمن قصة رجل سقطت حقيبته بين مكة والمدينة ، ولم يلبث أن قرأ في «أم القرى» خبر العثور بها . إلى قصة آخر عاد فوجد ما أضاعه حيث سقط ، لم تمسه يد ، إلى أخبار من أمثال هذه ، أشبه بنسج الخيال ، ولكنها حقائق .

كيف أُتيح الأمن لبوادي شبه الجزيرة وحواضرها ؟

أدرك عبد العزيز ما ابتُليت به البادية . وعرف أن أرواح الناس ، من حضر وبدو ، ووطنيين وأجانب ستظل عرضة في الصحراء للاعتداء . فماذا صنع ؟

١ – عمد إلى « تحضير » أوفر عدد ممكن من البدو ، عن طريق الهِجَر .

٢ – وَفّر لسكان الهِجَر وغيرهم ، آلات الفلاحة والزراعة ، وسهل اقتناءها .

٣ – استكثر من الآبار الأرتوازية .

٤ – بَثّ « المطاوعة » في أفراد القبائل ، يعلمونهم « الطاعة » لله ، في اتباع ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه .

٥ – أحكم رابطة القبيلة بشيوخها ، واعتبر أفرادها جميعاً جنداً له ، وخص الشيوخ بِمنَح موسمية ثابتة ، من أرزّ وبرّ أو دقيق ، وسكّر وبنّ وغير ذلك .

٦ – الإسلام يحرّم ما يسمونه « الغزو » فلا غزو بعد اليوم .

٧ – جعل القبيلة كلها متضامنة متكافلة في « المسؤولية » عن وقوع أية جريمة فيها ، أو في جوارها . فإذا ظهر الجرم كان عليها إظهار المجرم . وإن اختفى المجرم عوقبت كلها ..

هذا بعض ما عمد إليه عبد العزيز ، لبسط الأمن في بوادي الجزيرة .

وكان للحزم والزجر فعلهما بعد أن تحدثت القبائل بنبأ إحداها وقد امتنعت عن إبراز مجرم منها ، فصبّحها رجال عبد العزيز ، والناس هجود ، فمُزِّقت .. وضُرب المثل بتصبيح ابن سعود وهَجَاده .

الأمن العام

وتقوم بالسهر على أمن الحواضر ، وقد تشترك في أمن البوادي « إدارة الأمن العام » وفيما يلي نبذة عنها وعن تشكيلاتها أيام الملك عبد العزيز :

تأسست في أواسط سنة ١٣٤٤ (أواخر ١٩٢٥ م) بمكة ، مديرية عامّة للشرطة ، ثم دُعيت « مديرية الأمن العامّ » مؤلفة من إدارات وأقسام ومراكز موزعة في أنحاء المملكة . ومرجعها جميعاً « مدير الأمن العامّ »

ترتكز على قوى المشاة ، وجنود المرور ، والخيالة و الآليات (كالسيارات والدراجات النارية) وشرطة حماية الأخلاق . وتشعبت إلى مكاتب للإدارة والتفتيش والمحاسبة والسفر ومراقبة الأجانب ، والمرور ، والتجنيد المركزي . وجعل فيها مجلس تأديبي . وخصت العاصمة (مكة) بمديرية للشرطة ، مرتبطة بمدير الأمن العام .

في المقاطعات :

وكانت للشرطة إدارات وتشكيلات ــ عام ١٣٦٩ (١٩٥٠ م) ــ في جميع المقاطعات والمدن .

وأنشأت إدارة الأمن العام أول « مصلحة » للمطافىء والإنقاذ ، في مكة والرياض والمدينة المنورة وجدة والطائف .

، ، ،

كما أُنشئت مدرسة للشرطة ، في مكة عام ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م) تخرج بها حتى سنة ١٣٦٧ (١٩٤٨ م) ٨٢ ضابطاً ومساعداً . وكان الطلبة فيها يتقاضون رواتب شهرية ، لتشجيعهم على الاستمرار في الدراسة .



من كلام الملك عبد العزيز

المذهب :

لا يُسأل أحد عن مذهبه أو عقيدته . ولكن لا يصحّ أن يتظاهر أحد بما يخالف إجماع المسلمين أو يثير الفتنة . (٢٥ ذي الحجة ١٣٤٤)

النفعيون :

التباعد بين الراعي والرعية ، يدع مجالاً للنفعيين ، فيجعلون الحق باطلا ويصورون الباطل حقا . (١٥ محرم ١٣٤٦)

ابن جلَوي

في سياق الحديث عن الأمن في بلاد عبد العزيز ، تتوارد على الخاطر أسماء رجال كان لسطوتهم أثر مباشر ، في توطيد هذا الأمن . في مقدمتهم ابن جلوي . وهو جدير بكلمة عنه .

عبد الله بن جلوي بن تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود . من أبناء عمومة الملك عبد العزيز . كان رفيقه الأول وعضده الأيمن وأخاه الروحي في أكثر أيامه ، ابتداءً من طفولته . وهو أكبر من عبد العزيز ، ببضع سنوات .

شارك عبد العزيز في كل وقائعه الأولى ، إلى أن كانت سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) وفيها قامت حركة عصيان في بريدة فأخضعها عبد العزيز وولى ابن جلوي إمارة القصيم . فكانت له فيها أخبار دلت على حزم ، لولا كثير من الشدة .

وكان مع عبد العزيز في استرداده الأحساء من أيدي الترك . ورآها عبد العزيز تضجّ من نزوات القبائل القريبة منها ، وتغلي في داخلها عصبيات ونزعات ، فولاّه إمارتها سنة ١٣٣١ (١٩١٣ م) فضرب على أيدي العابثين . وكان أول ما فعله ، أن طرد الأعيان والأغنياء من مجلسه ، مخافة أن يضطر إلى محاباة بعضهم .

قالوا : كان يجلس في كرسي القضاء وحده ، فلا تجلس معه الرحمة ولا المحاباة . يُرعب اسمه الناس ويروع المجرمين ، وتخوف الأمهات به أطفالها !

أخباره كثيرة . استمر في إمارته إلى أن توفي سنة ١٣٥٤ (١٩٣٥ م)

فتنة الدويش

قال الملك عبد العزيز بعد القضاء على فتنة فيصل الدويش وأنصاره الآتي خبرها : سنحيا حياة جديدة بعد اليوم ..

والدويش هذا : فيصل بن سلطان بن فيصل . من « الدوشان » من « علوة » أصحاب الرئاسة في « مطير »

وكان الدوشان أول من أجاب دعوة عبد العزيز لإنشاء الهِجَر ، فاختطوا « الأرطاوية » في جنوبي القصيم ، وهي أول ما بُني من الهجر .

وفيصل الدويش تولى زعامة مُطَيْر بعد أبيه . وكان مع بداوته وشراسة خلقه ، داهيةً مدبراً ختالاً ، معتزاً بعدده الضخم .

خضع لعبد العزيز خضوع الرغبة والرهبة . وخرج عليه . ثم اطاعه وسكن « الأرطاوية » وتأمر على من كان فيها من « الإخوان » وقد تحولت خشونة البداوة فيهم ، إلى خشونة في مقاومة كل إصلاح يظنه جهلتهم ابتداعاً ، فيرونه مروقاً من الدين . واستبدلوا بالعقال العمامة . وفيهم من كفّر لابسي العقال .

وكان حينما يقدم الرياض ، يصحبه نحو ١٥٠ رجلاً مسلحاً . ويراه الملك صديقاً قديماً وقائداً من عظام قواده . وإذا جلس لا يجلس إلاّ في جوار الملك . يترفع عن إلقاء السلام على أيّ مخلوق يضمه القصر ؛ ما عدا العلماء .

وبرز اسمه في حصار « حائل » وحصار المدينة المنورة ، وغزواته لعشائر من نجد خرجت على عبد العزيز ولجأت إلى أطراف العراق ، فقضى عليها

الدويش . وكان يرى في نفسه ندّاً لابن سعود . وامتدّ طموحه إلى عرش ابن سعود . واحتمله عبد العزيز على عنجهيته وأطماعه .

ولما انحرف عن طاعة عبد العزيز ، مشى معه « العُجْمان » وهم يمانيون قدموا من بادية نجران ، قبيل أواسط القرن الثالث عشر للهجرة واستقام عودهم ، في عهد احتلال الترك للأحساء ، وخلا لهم الجوّ ، ما بين الأحساء والكويت . وتكاثروا واشتدوا . ولما كانت وقعة « جراب » سنة ١٣٣٣ (١٩١٥ م) غدروا بعبد العزيز لأنه كفّهم عن التعدي على أموال الأحساء .

وقاتلهم عبد العزيز من أجل مواش نهبوها من أهل الكويت ، فجرحوه وقتلوا أخاه سعداً . ثم كرّ عليهم ومزقهم ، فأطاعوه .

ولما أقبل الناس على إنشاء « الهجر » وسكناها ، دخلوا في زمرة « الإخوان » وأعانهم عبد العزيز على بناء هِجَرهم ، في وادي المياه ، ببادية الأحساء ، وأهمها هجرة « الصَرّار » حيث يقيم رئيسهم ضِيدان بن حِثْلَيْن .

وهم لا يقلّون إعراقاً في البداوة عن « مُطَير » عشائر الدويش ، ويُعدون من أشد القبائل عصبية فيما بينهم . وسيرتهم بعد أن سكنوا « الهِجَر » كسيرة مطير : تزمّت في الدين ، على غير علم ، وتكفير للناس فيما خالفوهم فيه . حتى كانوا يكفّرون من يبقى على البداوة .

ولم تكن لرئيسهم (ضيدان بن حثلين) سابقة بارزة في خدمة عبد العزيز ، بل إنه حين وقعت حرب الحجاز ، ودُعي العُجمان للاشتراك في مناوبة القبائل الغازية ، ركب ضيدان على رأس جمع من قومه يؤمون الحجاز على مهل وتؤدة ، حتى قضوا في طريقهم أكثر من ثلاثة أشهر ، فجاءهم رسول من عبد العزيز من مكة يأمرهم بالأوبة إلى ديارهم ، استغناءً عنهم وعن مناصرتهم .

وتلي مُطَيراً والعُجمان قبائل « عتيبة » وهي من أكبر قبائل العرب . أكثرها من « هوازن » ومنهم قوم متحضرون سكنوا بعض الديار النجدية .

وكان عبد العزيز يستنفرهم في الملمات ويلحق بجيشه كثيرون منهم . إلا أنهم يتفرقون عنه حين ينقطع أملهم في الكسب . وتلك طبيعة البدو جميعاً .

وانتهى أمر عتيبة بابتناء بعض الهِجَر . وكانت هجرة « الغَطْغُط » على مقربة من الرياض ، أكبر هِجَرها . ولم تكن أقلّ تزمتاً من مُطَير والعُجمان . وشارك شيخها (سلطان بن بجاد) في وقعة « تربة » فكان له فيها موقف مذكور ، ثم كان مع عبد العزيز ، في حصار حائل . واشترك بعد ذلك مع خالد ابن لؤيّ ، في قيادة الجيش الذي دخل « الطائف » سنة ١٣٤٣ هـ . وغلبت على جماعته في ذلك اليوم غريزة البداوة ، فقتلوا ونهبوا وروعوا . وكان للحادث وقعه الأليم في نفس عبد العزيز ، فأمر بالتعويض على المنكوبين . وأنّب ابن بجاد على ما فعل رجاله ، فحقد ...

في الأرطاوية

وهكذا كان رؤوس الفتنة في نجد : فيصل الدويش شيخ مطير في الشمال ، وضِيدان بن حِثْلَيْن شيخ العجمان في الشرق ، وسلطان بن بجاد شيخ عتيبة في الغرب .

انتهت حرب الحجاز سنة ١٣٤٤ (١٩٢٥ م) وقفل سكان الهجر وغيرها ، عائدين إلى أوطانهم . وأوشك عهد الاستقرار في الدولة الناشئة أن يبدأ ، لولا أن نار الدويش وصاحبيه لم تهدأ .

كان فيصل الدويش يطمع بأن تكون له — على الأقل — إمارة المدينة وقد حاصرها قبل تسليمها لمحمد بن عبد العزيز . إلا أنه عاد وهو لا يزال شيخ « الأرطاوية »

ومَنّى ابن بجاد نفسه بولاية الطائف . وعلى الرغم من أن عبد العزيز اكتفى بتأنيبه ، فإنه انقلب وهو كظيم .

وما نسي ابن حثلين حرمانه وحرمان عشيرته ، من مغانم الحجاز . وقد

رده عبد العزيز ، عقاباً على تمهله .

زار الدويش هجرة الغطغط وأميرها ابن بجاد . فبدأت « المؤامرة » على عبد العزيز ، ووافق ابن بجاد على عقد اجتماع (سري) يحضره ثالثهما ابن حثلين وبعض زعماء مطير والعجمان وعتيبة في « الأرطاوية »

وعقد الاجتماع سنة ١٣٤٤ (١٩٢٦ م) وأظهر فيه الثلاثة نقمتهم على عبد العزيز . لا لحرمانهم وإهمالهم ، بل لسلوكه مع « المسلمين » مسلكاً جديداً — زعموه — يخالف سيرته الأولى ، ولا يتفق مع سيرة أسلافه .

وأسفر اجتماعهم عن وجوب الدعوة إلى ما سموه « محاربة الكفر والشرك » وتعاهدوا على أن يكونوا يداً واحدة فيما هم مقدمون عليه . وتفرقوا يبثون دعوتهم ويتأهبون .

، ، ،

وعلم عبد العزيز بما قالوا وما فعلوا ، فتجاهل الحركة . ومدّ لهم الحبل .

ودعا زعماء « الإخوان » سكان الهجر إلى اجتماع عقد في الرياض يوم ٢٥ رجب ١٣٤٥ (أوائل ١٩٢٧ م) وحضروه جميعاً ، ما عدا سلطان ابن بجاد . وشرح عبد العزيز موقفه ، فوصف نفسه بأنه خادم الشريعة والمحافظ عليها ، وأنه هو الذي يعهدونه من قبل ، لم يتغير كما يتوهم بعض الناس ، ولا يزال ساهراً على مصالح العرب والمسلمين .

حركة الدويش :

وأقامت حكومة العراق مخفراً على ماء بُصَيّة (في العراق على حدود نجد) وأرسلت عدداً من العمال مع حامية من الجند للإقامة على الحدود . ورأت حكومة الملك عبد العزيز في ذلك مخالفة للمادة الثالثة من پروتوكول العُقير القائلة : تتعهد الحكومتان — العربية السعودية والعراقية — كل من قبلها ألا تستخدم الآبار الموجودة على أطراف الحدود ، لأي غرض حربي ،

كوضع قلاع عليها . وألا تعبىء جنداً في أطرافها .

ولم تكد تبدأ المفاوضة ، بالطريقة الودية ، بين الحكومتين ، حتى كان فيصل الدويش قد وجدها فرصة سانحة ، فأرسل جماعة من « الإخوان » سنة ١٣٤٥ (١٩٢٧ م) فهاجموا المخفر ، وقتلوا من فيه من الجند والعمال . وأعلن الدويش عزمه على « الجهاد » وهو يرمي إلى أهداف ثلاثة : أولها إظهار ابن سعود أمام « الإخوان » بمظهر المتساهل في حقوق بلاده ، والثاني إرضاء روح « الغزو » التي كانت لا تزال كامنة في « الإخوان » والثالث إحراج موقف عبد العزيز مع العراق والإنكليز .

ولا شك في أن الدويش أصاب بعض النجاح لنفسه في هذه الوثبة ، غير مبال بما قد تجره من المضار . وتناقلت صحف الأخبار أنباءه ، وسارع عبد العزيز إلى حكومة العراق والمندوب السامي البريطاني في بغداد ، يخبرهما بتمرد الدويش عليه ، ويحذرهما من تهوّره ويشعرهما بتأهب القوات السعودية لتأديبه .

، ، ،

وأراد عبد العزيز أن يوجه قوته لضرب الدويش وأعوانه . إلا أنه كان ثمة ما يدعو إلى التريث والتفكير :

١ — لم يعلن الدويش العصيان . وهو في نظر « الإخوان » متطوع للجهاد .

٢ — الدويش وأحلافه « الإخوان » من أقوى العناصر في جيش عبد العزيز ، فهل يقاتلهم من أجل فعلة كان أكثر المشتركين فيها مندفعين بحسن نية؟

٣ — كان العراق كثيراً ما فتح أبوابه لعصاة عشائر نجد وآواهم وسمى بعضهم « لاجئين سياسيين » فماذا يكون الموقف لو ضُرِب « الإخوان » ولجأوا إلى بادية العراق ؟

٤ — ستكون المعركة بالقرب من حدود العراق والكويت . فهل يمكن أن تظل « محلية » أم يتدخل أحد الجارين ويستفحل الخطب ؟

كل هذا دار في خلد عبد العزيز . وعلى الرغم من أنه كان حريصاً على معاقبة من هاجموا المخفر من دون إذنه ، فقد ساءه أن تلاحقهم الطائرات الإنكليزية من العراق ، وتتجاوز الحدود ، ثم تلقي قنابلها على هجرة « اللّصّافة » فتدمّر مسجدها وبيوتاً أخرى ؛ والمادة السادسة من اتفاقية « بحرة » تقول : «لا يجوز لقوات العراق ونجد أن تتجاوز حدود بعضها البعض بقصد تعقيب المجرمين إلاّ برضى الحكومتين »

وأرسلت الحكومة البريطانية السير جلبرت كليتن ، لمفاوضة الملك عبد العزيز في جدة ، فاجتمعا . وعرف عبد العزيز إصرار الحكومتين البريطانية والعراقية على بناء مخافر على الحدود ، فتوقفت المفاوضة .

وعاد عبد العزيز إلى الرياض ، وليس أمامه إلا أن يطرح موضوع المخافر وموقف الدويش والإخوان ، على الرأي العام . فدعا إلى عقد « الجمعية العمومية » وأقبلت الوفود .

يخطب في الجمعية العمومية

اشترك في مؤتمر « الجمعية » ٣٤٧ من العلماء والزعماء ورؤساء الحواضر والبوادي . عدا من انضمّ إليهم من كبار رجالهم ، حتى قُدّر عدد الجميع بثماني مئة . وتخلّف رؤوس الفتنة عن حضوره ، إلا أن الدويش كان أكثر من غيره مرونة ، فأناب عنه ابنه « عزيّز » — تصغير عبد العزيز — واعتذر بكبر سنه وعجزه ، وأنه نزل عن الرئاسة لابنه .

وافتُتح المؤتمر في جمادى الأولى ١٣٤٧ (١٩٢٨ م) بخطبة ارتجلها الملك عبد العزيز ، قال فيها :

« أيها الإخوان . تعلمون عظم المِنّة التي منّ الله بها علينا بدين الإسلام ، إذ جمعنا به بعد الفرقة ، وأعزّنا به بعد الذلة . واذكروا قوله تعالى«وقل

اعملوا فسيرى الله عملكم – الآية».. إن شفقتي عليكم وعلى ما منّ الله به علينا ، وخوفي من تحذيره سبحانه وتعالى بقوله « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم » .. كل هذا دعاني لأن أجمعكم في هذا المكان لتذكروا أولاً ، ما أنعم الله به علينا ، فنرى ما يجب عمله لشكران هذه النعمة ، وثانياً : لأمر بدا في نفسي وهو أنني خشيت أن يكون في صدر أحد شيء يشكوه مني أو من أحد نوابي وأمرائي ، بإساءة كانت عليه ، أو بمنعه حقاً من حقوقه . فأردت أن أعرف ذلك منكم لأخرج أمام الله بمعذرة من ذلك ، وأكون قد أديت ما عليّ من واجب . وثالثاً : لأسألكم عما في خواطركم وما لديكم من الآراء مما ترونه يصلحكم في أمر دينكم ودنياكم .

« أيها الإخوان . إن القوة لله جميعاً . وكلكم يذكر أنني يوم خرجت عليكم كنتم فرقاً وأحزاباً ، يقتل بعضكم بعضاً ، وينهب بعضكم بعضاً ، وجميع من ولاّه الله أمركم من عربي أو أجنبي ، كانوا يدسّون لكم الدسائس لتفريق كلمتكم وإضعاف قوتكم لذهاب أمركم ، ويوم خرجت كنت محل الضعف ، وليس لي من عضد وساعد إلا الله وحده ، ولا أملك من القوة إلا أربعين رجلاً تعلمونهم . ولا أريد أن أقص عليكم ما منّ الله به عليّ من فتوح ، ولا بما فعلت من أعمال معكم كانت لخيركم ، لأن تاريخ ذلك منقوش في صدر كل واحد منكم ، وأنتم تعلمونه جميعاً وكما قيل : السيرة تبيّن السريرة .

« إنني لم أجمعكم اليوم خوفاً أو رهباً من أحد منكم ، فقد كنت وحدي من قبل وليس لي مساعد إلا الله ، فما باليت الجموع . والله هو الذي نصرني ، وإنما جمعتكم كما قلت لكم خوفاً من ربي ، ومخافةً من نفسي أن يصيبها زهو أو استكبار . جمعتكم هنا لأمر واحد ، ولا أجيز لأحد أن يتكلم هنا في غيره . ذلك هو النظر في أمر شخصي وحدي ، فيجب أن تجتنبوا في

هذا المجلس الشذوذ عن هذا الموضوع . أما الأشياء الخارجة عن هذا فسأعين لكم اجتماعات خاصة وعامة للنظر فيها .

« أريد منكم أن تنظروا – أولاً – فيمن يتولى أمركم غيري ... وهؤلاء أفراد الأسرة أمامكم ، فاختاروا واحداً منهم تتفقون عليه ، وأنا أقرّه وأساعده . وكونوا على يقين بأنني لم أقل هذا القول استخباراً ، لأنني ولله الحمد لا أرى لأحد منكم منّة عليّ في مقامي هذا ، بل المنة لله وحده ، ولست في شيء من مواقف الضعف حتى أترك الأمر لمنازع بالقوّة .

« لا يحملني على هذا القول إلاّ أمران ، الأول : محبة راحتي في ديني ودنياي ، والثاني : أني أعوذ بالله من أن أتولى قوماً وهم لي كارهون . فإن أجبتموني إلى هذا فذلك مطلبي ، ولكم أمان الله ، فأيّ من يتكلم في هذا فهو آمن ولا أعاتبه لا آجلاً ولا عاجلاً . فإن قبلتم طلبي هذا فالحمد لله ، وإن كنتم لا تزالون مصرّين على ما كلمتموني به على أثر دعوتي لكم ، فاني أبرأ إلى الله أن أخالف أمر الشرع في اتباع ما تُجمعون عليه مما يؤيد شرع الله »

وهنا ارتفع صياح الحضور : لا نريد بك بديلاً ، لن نرضى بغيرك . واستمر في الخطابة فقال :

« إذا لم يحصل ذلك منكم ، فابحثوا في شخصي وأعمالي ، فمن كان له عليّ – أنا عبد العزيز – شكوى أو حق أو انتقاد في أمر دين أو دنيا فليبيّنه . ولكل من أراد الكلام عهد الله وميثاقه وأمانه ، أنه حر في كل نقد يبينه ولا مسؤولية عليه . وإني لا أبيح لإنسان من العلماء ولا من غيرهم أن يكتم شيئاً من النقد في صدره وكل من كان عنده شيء فليبينه ، ولكم عليّ أن كل نقد تذكرونه أسمعه ، فما كان واقعاً أقررت به ، وبيّنت سببه ، وأحلت حكمه للشرع يحكم فيه ، وما كان غير بيّن وهو عندكم من قبيل الظنون ، فلكم عليّ عهد الله وميثاقه أنني أبيّنه ولا أكتم عليكم منه شيئاً . وأما الذي تظنونه مما لم يقع ، فأنا أنفيه لكم . وأحكّم في كل ما تقدم شرع

الله ، فما أثبته أثبتّه ، وما نفاه نفيته .

« أنتم ، أيها الإخوان ، أبدوا ما بدا لكم ، وتكلموا بما سمعتموه وبما يقوله الناس من نقد وليّ أمركم ، أو من نقد موظفيه ، المسؤول عنهم . وأنتم ، أيها العلماء ، اذكروا أن الله سيوقفكم يوم العرض وستسألون عما سئلتم عنه اليوم ، وعما ائتمنكم عليه المسلمون ، فأبدوا الحق في كل ما تسألون عنه ، لا تبالوا بكبير ولا صغير . وبينوا ما أوجب الله للرعية على الراعي ، وما أوجب للراعي على الرعية في أمر الدين والدنيا ، وما تجب فيه طاعة ولي الأمر ، وما تجب فيه معصيته . وإياكم وكتمان ما في صدوركم في أمر من الأمور التي تسألون عنها . ولكل من تكلم بالحق عهد الله وميثاقه أنني لا أعاتبه وأكون مسروراً منه ، وأني أنفذ قوله الذي يجمع عليه العلماء . والقول الذي يقع الخلاف بينكم فيه ، أيها العلماء ، فاني أعمل فيه عمل السلف الصالح إذ أقبلُ ما كان أقرب إلى الدليل من كتاب الله وسنة رسوله ، أو قول أحد العلماء الأعلام المعتمد عليهم عند أهل السنة والجماعة .

« إياكم ، أيها العلماء ، أن تكتموا شيئاً من الحق ، تبتغون بذلك مرضاة وجهي . فمن كتم أمراً يعتقد أنه يخالف الشرع فعليه من الله اللعنة ..

« أظهروا الحق وبيّنوه وتكلموا بما عندكم ... »

، ، ،

ويقول من حضر الاجتماع ودوّن ما دار فيه : إن العلماء أجابوا بأنهم يبرأون إلى الله من كتمان ما يظهر لهم من الحق . وأعلنوا أنهم ما نصحوه إلا انتصح ، ولو رأوا في عمله مايخالف الشرع لما سكتوا عنه ، وهم ما رأوا منه إلا الحرص على إقامة شعائر الدين ، واتباع ما أمر به الله ورسوله .

ونهض أحد الحضور فقال : إننا لا نعرف ما يُنتقد إلا « الأتيال »

– يريد اللاسلكي – فيقال إنه « سحر » ولا يخفى حكم السحر والسحرة في الإسلام ، والثاني « القُصور » – يعني المخافر – التي تبنيها حكومة العراق على الحدود ، وهذا ضرر على أرواحنا وأوطاننا .

فأحابه عبد العزيز : ليقل العلماء رأي الإسلام في « الأتيال »

فأفتى العلماء بأنهم لم يجدوا في القرآن أو السنة أو قول أحد العلماء ولا من أخبار العارفين ، دليلاً على تحريم الأتيال ، وأن من يقول بالتحريم يفتري على الله الكذب ونبرأ إلى الله منه ..

وأجاب عبد العزيز نفسه عن « المخافر » قائلاً :

« إن القوم يدّعون أنكم أنتم الذين بدأتموهم بالعدوان . وذلك بقتل السريّة التي أرسلها الدويش لأهل « بصَيّة » ، ثم غزوات الدويش التي تبعتها . في حين أني – أنا عبد العزيز – ما قمت بذلك . وأنتم يا أهل نجد ما حميتم ذمة والي أمركم . وإنهم يزعمون أن هذه القصور (المخافر) ما بنيت إلا مخافة الخطر منكم »

وهنا تصايح « الإخوان » : نبرأ إلى الله من الدويش ... قاطعناه هو ومن معه .. وإنا على استعداد لمهاجمته ومجازاته .. يا عبد العزيز إننا نبايعك على السمع والطاعة ، وأن نقاتل من تشاء عن يمينك وشمالك .. ولو دفعتنا إلى البحر خضناه .. إننا نبايعك على مقاتلة من ينازلك ومعاداة من عاداك ، ونقوم معك ما أقمت فينا الشريعة .

تجديد البيعة

جدد العلماء والزعماء البيعة لعبد العزيز في مؤتمر الجمعية العمومية،على السمع والطاعة ومحاربة الباغي إلى أن يفيء إلى الرشد.وتم له ما أراد من جمع الكلمة وتقوية العزائم ، استعداداً للإيقاع برؤوس الفتنة وتأديب الغلاة من « الإخوان » وأعظم ما أسفر عنه الاجتماع ، إبطال ما كان يدعيه الغلاة

من حق إعلان الجهاد بغير إذن « الإمام » وأصبح المخالف له حلال الدم والمال .

المتمردون

أما القائمون بالحركة ، فتجاهلوا المؤتمر والمؤتمرين . وأذاعوا في « الهِجَر » أنهم قائمون بأمر الدين وإقامة الشريعة التي يهدمها عبد العزيز ، وأن عبد العزيز طالب ملك ، ومُوالٍ للكفار ، وشريك لهم في جميع الأعمال .

وترك « ابن بجاد » قريته « الغطغط » لقربها من الرياض ، ولحق بالدويش فكانت « الأرطاوية » مأوى عتيبة ومطير . وقام « ابن حثلين » يشن الغارات على عرب العراق في بادية الكويت والزبير .

واطمعهم بعبد العزيز تريثه في التصدي لهم . وما كان تريثه إلا اضطراراً .

كان أشد ما يخشاه أن يفلت العصاة أو زعماؤهم ، من بين يديه ، قبل أن يقضي عليهم قضاءً لا قيام لهم بعده . وخطته أن يحصرهم في داخل حدوده ، ولا سبيل إلى حصرهم ما لم يطمئن إلى أن بوادي الحكومات المجاورة وحواضرها ستُغلق أمامهم ، فلا يجد أحد منهم منفذاً للنجاة . واطمئنانه هذا لا يكون إلا إذا تعهد له المنتدَبون — يومئذ — على العراق وشرقي الأردن بتسليمه من قد يلجأ إليهما من العصاة أو منعهم من الالتجاء إلى أراضيهما . ولأمرٍ ما ، كان الإنكليز يودون التملص من التعهد له بذلك .

، ، ،

وضج العراق من اختلال الأمن في أطرافه ، وانتهت المفاوضات مع الإنكليز بأن تَسلّم الملك عبد العزيز تعهداً منهم بطرد العصاة من أراضي العراق والكويت وشرقي الأردن .

الزحف

وجاءت أخبار « القصيم » تحمل إلى عبد العزيز أن ابن بجاد التقى بجماعة

من تجار القصيم ، فقتلهم واستباح أموالهم .

وذاع ذلك في الرياض ، فثارت ثائرة الناس . وأذن عبد العزيز بالزحف ، فتجمعت حَضَر نجد وبوادي حرب وقحطان وسبيع من « الإخوان » وقسم من عتيبة . وخرج بهم عبد العزيز في ٢٢ رمضان ١٣٤٧ (أواخر ١٩٢٩ م) .
وقد تجمع أكثر العصاة في جنوبي مكان يقال له « روضة السبَلَة » بقرب « الزلفي » فحط أمامهم : ليس بين المعسكرين إلا ربوة صغيرة . وأرسل يدعوهم إلى النزول على حكم الشرع .

معركة السبلة

ونشبت المعركة في صباح اليوم التالي ١٩ شوال ١٣٤٧ (١٩٢٩ م) فاستمرت إلى منتصف النهار . ففر ابن بجاد بجمع من عتيبة ، متجهاً إلى « الغطغط » وجرح الدويش في خاصرته ، فكاد يسقط عن جواده لولا أن أدركه أحد رجاله وانهزم به إلى الأرطاوية .

وأمر الملك منادياً ينادي برفع السلاح ، والكف عن ملاحقة الفلول .

وعرفت هذه الوقعة بوقعة « السبلة » ولا يزال مكانها معروفاً، في ناحية الزلفي ، إلى الآن .

العفو عن الدويش

ورحل الملك إلى جوار « الأرطاوية » فجيء بالدويش محمولاً على «نعش» تحف به نساوه يبكين وأطفاله يندبون ، وأُنزل بين يديه ، فالتفت إليه قائلاً : هذا فعلك بيدك . فأجاب الدويش : يا الإمام ! إن عاقبت فبذنوبنا ، وإن عفوت فأنت أهل العفو ... فقال : قد عفوت !

ابن بجـــاد

وبعد ثلاثة أيام جاء ابن بجاد ، مستسلماً في « شقرا » وقد نزل بها عبد العزيز . فأمر بسجنه في الرياض (ونقل بعد ذلك إلى الأحساء)

ابن حثلين

ولم يشترك ضيدان بن حِثْلَيْن — زعيم العجمان — في معركة « السبلة » وكان في « الصَرّار » على مقربة من الأحساء ، فدعاه ابن جلوي لمقابلته ، فامتنع ، فوجّه إليه حملة بقيادة ابنه فهد بن عبد الله بن جلوي . فتقابلا في « العوينة » على مسافة أربع ساعات من الصرار . وقُتل ضيدان ، وقتل فهد في ١٩ ذي القعدة ١٣٤٧ (١٩٢٩ م)

حَشْد جديد :

وخشي العُجمان بطش ابن جلوي ، فنزحوا إلى الشمال ونزلوا « الوَفْراء » على مسيرة يومين من الكويت ، وقد أمّروا عليهم نائف بن حثلين (ابن عم ضيدان) ولحق بهم من لم يشهد الوقعة ، من بدو العجمان . والتف حولهم طلاّب الكسب ، من مُطير بزعامة جاسر بن لامي . وانضم إليهم ابن مشهور (من الرولة) وكان نازلاً بالجهراء . وجاءتهم فلول معركة السبلة ، فناهز عددهم أربعة آلاف مقاتل .

انتقاض الدويش

واندمل جرح الدويش في الأرطاوية . وجاءته أخبار « الإخوان » في تجمعهم بالوفراء. فتناسى عهده للملك عبد العزيز ، وخرج في جمع من مُطير فاجتاز الدهناء والصمان . واستمر حتى بلغ الوفراء . واشتدّ به ساعد نائف (ويلقب بأبي الكلاب) ومن معه ، فولوه رئاستهم .

وتسامعت مطير وغيرها بانتقاض الدويش ، وتزعُّمه الحركه ، فأقبل كلّ من يرمق الشرّ بعين .

ورسم الدويش لمن معه خطة جديدة ، هي شن الغارات في نجد ، وقطع سبلها ، واستنفار القبائل لنصرته . وبدأ هو بالإغارة على سُبيع والسُهول في « القاعية » وراء الدهناء ، فكانت له موقعة فيها في ربيع الأول ١٣٤٨

(١٩٢٩ م) فذبح بعض أهلها ، وكانت لابنه عزيـِّز موقعة مع أمير حائل (عبد العزيز بن مساعد) في أم رضمة ، قتل فيها عزيز (سنة ١٣٤٨ ه/ ١٩٢٩ م)

، ، ،

وتابع الدويش ، خطته الجديدة : مفاجآت في قلب الجزيرة وشرقها وغربها ، للإقلاق ونشر الفوضى والرعب . وتفرقت قبائل « عتيبة » شيعاً بين نجد والحجاز حتى كاد التنقل بينهما، وبين نجد والخليج يتعذّر .

واتجه عبد العزيز إلى تقوية الحاميات في الأحساء والقطيف وحائل . وقايةً لها من شرر الفتنة أن يعلق بها . وأرسل الزحوف إلى « عتيبة » فقضى على عُصاتها .

عبد العزيز يستشير

ودعا بعض ذوي الرأي والزعامة إلى اجتماع في قرية « الشَّعْراء » بين الرياض ومكة ، فاجتمعوا في أول جمادى الأولى ١٣٤٨ (اكتوبر ١٩٢٩م)

وكان في جملة ما قاله عبد العزيز لهم :

« لم تردع المفسدين موعظة ، ولم يحجزهم إسلام ، ولم يمنعهم عهد ، ولم يُفد فيهم عطاء ، ولم يؤلّف قلوبهم معروف .

« خرجوا عن الطاعة وفارقوا الجماعة ، وظاهروا المارقين فخفروا ذمّة المسلمين . وأفسدوا في الأرض ، وقطعوا السابلة ، وأخافوا الآمن ، وقتلوا البريء »

ثم قال :

« لا نريد أن نشهد في بلادنا بعد اليوم — بحول الله وقوته — مثل هذا الحادث ، ولا مثل هذه النزغات الشيطانية .

« لينصرف كل واحد منكم إلى جماعته ، يستشيرهم فيما يرون وموعدنا غداً في هذا المكان لتعلنوا آراءكم .

مقررات الشّعْراء

وفي اليوم التالي عاد الاجتماع إلى الانعقاد ، برئاسة عبد العزيز .

وبعد مناقشة دامت أربع ساعات ، اتفقوا على ما يأتي :

١ — كل من اشترك في الفتنة وبقي حياً يؤخذ ماله وجميع ما لديه من جيش (إبل) وخيل وسلاح وتُحكّم الشريعة في رقبته .

٢ — كل من كان متّهماً بممالأة أهل الفساد ، ولم يجاهد مع المسلمين ، تؤخذ منه شوكة الحرب (الذلول والفرس والبندق)

٣ — كل ما يؤخذ من الأشرار المفسدين يمنح للمجاهدين الصادقين ليتقوّوا به .

٤ — يُرسَل إلى الهجر التي فيها أناس من أهل الفساد ، أمير معه قوة ، لينظر في أمر المفسدين بما تقضي به الشريعة والمصلحة العامة .

٥ — كل هجرة غلب الفساد على أهلها يطردون منها ، ويفرّقون بين القبائل ، ولا يسمح لفريق منهم بالاجتماع في مكان واحد .

٦ — ترسل السرايا لإنفاذ هذه المقررات في خلال عشرة أيام .

٧ — بعد انفاذ هذه المقررات ، تنحدر جميع الرايات في الحال إلى أطراف الحدود ، حيث يقيم الأشقياء من العجمان والدويش .

وثمة فقرة تقول : « قد تم القضاء على جميع الذين قاموا بالعصيان ، من عتيبة وبني عبد الله من مطير ، ولم يبق أحد منهم عنده فضل قوة يستطيع بها أن يأتي أيّ عمل منكر »

في الشوكي

كان الملك عبد العزيز قبل مغادرته الرياض إلى « الشّعْراء » قد أمر بالكتابة إلى أمراء المدن والهِجَر وغيرهم ، بحشد قواهم ، ومضاعفة العدد عما جرت به

العادة . وأن يكون تجمّعهم في « الشوكي » بقرب الدهناء .

وبعد اجتماع « الشعراء » عاد إلى الرياض ، فعهد إلى كبير أنجاله الأمير سعود بادارة أمورها مدة غيابه . واستكمل عدّة الحرب . وقد صمّم على أن يقود الجيش بنفسه . وتقدم بسيارته إلى الشوكي ، يتبعه رتل من السيارات يحمل إخوته وبعض أنجاله وأبناء عمومته وكبار العلماء ورجال الحاشية ، فنزلها يوم ٢٨ جمادى الثانية ١٣٤٨ (أول ديسمبر ١٩٢٩ م)

الدويش يهدد بالالتجاء

وبادر الدويش حين علم بزحف عبد العزيز ، إلى إرسال وفد يحمل كتاباً بطلب « العفو » والأمان ويناشد « الإمام » ألاّ يضطره إلى دخول بلاد الكفر ..

وأجابه الملك ، يوم وصوله إلى الشوكي ، بأن لا مفر له من سلطانه حيث كان ، وأنه لم يراجعه إلا بعد أن سُدت في وجهه المسالك . وأما « الأمان » فيمكن تأمينه على حياته ، هو وبعض من معه ، إذا أتوا مستسلمين خاضعين لحكم الشرع ..

وأمر الملك بالتقدم ، فمشت الجموع إلى الشوكي لتقطع الدهناء إلى الدِبْدِبة « الدوّ » حيث تقيم جمهرة العصاة .

أعوان الدويش

وفشا الخبر في جموع الدويش ، وهو نازل على « الظّرابين » في الدبدبة ، عن اقتراب عبد العزيز ، فأخذت تتسلل منفضةً من حوله : لا قِبَل لنا بابن سعود ، وقد أقبل في مئة وخمسين راية ..

يغزوه الفرم

وبات الدويش في قلة من جمعه . فاستضعفه أشياخ من بادية العراق ،

كانوا موتورين منه ، كابن طوالة وابن سويط ، فاتفقوا مع عبد المحسن الفِرْم (من شيوخ حرب ، ويقال له محسن) وغزوه يوم ١٨ رجب ١٣٤٨ (١٩٢٩/١٢/٣٠ م) فنهبوا ما طالته أيديهم ، ودخلوا خيمة الدويش نفسه فحملوا ما فيها وأحرقوها .

بين العراق والكويت :

وكان بعض من فارق الدويش ، قد لجأوا إلى حدود العراق . وتبعهم الدويش بأهله ؛ فطُورد في بادية العراق ؛ فتحول عن طريق الجهراء إلى أراضي الكويت .

وعلم عبد العزيز بهذا ، وهو في « شعيب الباطن » فأبرق (في ٥ شعبان ١٣٤٨) إلى المندوب السامي في العراق ، يذكّره بأن حكومته تعهدت بطرد العصاة . ثم يقول : « وهاهم في الكويت ، فاما أن تطردوهم وإما أن تسمحوا لنا بمطاردتهم أينما ذهبوا »

ومن المفيد أن نذكر هنا أن الجيش الذي زحف به عبد العزيز ، من الشوكي كان أضعاف ما يحتاج إليه لإخضاع الدويش . ولكنه قدّر ما قد يحدث إذا لجأ الدويش إلى بعض الحدود المجاورة ، واضطر إلى مطاردته فيها ؟

زعماء العصاة في بارجة بريطانية

وتقدم عبد العزيز إلى « المُستَناة » ومنها إلى « جَوّ الحوار » ودخل أراضي « بنية عَيْفان » حيث وجد برقية من المندوب السامي ببغداد ، يخبره فيها بأن فيصل بن سلطان الدويش ونايف بن حثلين وجاسر بن لامي ، معتقلون في بارجة بريطانية . وكانوا قد استسلموا بالجَهْراء يوم ٨ شعبان . وأجابه عبد العزيز مبرقاً في ١١ شعبان ، يطلب تسليمهم إليه ، تنفيذاً للتعهد البريطاني .

وزحف بجموعه إلى « خَبَاري وَضْحا » قرب الكويت .

مصير العُصَاة :

وفي صباح ٢٨ شعبان ١٣٤٨ (١٩٣٠/١/٣٠) أقبل « ديكسون » المعتمد البريطاني في الكويت ، على إحدى الطائرات مصحوباً بقائد البارجة ، ومعهما الدويش وصاحباه ؛ فشكر الملك المندوبين وقال : هذا برهان عملي على صداقة الدولة الإنكليزية تشكر عليه .

وأمر بارسال الدويش وابن لامي وابن حثلين ، إلى الخيام . ثم نُقلو إلى الرياض ، ومنها إلى سجن « الأحساء » حيث كان رابعهم سلطان بن بجاد . ومات الدويش في سجنه سنة ١٣٥٠ (١٩٣١ م) أما ابن بجاد وابن لامي وابن حثلين (أبو الكلاب) فماتوا سنة ١٣٥٣ (١٩٣٤ م)

وتقاطر بقايا العجمان ومطير ، مطرودين من ملاجئهم ، فتجمعوا على حدود نجد. بنسائهم وأطفالهم ومواشيهم وإبلهم . فشملهم الملك بعفوه ، وأمر بتوزيعهم على « الهِجَر »

وساد الأمن شبه الجزيرة . واستقر المُلك لعبد العزيز .

عبد العزيز وفيصل بن الحسين

عقد الاجتماع التاريخي بين الملكين عبد العزيز آل سعود وفيصل ملك العراق ، على الطرادة البريطانية « Lupin » في « مصبّ شط العرب » يوم ٢٣ رمضان ١٣٤٨ (١٩٣٠/٢/٢٢) وأسفر الاجتماع عن « مشروع معاهدة صداقة وحسن جوار » ومشروع لمعاهدة « تسليم المجرمين » وتحوّل ما كان في نفسيهما من جفاء إلى صفاء . وكان لقاؤهما فاتحة ثقة واطمئنان ، بين الجارين الشقيقين نجد والعراق إلى الأبد إن شاء الله .

عبد العزيز ومصر

بعد أن استقر الملك عبد العزيز ، في مكة سنة ١٣٤٣ (١٩٢٤ م) وأقام يحاصر جدة ، بعث بكتاب في ١١ ربيع الثاني ١٣٤٤ (آخر اكتوبر ١٩٢٥) إلى ملوك المسلمين ، والجمعيات ، والمنظمات الإسلامية ؛ يدعوهم إلى إرسال مندوبين عنهم ، للنظر في مستقبل الحجاز .

وانقضى حصار جدة ، ومضى شهران على توجيه الدعوة ، ولم يتلقَّ جواباً عليها من أحد ؛ إلا جمعية الخلافة في الهند .

ولم يكن من المعقول ، أن يظل مستقبل الحجاز ، معلقاً إلى أجل غير معلوم . بل إن الفكرة من أصلها ، في اختيار « الحاكم » للحجاز ، على يد « مؤتمر » كهذا ، كانت ولا شك غير مدروسة ولا عملية .

وعقد أعيان مكة وجدة والمدينة ، اجتماعات درسوا فيها الوضع ، وطلبوا من « السلطان » عبد العزيز أن يجعل الكلمة لأهل البلاد ، في أمر من « يحكمها » فوافق .

وكانت « البيعة » على الأثر ، من أهل الحجاز للملك عبد العزيز . وقَبِل بيعتهم في ٢٥ جمادى الآخرة ١٣٤٤ (١٩٢٦/١/٨ م) وأصبح لقبه يومئذ « ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها »

المؤتمـــر

وتجددت فكرة عقد « مؤتمر » للنظر في إصلاح الحجاز ، فكتب عبد

العزيز إلى الحكومات والشعوب الإسلامية ، يدعوها إلى « مؤتمر » يعقد بمكة في ٢٠ ذي القعدة ١٣٤٤ (١٩٢٦/٦/٣ م) ولبى الدعوة من لباها ، ورفضها ملك مصر ، فكان هذا أول مظهر للخلاف بينه وبين عبد العزيز ، ولم يأت المؤتمر بنتيجة .

المحمل

وكان من خبر « المحمل » بعد ذلك بقليل ، ما لا يزال يذكره الكثيرون إلى الآن :

في موسم حجّ تلك السنة ، في اليوم الأول من عيد الأضحى ١٠ ذي الحجة ١٣٤٤ (٢٢ يونيه ١٩٢٦ م) وحجاج العالم الإسلامي من جميع الممالك والأقطار ، مجتمعون في مخيماتهم ببلدة « مِنى » تلفّت عربان نجد ، وكانوا أكثر الحجاج عدداً في ذلك العام ، فرأوا أمامهم « المحمل » القادم مع الحجّ المصري . على جمل يتهادى بين الجموع ، تحيط به موسيقاه وعساكره ودبدباته ، وتصايحوا : الصنم الصنم ! ... وتهافتوا يرشقونه بالحجارة وهم بملابس الإحرام . ولم يكن من أمير الحج المصري إلا أن أمر بنصب المدافع والرشاشات وإطلاق نيرانها على الجموع ..

وأخبرني ثقات من حجاج ذلك العام أن عبد العزيز لما علم بالخبر ، وهو على رأس الحجيج ، نهض من سرادقه ، وأسرع يعدو ، إلى أن توسط ما بين العربان ونار الجند ، وبسط ذراعيه يصيح : أنا عبد العزيز ، أنا عبد العزيز ! وكان من حسن حظ العرب والإسلام ، أنه لم تتناوله رصاصة طائشة أو متعمدة . وهدأ إطلاق النار ، وتدخل الجند السعودي ، وانكفّ الناس . وأمر بحجز المحمل عن الأنظار .

على أن حجاج نجد في هذه السنة ، لم يكونوا بأول من هاج لرؤية المحمل ، فابن زيني دحلان يقول في تاريخه : لما وصل المحمل المصري ، سنة ١٢٢١ هـ

(١٨١٦ م) أمر سعود باحراقه . ونقل الخبر رفعت باشا ، فقال : « أمر باحراقه بعد أن أنذر أميره في العام السابق بأن لا يسترجع معه هذه الأعواد ! – يعني المحمل – لأنها بدعة محدثة »

وليس هنا مكان الحديث عن تاريخ ابتداع « المحمل » ويكفي القول إنه لم يكن في عهد النبوة ولا الصحابة ولا الدولتين الأموية والعباسية .

القطيعة

ووصل الخبر إلى فؤاد الأول (ملك مصر يومئذ) وزيد عليه أن المحمل سيمنع دخوله بعد الآن إلى الحجاز ، فازداد حنقاً على عبد العزيز . وكان من المعتاد أن ترسل مصر ، مع المحمل كسوة للكعبة ، ومبلغاً من المال من ريع أوقاف الحرمين في الديار المصرية ، وبعض الهدايا ؛ فأمر الملك فؤاد بالانقطاع عن إرسال شيء من ذلك كله .

وعلى الرغم من أن الملك عبد العزيز ، أرسل كبير أبنائه « سعود بن عبد العزيز » سنة ١٣٤٦ ﻫ (١٩٢٦ م) إلى مصر ، لمعالجة عينيه وتصفية الجوّ مع القصر الملكي فيها ، فإن الجفوة استمرت .

عبد العزيز يدعو إلى تحكيم الشرع

ودعا عبد العزيز إلى تحكيم الشرع ، في حديث أفضى به إلى صحفي مصري سنة ١٣٥٤ (١٩٣٥ م) جاء فيه قوله : « لا خلاف بيني وبين مصر . وأمر المحمل متروك إلى الدين وإلى حكام الشرع .. في مصر علماء ، علينا أن نستفتيهم . وأنا معهم فيما يأتون به من الكتاب أو السنة . أبلغ مصر عني أن حكومتي على استعداد لكل تساهل تطلبه الحكومة المصرية يتفق مع الشرع »

آخر أيام فؤاد

وظل البلدان متقاطعين (رسمياً) إلى آخر أيام فؤاد . ودخل عليه رئيس

ديوانه « علي ماهر » وهو يحتضر فقال : ألا تجعل في صحيفة عملك الدخول في مفاوضة مع بلاد الحرمين الشريفين ؟ فأشار : لا بأس !

معاهدة الصداقة

ومات فؤاد سنة ١٣٥٥ (١٩٣٦ م) وانقشعت غمامة الجفاء ، وعقدت معاهدة « الصداقة » بين البلدين في ٧ مايو ، من السنة نفسها . وعمل بها ابتداءً من شعبان ١٣٥٥ (٨ نوفمبر ١٩٣٦ م)

وعاد ما بين البلدين الشقيقين ، إلى ما تقتضيه طبيعة الإخاء . وزاد ما بين عاهلي السعودية ووادي النيل ،من اتصال ،زيارة فاروق بن فؤاد لرضوى ، وزيارة عبد العزيز لمصر .

، ، ،

ومن المروي عن عبد العزيز ، حديث أشار فيه إلى اعتداء دول « المِحْوَر » على مصر ، في الحرب العامة الثانية ، وقال :

« كنا نسمع أخبار التعدي على مصر ، وكأنه اعتداء على الحَرَم . أو كأنه على أعيننا » ..

، ، ،

ذلك هو الملك عبد العزيز ، في ما كان بينه وبين حكام مصر الأولين . وقد لقي الله ، وليس في علاقاته بمصر ، وحبه لشعبها ، ما يكدر صفاءه أو يشوب تلك العلاقات بشائبة .

مصر وآل سعود

استطراد ، للتاريخ

كانت الحرب بين والي مصر العثماني « محمد علي باشا » وأهل نجد ، ما بين سنتي ١٢٢٦ و١٢٣٥هـ (١٨١١ – ١٨١٩م) وأخذ بعض مؤرخي القرن الثالث عشر للهجرة ، التاسع عشر للميلاد ، يطلقون على وقائع تلك الحرب اسم « حروب مصر في جزيرة العرب » أو « حملات مصر على الوهابيين » وتابعهم من بعدهم كثيرون يزجون مصر في حرب لم تكن لو خيرت لتختارها ، ولم يكن لها فيها إلا الركائب وبعض المعونات الفنية .

، ، ،

بين أيدينا مصادر مصرية ونجدية عن وقائع تلك الحقبة في الحجاز وقلب الجزيرة ، أهمها وأوثقها كتابان : الأول لمؤرخ مصر اليومي الشيخ عبد الرحمن الجبرتي[١] والثاني لمؤرخ نجد الشيخ عثمان بن عبد الله بن بشر الحنبلي التميمي[٢] وهما ممن عاصر تلك الوقائع ، وعرف رجالها وتتبع أخبارها . وجاء بعدهما ، في مصر ، آخرون كإسماعيل سرهنك[٣] وميخائيل شاروبيم[٤]

(١) عجائب الآثار طبعة سنة ١٢٩٧هـ ، بمصر

(٢) عنوان المجد ، طبع سنة ١٣٤٩هـ بمصر

(٣) صاحب « حقائق الأخبار » المطبوع بمصر سنة ١٣١٤ – ١٣٤١هـ .

(٤) مؤلف « الكافي في تاريخ مصر » المطبوع بمصر سنة ١٣١٥ ولا تزال بقيته مخطوطة .

واللواء محمد مختار[١] ، فكان مرجعهم الجبرتي على الأكثر . وأضافوا إلى كتابه ما وصل إليه تتبعهم وهو قليل . كما صنع كتّاب في نجد منهم إبراهيم ابن صالح بن عيسى[٢] فما زادوا على ما أورده ابن بشر عن تلك الحقبة إلاّ اليسير .

ولم يكن الجبرتي وابن بشر أكثر من « مدوّنين » للحوادث ، مما شهداه أو بلغ سمعيهما . ومثلهما جل من تلاهما .

على أن هناك ممن عاصر الجبرتي وابن بشر آخرين كانوا أشبه بالمعلّقين منهم بالمؤرخين ، كأحمد بن زيني دحلان في مكة وقد عاش معظم القرن الثالث عشر الهجري ، وصاحب « تاريخ الوهابية **Histoire des wahhabis** » من بدء ظهورهم إلى سنة ١٨٠٩ م (١٢٢٤ هـ) وسنشير إلى بعض ما كتب الأول . أما الثاني فلم يدرك حملة محمد علي ، على الحجاز ونجد . ومثله المؤرخ المحدّث ابن غنّام[٣] النجدي الأحسائي المتوفى سنة ١٢٢٥ (١٨١٠م) فانه وقف في تدوين الحوادث عند هزيمة الشريف غالب في « الخرمة » سنة ١٢١٧ (١٨٠٢م)

، ، ،

وكان لما تقوم به الامبراطورية العثمانية من الدعاية ، أثر كبير في توجيه التفكير العامّ نشأ عنه غموض في مرامي الحوادث كحملة محمد علي في الحجاز ونجد . فالجبرتي يقول — مثلاً — : « توجه عرضي الباشا محمد علي الكبير إلى المدينة المنورة » وتسبقه الدعاية العثمانية فتهوّل في خطر « الوهابية » على الإسلام ، وتجعلها مذهباً خامساً . ونتساءل لـِمَ توجه عرضي الباشا ؟ وما هي الصفة التي توجه بها ؟ ولأيّ غرض كان يرمي ، أو يراد منه أن يرمي

---

(١) مؤلف « التوفيقات الالهامية » المطبوع بمصر سنة ١٣١١هـ

(٢) صاحب « تاريخ بعض الحوادث» المطبوع سنة ١٣٨٦هـ من منشورات دار اليمامة بالرياض

(٣) في كتابه « روضة الأفكار والأفهام » المطبوع في الرياض سنة ١٣٦٨هـ

إليه ؟ فنرى أن علينا أولاً : أن ننظر فيما كان عليه وضع مصر السياسي في الشطر الأول الأطول من عهد محمد علي . هل كانت حكومته ، وهو والي الدولة العثمانية بمصر ، حكومة مصر ؟ وهل كان جيشه في ذلك العهد جيش مصر ؟ وهل كانت سياسته قبل استقلاله بالأمر ، سياسة مصر ؟

برز اسم محمد علي ، عام وصوله إلى مصر من « قـوَلة » مع كتيبة أرسلت لتكون من « وحدات » الجيش العثماني في دفع غزوة نابليون سنة ١٢١٥هـ (١٨٠١م) وبلغ رتبة « بكباشي » ثم « سرجشمه » وعُدَّ من مقدّمي ذلك الجيش .

وتعاقب في أيامه بضعة ولاة ، سعى آخرهم أحمد خورشيد باشا لإبعاد محمد علي عن مصر ، فورد فرمان سلطاني (في ١٢ صفر ١٢٢٠ / ١٢ مايو ١٨٠٥) بتعيين محمد علي والياً على جدّة .

وكان أهل مصر في شبه ثورة على أحمد خورشيد . واجتمع أعيانهم (في ١٣ صفر ١٢٢٠) أي في اليوم التالي لورود الفرمان ، فكتبوا عرائض رفعوها إلى الباب العالي بشكاواهم من خورشيد ورغبتهم بولاية محمد علي مكانه .

وطلبوا من محمد علي أن يدير أمورهم من ساعتهم تلك . ولكنه خشي أن تتهمه الأستانة بالمشاركة في الثورة ، فامتنع . فألحوا عليه . وحصروا الوالي خورشيد في القلعة إلى أن حضر رسول من الأستانة في ١١ ربيع الآخر ١٢٢٠ (٩ يوليه ١٨٠٥) يحمل فرماناً موجها إلى محمد علي باشا (وإلى جدة) بتقليده ولاية مصر « حيث رضي بذلك العلماء والرعايا » وأن خورشيد باشا معزول عنها .

ويقول مؤرخو محمد علي بعد ذكر مذبحة القلعة التي قضى فيها على المماليك (سنة ١٢٢٦هـ ١٨١١م) إنه أقدم على ذلك « تنفيذاً لأوامر الباب العالي السرية »

ويعلـّقون على ما كتبه إليه الباب العالي في أواخر سنة ١٢٢٢ (١٧٠٧م) ثم في السنتين التاليتين ، من وجوب الزحف لقتال « الوهابية » بأنه تردد كثيراً في القيام بهذه المهمة ، وتعلل بتمرد المماليك في مصر وانشغاله بالإصلاح الداخلي ، ولم ينفعه ذلك .

ويقول ابن زيني دحلان[1] وكان من الضالعين مع الترك : وفي سنة ١٢٢٢ صدر الأمر من السلطان سليم ، لمحمد علي ، بتجهيز العساكر لقتال « الوهابي » ولم يتيسر له إرسال الجيوش إلاّ في أوائل سنة ١٢٢٦ أي بعد أربع سنوات .

ويقول ابن بشر ، في حوادث سنة ١٢٢٦ (١٨١١م) : وفي هذه السنة أجمع أمراء الترك على المسير إلى الحجاز وأعدوا جميع آلات الحرب... فاجتمعت العساكر من اصطنبول ونواحيها وما دونها إلى الشام ومصر ، والرئيس المقدّم بهذا الأمر من جهة الترك صاحب مصر محمد علي . إلى أن يقول : فكانت العساكر التي انتقلت من مصر ، من الترك وأهل المغرب نحو ١٤ ألف مقاتل أو يزيدون »

وينقل أمين الريحاني[2] أن محمد علي لبىّ طلب الباب العالي سنة ١٢٢٦ (١٨١١م) فأرسل ابنه طوسون وهو في السابعة عشرة من عمره ، يقود ثمانية آلاف من الجنود إلى ينبع « ومعهم ضباط أوربيون وعدد من المجازفين المسترزقين الذين كانوا في عسكر بونابرت »

، ، ،

ونتجاوز زمن حملته على نجد فنقرأ ما في « تاريخ الدولة العثمانية » لمحمد فريد بك[3] عند ذكر الفرمان السطاني لمحمد علي ، بدعوته إلى المشاركة في حرب المورة ، سنة ١٢٣٨ (١٨٢٣م) اذ يقول محمد فريد :

---

(١) خلاصة الكلام ٢٥٩

(٢) تاريخ نجد الحديث ٥٩ ، ٦٠

(٣) الصفحة ٢٠٨

فلم يسع محمد علي باشا إلاّ الإذعان لأوامر متبوعه الأعلى ، خوفاً من حمل امتناعه على العصيان .

وما يقوله عبد الرحمن الرافعي[1] : لم يكن له بد من تلبية الدعوة ، فقد كان لم يزل والياً عينه السلطان ، وللسلطان رسمياً أن يعزله »

ويقول مترجم كتاب « بريطانيا والدولة العربية[2] : حكم محمد علي مصر ، باعتباره والياً تركياً لا أكثر ولا أقل »

ونجد في تقييدات اللواء محمد مختار باشا[3] صدور « الفرمان » الشاهاني بتعيين محمد علي باشا « والياً » على كريد والمورة سنة ١٢٣٩ (١٨٢٤م)

وكل ما تقدم يدل على أن محمد علي باشا ، كان « والياً » إلى سنة١٢٣٩ (١٨٢٤) يسير في فلك السياسة العثمانية ، ويخدم أغراضها وينفّذها ، لا يقدم فيها ولا يؤخر . ولمصر يومئذ كل العذر إذا لم يكن لتفكيرها وسياستها وأهدافها في علاقاتها بالخارج العربي أيّ أثر أو مظهر وجود .

، ، ،

ولعل أول بادرة من بوادر استقلال محمد علي بمصر ، أو استقلال مصر عن الحكم العثماني ، كانت يوم امتنع عن مساعدة الترك في حربهم مع الروس سنة ١٢٤٤ (١٨٢٨م) ثم إعراضه عن المبالاة برسائل الباب العالي في أثناء توغل إبراهيم في بلاد الشام (سنة ١٢٤٨هـ ١٨٣٢م) وحربه مع العثمانيين بعد صدور فرمان السلطان محمود ، بعزله عن ولاية مصر وتولية حسين باشا سر عسكر الدولة مكانه[4] مما أدى إلى توقيع السلطان محمود على

---

(١) تاريخ الحركة القومية ٣ : ٢٠٢

(٢) الصفحة ١٥ الهامش

(٣) التوفيقات الإلهامية ٦٢٠

(٤) نص الفرمان في « الكافي » لشاروبيهم ٤ : ١

معاهدة كوتاهية (١٢٤٨ هـ ١٨٣٣م) ومن مقتضاها أن يدفع محمد علي خراجاً سنوياً للباب العالي[١]

فاستقلاله بمصر ، وتمتع مصر بالاستقلال مع دفع الخراج سنوياً للباب العالي ، يبدأ من سنة ١٢٤٨ (١٨٣٣م) أي بعد اثنين وعشرين عاماً من مهاجمته نجداً والحجاز .

وليس في كونه قبل ذلك « والياً » من ولاة العثمانيين أو « تابعاً » لسلطانهم ، ما يغض من مكانته في ذلك الحين ، أو مكانة مصر ، وإنما هو التاريخ ليس لنا أن نبدل في حوادثه أو نغير .

، ، ،

على أن حملة محمد علي ، على الحجاز لقتال أهل نجد،لم تكن هي الأولى . فقد سبقتها حملة تركية (عثمانية) زحفت قبلها بست سنوات هي حملة « عثمان باشا » والي حلب[٢] : خرج بجيش من الأستانة سنة ١٢٢٠هـ (١٨٠٥م) ومرّ بدمشق ، فضم من بها من العسكر الشاهاني إلى جيشه ، وزحف إلى جدة (سنة ١٨٠٦م) وصدر في الوقت نفسه تقريباً ، أمر من الباب العالي إلى والي بغداد « علي باشا » للزحف من جهته على نجد .

وليس استقصاء الحديث عن هذه الحملات من جوهر موضوعنا . وإنما المهم أن نعلم أن الجيش الذي قذف به محمد علي إلى الحجاز ونجد كان عثمانياً لا « مصرياً »

يقول سرهنك باشا[٣] وهو من كبار الضباط المصريين، يتحدث عن التأهب للحرب مع « الوهابية » :

---

(١) التوفيقات الإلهامية ٦٢٤

(٢) Histoire des wahhabis p. 95 – تاريخ الوهابيين المطبوع في باريس سنة ١٢٢٥هـ / ١٨١٠م

(٣) حقائق الأخبار ٢ : ٢٢٦

« كان بمصر وقتئذ جيش يبلغ ٢٥ ألف مقاتل ، جميعهم من الباشبوزوق الذين كانت الدولة – العثمانية – جمعتهم تحت قيادة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا ، لما أرسلته لإخراج الفرنسويين من مصر ، فتمكن محمد علي باشا من أن ينتخب من هذا الجيش قوة للمدافعة عن مصر تبلغ ٨٤٧٢ جندياً من المشاة و١٧٠٧ من الطوبجية للقلاع والحصون ، وجعل منه أيضاً قوة متحركة عددها ١٨٣٣٣ مقاتلاً انتخب منها ستة آلاف من المشاة وألفين من الطوبجية ومثلهم من السواري (الخيالة) للحملة الحجازية .. »

ويقول الرافعي بك أشهر مؤرخي مصر المتأخرين : كانت الحملة الوهابية فرصة انتهزها محمد علي ليقذف بطوائف الأرنأود المتمردة ، وقد اشتد طغيانها بمصر ، إلى الأصقاع النائية من جزيرة العرب . »

، ، ،

وعلاوة على أن الجيش لم يكن مضرياً وإن صحبه بعض الكتبة والحسّاب من المصريين ، فإنه كذلك لم يكن وحده الذي ألقي على عاتقه القيام بذلك العبء ، ولم يكن محمد علي باشا المكلف وحده أن يقوم بتلك المهمة . فالجبرتي – في حوادث المحرم ١٢٢٤هـ / ١٨٠٩م – يذكر ورود « مرسوم » سلطاني من الأستانة ، يشتمل على توجيه ثلاث حملات معاً ، لمحاربة من كانوا يسمونهم « الوهابيين » على الترتيب الآتي :

١ – جيش محمد علي باشا والي مصر (وقد عرفنا ممن يتألف هذا الجيش) : يزحف على الحرمين (عن طريق ينبع – المدينة)

٢ – جيش يوسف باشا ، الصدر الأعظم السابق ، المعروف بالمعدن : يزحف من الأستانة إلى المدينة عن طريق الشام .

٣ – جيش سليمان باشا[1] وإلى بغداد : يزحف من العراق إلى نجد ، فيهاجم الدرعية (مقر إمارة آل سعود في ذلك الحين)

(١) خلَف علي باشا السابق ذكره .

ويشير صدّيق حسن خان (في التاج المكلل ٣٠٦) إلى حملة يوسف باشا الآنف ذكرها ، ويقول : « إنه أجهد نفسه بمحاربة الوهابيين ولم ينجح »

ويقول الجبرتي في رمضان ١٢٢٧ (١٨١٢م) : وردت — إلى مصر — هجانة تبشر باستيلاء « الأتراك » — كذا — على عقبة الصفراء » . وكانت حملة الصفراء بقيادة طوسون باشا ابن محمد علي .

ويقول ابن بشر[١] في حوادث ١٢٣١ (١٨١٥م) :

« ثم إن محمد علي وعساكر الترك زحفوا إلى جهة الطالحة فقاتله حوّان . وصار على الروم هزيمة ثم تراجع الترك وثبتوا ووقع في قوم حوّان خيانة فانهزموا . وسارت عساكر الترك إلى قصور طامي الخ »

ويقول بعد ذلك[٢] : ودخلت السنة١٢٣٣ (أواخر ١٨١٧) وإبراهيم باشا وعساكر الترك في عنيزة . وتكررت تسمية عساكر محمد علي باشا بالترك والروم كثيراً[٣] بعد ورود تعريفهم بالمصريين، لقدومهم من مصر ، في مواضع قليلة .

ويكرر ابن عيسى[٤] ذكر الترك فيقول : « وأقام عبد الله بن سعود يصابر عساكر الترك » ويقول : « إن الصلح وقع بين أحمد طوسون وعبد الله ابن سعود على وضع الحرب وأنّ عساكر الترك يرفعون أيديهم عن نجد » ويقول : « سار بهم إلى الدرعية بسبب استدعائهم للترك » الخ ...

على أن الرافعي يقول[٥] : « وكان يصحب الحملة طائفة من الصناع من كل حرفة وأربعة من العلماء من أئمة المذاهب الأربعة »

---

(١) عنوان المجد ١ : ١٨١

(٢) عنوان المجد ١ : ١٨٩

(٣) انظر عنوان المجد ١ : ١٧٩ إلى ٢١٥

(٤) في تاريخ بعض الحوادث ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥١ ، ١٨٣ ، ١٨٦

(٥) تاريخ الحركة القومية ٣ : ١٢٤

وكانت الحملة الثانية التي أرسلها محمد لاظ أوغلى من مصر سنة ١٢٢٩ (١٨١٤م) نجدة لمحمد علي باشا ، خليطاً من مصريين وغيرهم . وعددها سبعة آلاف . قال الرافعي[١] : واستطاع أن يجند السبعة آلاف بطريقة التطوع للخدمة العسكرية ، وقد تأخذك الدهشة إذ تسمع عبارة التطوع لأن المفهوم أن مثل هذه الحملات البعيدة كان يُحشد لها الناس بالقوة (هذا كلام الرافعي)

ويقول ابن بشر[٢] وقد عرفنا أنه عاصر تلك الحوادث : في هذه السنة (١٢٣١ هـ / ١٨١٦ م) جهز محمد علي العساكر الكثيفة للحملة الثانية ، من مصر والترك والمغرب والشام والعراق ، إلى نجد مع إبراهيم باشا الخ »

وكان يصحب أبناء محمد علي أحياناً ، أو على الأكثر ، مستشارون من الأجانب . عرفنا منهم ضابطاً من الجيش البريطاني يدعى الكابتن « جورج فورستر سادلير » أرسل من بمباي على بارجة حربية سنة ١٢٣٥ (١٨١٩م) فكان مستشاراً خاصاً لابراهيم باشا أيام احتلاله الدرعية وهدمها .

وضابطاً اسكوتلاندياً قبله يدعى «طوماس كيث» من فرقة « الهايلندرز » الثانية والسبعين التحق بحملة طوسون باشا ، وقام بعض الوقت سنة ١٢٣٠ (١٨١٥م)بتولي زمام الأمور في المدينة المنورة .. ومهندساً فرنسياً اسمه «فايسيير» اصطحبه ابراهيم من مصر مع أربعة أطباء إيطاليين ، هم : سكوتو وجنتيلي ، وتود ستيني ، وسوشيو . وكان في جيش ابراهيم أوروبيون آخرون من المهندسين وصناع النيران الاصطناعية والأطباء والصيادلة[٣]

---

(١) الحركة القومية ٣ : ١٣٣

(٢) عنوان المجد ١ : ١٨٥

(٣) انظر « تاريخ العرب المطول » للدكاترة فيليب حتي ، وادوارد جرجي ، وجبرائيل جبور ١ : ٥ وكتاب « اكتشاف جزيرة العرب » لجاكلين بيرن ، ترجمة قدرى قلعجي ٢٣١ ، ٢٣٢ ٣٤٣ وفيه ذكر بريطاني آخر يدعى « اتكنيز » كان مسؤولا عن المدفعية سنة ١٨٣٤ وهي توافق ١٢٥٠هـ ، ولا نعلم بحركة عسكرية لجيش محمد علي في نجد بين سنتي ١٢٣٥ و ١٢٥٢ ؟

ويقول صاحب مطالع السعود[١] : « إن داود باشا والي العراق شارك في الهجوم على نجد ، فأرسل سنة ١٢٣٣ (١٨١٨م) قوة بقيادة محمد وماجد ابني عرعر الخالدي الحميدي استولت على الأحساء والقطيف بعد معارك مع حامية آل سعود . ذلك في الوقت الذي كان فيه ابراهيم باشا يغير على العارض وقبل استيلائه على الدرعية .

ويقول الشوكاني[٢] المؤرخ اليماني ،في ترجمة السلطان العثماني محمود ابن عبد الحميد : « وهو الذي أمر الباشا بمصر ، أن يجهز الجيوش على صاحب نجد ، وكان الأمير على الجنود الرومية ابن الباشا ، ابراهيم بن محمد علي » فسمى من قاتل بهم بالجنود الرومية أي الترك العثمانيين .

ويجيء في أعقاب هؤلاء المستشرق عبد الله فلبي ، فيتحدث عن حملة محمد علي الأولى سنة ١٢٢٦ (١٨١١م) فيقول[٣] : وقـُدرت خسائر الأتراك بأربعة آلاف قتيل » ويقول عن جيش ابراهيم باشا في نجد : إن حملة ابراهيم باشا كلفت الأتراك اثنى عشر ألف قتيل ، منهم عشرة آلاف سقطوا في معارك الدرعية .

، ، ،

لهذا ، نستبعد أن تكون مصر « هي »التي قاتلت في جزيرة العرب ،ونرى أن الجيش الذي أُمر محمد علي بحشده فيها من الباشبوزوق والأرنأووط وغيرهم لم يكن وحده المنتدَب لخوض تلك المعارك . وابراهيم باشا يقول : لست سوى أداة في يدي والدي ، وما والدي إلا أداة في يد السلطان باستنبول[٤]

وينقل سرهنك[٥] ما خلاصته أن محمد علي باشا بينما كان بمكة (١٢٣٠هـ

(١) مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود ، ص ٥٠
(٢) في البدر الطالع ٢ : ٢٩٦
(٣) تاريخ نجد لفلبي ، ترجمة عمر الديراوي ١٣٣ ، ١٦٠
(٤) اكتشاف جزيرة العرب ٢٤٦
(٥) حقائق الأخبار ٢ : ٢٢٧

١٨١٥م) يستعد لفتح ما بقي في يد الوهابية ، علم أن الدولة قد عزلته من ولاية مصر ، وأن السلطان أنعم على مفسد — كذا — اسمه لطيف بك برتبة الباشوية ، وأرسله إلى مصر ، وفي يده خط سلطاني بتقليده الولاية المصرية ، وأن الدولة أرسلت إلى ثغر الإسكندرية أسطولاً كعادتها ليؤيد الوالي الجديد إن احتاج لذلك ، فلم يكن من محمد علي إلاّ أن أسرع بالعودة إلى مصر وأمر نجله طوسون باشا بأن يتفق على شروط مع الأمير عبد الله بن سعود ، ويعود .

وهذا لا يدع مجالاً للشك في أن محمد علي باشا كان معرّضاً للعزل والنقل في تلك السنين من حياته السياسية ، ولم تكن له سياسة في الخارج — على الأقل — غير تنفيذ ما يتلقاه من الدولة التي كان يعمل لها وباسمها وبرجالها .

ويضاف إلى ذلك أنه كان من المعقول جداً ، من وجهة النظر التركية العثمانية ، أن تثور نقمة الأستانة دار الخلافة الاسلامية يومئذ ، وأن يثور سلطانها الملقب بالخليفة ، فتساق جيوشها من كل مكان للقضاء على دولة « عربية » ناشئة يبايَع أميرها « على دين الله وسنة رسوله والسمع والطاعة » ويُنادى بإمام المسلمين ، ويمتد سلطانه من أطراف عُمان ونجران واليمن إلى شواطىء الفرات وبادية الشام ، ومن الخليج العربي (خليج فارس) إلى البحر الأحمر . ويحق للسلطان العثماني أن يكافىء واليه بمصر أعظم مكافأة على استبساله ومن معه من الجند العثماني — الباشبوزوق من أرنأود وأتراك وسواهم — ثم المحشودين بالقوة من أهل مصر وغيرها ؛ فقد خلع على ابراهيم باشا ، في النهاية خلعة شرف كما يقول زيدان[1] وسماه والياً على مكة . ثم قال زيدان : ونال محمد علي باشا من إنعام أمير المؤمنين لقب خان مكافأة لإخلاصه وبسالته وهو لقب لم يُمنحه أحد من وزراء الدولة إلاّ حاكم القرم .

---

(١) في تاريخ مصر الحديث ٢ : ٢٣٥

فاذا عرفنا أن الجيش في تلك السنين أو تلك الحملات على الخصوص ، لم يكن جيش مصر ، وأن حكومة محمد علي باشا وسياسته لم تكن آنئذ حكومة مصر أو سياستها ، وزدنا على ذلك قول الجبرتي — في حوادث سنة ١٢٢٧ (١٨١٢م) من مشاهداته في القاهرة : وفي هذا الشهر جمادى الثانية وما قبله وردت عساكر كثيرة من الأتراك ، وعينوا للسفر ، وخرجوا إلى مخيم العرضي خارج بابي النصر والفتوح فكانوا يخرجون مساءً ويدخلون في الصباح ، ويقع منهم ما يقع من أخذ الدواب وخطف بعض النساء والأولاد كعادتهم .. علمنا أن مصر كانت في عهد حملة نجد لا صلة لها بالحملة ، وقد ابتليت بعساكر لا تقل عن الجيوش المحتلة أذى وفظائع ، فلا يمكن أن تكون تلك العساكر هي جيشها المرضي عنه .

، ، ،

حاربت الدولة العثمانية ، آل سعود ، في قلب الجزيرة وأطرافها بجيوش « عثمانية » كان فيها التركي والأرنأودي والكردي والشركسي والعربي ، من مصري وسوري وعراقي ومغربي ؛ وهدمت حربها معهم مدناً لهم ومعاقل ، وسيق منهم أسرى ومستسلمون ضربت أعناقهم في القسطنطنية عاصمة آل عثمان . واشتد بعد حقبة من الزمن ، ساعد عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل من آل سعود ، فكان على يديه خروج الترك العثمانيين من آخر معقل لهم في القصيم (بنجد) عام ١٣٢٤ (١٩٠٦م) ثم من الأحساء والقطيف عام ١٣٣١ (١٩١٣ م)

، ، ،

بهاتيك القوى والعناصر حارب آل عثمان آل سعود ، وقاتلت « الدولة » أهل نجد . أما أن يقال إن مصر هي التي قاتلت شقيقتها نجداً ، لأن واليها تلقى أمر « الباب العالي » بالقتال ، أو إن بغداد هي التي زحفت لأن واليها أمر بالزحف ، فلا ...

، ، ،

أطلنا في سرد الحوادث،وإيراد الأمثلة ، لنبرهن على أن مصر لم تحارب آل سعود ، ثم لنقول ما نعتقده من أن مصر لو كانت تحكم نفسها في ذلك العهد كما حكمت نفسها فيما بعد ، لما ترددت حكومتها في أن تمدّ يد الإخاء والولاء إلى جارتها العربية مثلها ، الناهضة نهضتها المنفصلة عن سلطة آل عثمان انفصالها ، المستقلة استقلالها .



من كلام عبد العزيز

المملكة

أسست هذه المملكة من دون معين .. وكان الله القدير وحده معيني وسندي . وهو الذي أنجح أعمالي .

(في مؤتمر الرياض ١٣٤٧ هـ)

الجامعة العربية :

مستقبل الجامعة العربية مرهون بمشيئة الشعوب ، لأن الرؤساء والأمراء ينفعون الجامعة بتأييدهم إياها . ولكنهم لا يثابرون على تأييدهم إلاّ إذا عرفت الشعوب مزاياها واتفقت على الرغبة فيها وحالت بهذه الرغبة القوية النيرة دون تنافس الرؤساء وتنازع الأمراء .

(نقلها عنه العقاد ١٣٦٥ هـ)

ملك أو جندي

لست ملكاً بمشيئة أجنبية ، بل أنا ملك بمشيئة الله ثم بمشيئة العرب الذين اختاروني وبايعوني ، على أنها ألقاب وأسماء فما أنا إلاّ عبد العزيز قال العرب انني ملك ، فرضيت قولهم وشكرت ثقتهم . وفي اليوم الذي لا يريدونني زعيماً لهم أعود إلى الصفّ وأحارب معهم بسيفي ، كأصغر واحد فيهم دون أن ينال نفسي شيء من الغضاضة .

(نقلها عنها محمود عزمي ١٣٥٤ هـ)

تباشير الادب في عهد عبد العزيز

ينتعش الأدب بانتعاش الأمة ؛ ويكثُر الإقبال عليه ، في أزمنة استقِرارها ويزدهر في أيام رخائها .

وكان ما مرّ بالديار الحجازية والنجدية ، من خُمود الشعلة الفكرية في الأولى؛ والاضطراب المستحكم في الثانية؛ قبيل زوال الحكم العثماني ، كافياً لخنق روح الأدب فيهما لولا وَمَضَات منه كانت تشع بين آن وآخر في كلا طرفي الجزيرة . وبينما الحياة الجديدة تدب في نجد ، أيام ابتدأ عبد العزيز يتوجه إلى التنظيم ، ويمهد للاستقرار ، كانت بوادر من يقظة « الأدب » تبدو في الحجاز بعد القيام على الترك . وأخذ العالم يسمع أصواتاً « خافتة » من القطرين ، ليست هي الأدب المعهود فيهما ، ولكنها من تباشير الأدب المأمـول .

واتحد البلدان على يد عبد العزيز ، فارتفعت طبقة تلك الأصوات قليلاً . وكانت ما تزال إلى سنة ١٣٦٩ (١٩٥٠ م) في دور الانتقال من الانتعاش إلى بدء الازدهار .

أدب الحجاز

سارع أدباء الحجاز إلى تدوين ما أثمرته نهضتهم الناشئة ، فكان محمد سرور الصبان أول من فتح هذا الباب فيهم . فجمع كتيّباً مفيداً في ٨٨ صفحة ، سماه « أدب الحجاز » وحلاّه بمختارات من نظم عبد الوهاب

آشي ، ومحمد حسن عواد ، ومحمد عمر عرب ، ومحمد سعيد العامودي ، وآخرين . وختمه بترجمة لنفسه أورد بها نماذج من نظمه ونثره .

وصدر بعده كتاب « وحي الصحراء » تاليف محمد سعيد عبد المقصود وعبد الله عمر بلْخير ، في ٤٠٨ صفحات . اشتمل على تراجم ومختارات نظماً ونثراً ، لاثنين وعشرين من الأدباء وشُداة الأدب ؛ تقدم ذكر بعضهم في كتاب الصبان . منهم : أحمد ابراهيم الغزاوي (شاعر الملك) وأحمد السباعي ، وأحمد العربي ، وأمين بن عقيل ، وأحمد قنديل ، وحسين خزندار ، وحسين سِراج ، وعبد القدوس الأنصاري (صاحب مجلة المنهل) وعبد الحق النقشبندي ، وعلي حافظ الصيرفي ، وعزيز ضياء الدين ، وعبد السلام عمر ، وعبد الحميد عنبر ، وشاعر المدينة عُبيد المدني ، وأخوه أمين المدني ، ومحمد حسن فَقِي ، ومحمد حسن كتبي .

وكان من هذه الطبقة الأديب الصحفي « الطيّب الساسي » ولم يكن له شعر يروى .

وظهرت طبقة من الكتاب ، عُرفت بآثارها ، كأحمد عبد الغفور العطار ، صاحب « صقر الجزيرة » وعبد الله عُرَيْف ، رئيس تحرير « البلاد السعودية » أرقى صحيفة صدرت يومئذ في الحجاز ، وحسين محمد نصيف مصنف « ماضي الحجاز وحاضره » وأحمد علي أسد الله ، صاحب كتاب « آل سعود » ، وبدأ نبوغ الشاعر طاهر الزمخشري ، والشعراء والكتّاب : ضياء الدين رجب ، وحسن عبد الله القرشي ، وعبد السلام هاشم حافظ ، وعثمان حافظ ، ومحمد السنوسي ، و أحمد عبد الجبار ، ومحمد عمر توفيق ، وحسين عرب ، والشاعر « المحروم » وأحمد عبيد ، مُصْدر أول مجلة مصورة في المملكة ، ومحمد هاشم رشيد ، وعلي فَدْعَق ، وإبراهيم العلاّف ، وعبد الغني قستي ، وعبد الله عبد الجبار ، ومحمد هاشم رشيد المدني ، ومحمود عارف ، وسعيد عوَض باوزير ، ومحمد عمر رَفِيع

ومحمد طاهر الكردي (مؤلف كتاب الخط العربي) وعبد السلام الساسي وعبد العزيز الرفاعي ، ومدني بن حِمْد . وفيهم من عُرف بعد أيام عبد العزيز .

أدب نجـد

وجاء أدب « نجد » مختلفاً عن نظيره في الحجاز . شأنه في ذلك كشأنه أيام « السموّ » في الأعصر الأولى . وروحه في الزمنين ، أقرب إلى روح الصحراء : قوةٌ تخالطها قَسْوة ، وبهجة تمازجها جفوة . ينظر الشاعر ؛ فلا يرى من حوله على الأكثر إلاّ التلاع والقفار . ويستوحي شعوره ، فيأتيه بفطرة الأجيال المتعاقبة ، من دفاع عن النفس ، وحبّ للغلبة ، وحماسة وفخر . أضف إلى هذا روح التديّن في « نهضة » نجد الحديثة ، وقد ظهر أثرها جلياً فيما تحت نظرنا من أقوال شعراء العارض والقصيم وجيرانهم .

على أن الأدب في نجد لم يكن ، في أيام عبد العزيز ، موضع العناية أو الانصراف إليه . فأهل « الهِجَر » وأمهات المدن مقبلون على الكتاب والسنة يتدارسونهما وأهل البادية يتلقفون مبادىء الدين من « مطاوعتهم » ليبتعدوا عما كان عليه آباؤهم الأقربون ، وتأليف الكتب في تلك الديار ، وقفٌ على تحقيق مسائل في العبادات والمعاملات للتيسير على القضاة ، ولردّ الناس إلى خالص « التوحيد » .

ومع هذا ففي شعر من ظل يقول الشعر في نجد ، جزالة وفحولة قلّ أن يكون مثلهما في شعر الحجاز . وفي الثاني من الرقة ما قلّ أن يكون في الأول . وقد نجد في شعراء نجد — وحديثنا عن المعاصرين في هذه الحقبة من أيام عبد العزيز خاصة — من يأتي بالرقيق تكلفاً . ومثله من يأتي بمعاني البداوة في مكة أو المدينة .

ترددت أسماء بضعة شعراء من قالة القريض ، وبعضهم يجيد معه الملحون ؛

ونُظّام هذا كثيرون لا يدخلون في بحثي هنا . فممن عرفوا بالإكثار من النظم في أوليتهم سليمان بن سحمان ، أصله من بلدة السقي من بلاد أبها ، من عسير . وكانت له شهرة أيام عبد العزيز الأولى . وله « ديوان » سمعت أنه طبع في الهند وفي الرياض ، ولم أره . ومحمد بن عبد الله بن عثيمين ، من حوطة بني تميم . ومحمد بن عبد الله بن بليهد . مصنّف « صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار » : وممن اشتهر في تلك الحقبة بنجد ، تميم بن عبد الرحمن من آل فهيد. وعبد الكريم بن عبد العزيز بن جهيمان من القرائن.

ولمع اسم عالم بالأدب ، لا أعرف إن كان له شعر ، وقد كتب فأجاد وأفاد ، هو « حمد الجاسر » تعلم في الحجاز ومصر . والسرحان الشاعر « حسين بن علي بن سرحان » من قبيلة الروسان ، من عتيبة نجد . نشأ وتعلم وأقام بمكة .

وأعجبت بمنظومة لخالد الفرج النجدي الدوسري ، في سيرة عبد العزيز ، سمّاها « أحسن القصص » وحلاّها بذكر الحوادث منثورة إلى جانب النظم ، وطبعت بمصر .

وبدأنا نقرأ ، في أعوام عبد العزيز الأخيرة ، فصولاً لعبد الله بن محمد ابن خميس ، من مواليد وادي حنيفة ، وطلائع من شعر سعد البواردي ، وعبد الله بن إدريس النجدي السديري .

ولبعض العلماء بالدين من أهل كلا القطرين ــ الحجاز ونجد ــ اشتغال في الأدب وفيهم من علا كعبه فيه ، عن طريق التوسع في اللغة وعلوم البيان ، يَحْسُن استقصاء آثارهم وتتبع أخبارهم في كتاب يُفرد لهم .

وظهر بعد كتابة هذا الفصل ، شعراء وكتّاب ، في مختلف أقاليم المملكة ، جديرون بالتنويه بهم . غير أن الكتاب وُضع لأيام عبد العزيز ، فوقفت عندها .

وأمامي كتابان : أحدهما في أدب الجناح الشرقي من شبه الجزيرة ، هو « شعراء هَجَر » والثاني « شعراء الجنوب » والأول مما جمعه محمد بن عبد الله بن مبارك الأحسائي ، ونسّقه وزاد فيه وقام بطبعه عبد الفتاح بن محمد الحلو . وفيه التنويه بطائفة من شعراء الأحساء في أيام عبد العزيز كأحمد بن محمد من آل ماجد ، وعبد اللطيف بن إبراهيم من آل مبارك ، وابنه عبد العزيز ، وعبد الله بن علي من آل عبد القادر ، وعبد العزيز بن صالح العلجي ، وعبد الله بن عبد اللطيف من آل عُمير . والكتاب الثاني : « شعراء الجنوب » اشتمل على قصائد ومقطعات ، لشعراء من بلدة جيزان ونواحيها هم : علي ابن محمد السنوسي ، ومحمد بن علي السنوسي ، ومحمد بن أحمد بن عيسى العقيلي (صاحب التآليف في تاريخ بلاده) وأحمد بن عبد الفتاح الحازمي .

وفي أدب الأحساء ، بلاد النفط والحياة الجديدة ، أسلوب يغلب فيه الرصف . أما الجنوب ففيه من الطبع ما يجاري أدب الفطرة ، ومن التطبع ما يظهر عليه أثر التقليد .

من شعرهم

قال أحمد بن إبراهيم الغزاوي :

عليّ لعزة الأسلاف دَيْن ... ولي بسلافها الصافي وَلوعُ
أكاد أضيءُ حين يجيش صدري ... بذكراها وتحتجب الشموعُ

، ، ،

وقال محمد بن عبد الله بن عثيمين :

ولما أبوا إلاّ الشقاق رميتهم ... بأرعنَ جوّاسٍ خلالَ المحارم
فأضحوا وهم ما بين ثاوٍ مجدّل ... وآخر مصفود بسُمر الأداهمِ

بلاد عبد العزيز وأميركا

كانت زيارة المستر تشارلس كراين ، من أهل نيويورك ، للملك عبد العزيز سنة ١٣٤٩ (١٩٣١ م) الحلقة الأولى من حلَق الاتصال بين بلاد كراين وبلاد عبد العزيز . وسيأتي ذكرها قريباً .

، ، ،

وغلب شميمُ « البترول » بنجد ، على شميم عراره ، فتنادى أبناء « العمّ سام » مسرعين إلى ينابيعه يفجّرونها .

وأدركت حكومة الولايات المتحدة الأميركية تكاثر مصالحها في هذا الجزء من بلاد العالم العربي . ولا بد لتلك المصالح من ركائز « دبلوماسية » فكان إنشاء العلاقات السياسية .

وقامت تلك العلاقات على أساس « اتفاقية موقتة » عقدت في لندن ١٠ رجب ١٣٥٢ (٧ نوفمبر ١٩٣٣) بين الوزير المفوض السعودي في العاصمة البريطانية ، والسفير الأميركي فيها .

وتلتها في حياة عبد العزيز اتفاقيات المطار العسكري في الظهران ، وتنظيم استعمال الطائرات العسكرية الأميركية فيه ، واتفاقية مطار الظهران في ١٣/ ٩/١٣٧٠هـ (١٩٥١/٦/١٨م)

النفـــط

في الثامن من ربيع الأول ١٣٥٨ (١٨ إبريل ١٩٣٩) وصل الملك عبد العزيز بموكبه ، بالسيارات ، من مخيّمه في « رماح » إلى « الظهران » وأمضى يومين في استعراض منشآت النفط ، بين الظهران وميناء رأس تنورة ؛ ملازماً في سيره خط الأنابيب ، متتبعاً مسيل الزيت من مكان خروجه إلى مكان انصبابه في الباخرة .

وفي ١١ ربيع الأول (أول مايو) صعد الباخرة في رأس تنورة ، وافتتح مجرى انتقال الزيت إليها ، فاندفع ما زنته عشرة آلاف طن ، هي الحمولة التجارية الأولى ، في أول باخرة شُحنت كاملة بأول « تصدير » نفطي غزير من بلاد المملكة العربية السعودية .

وعاد في ذلك اليوم عن طريق القطيف فالدمام فالخبر . فزار جهة « أبي حَدْرِية » واستراح قليلاً في « جبل القرين » وواصل السير إلى الظهران .

وللمرء أن يتساءل عما كان يدور في نفس الملك عبد العزيز ، وهو يزور مناطق الأعمال « الصناعية والجيولوجية » في أراض كانت بالأمس القريب ، ميادين حروب صحراوية قلّما خلا مكان منها من معركة خاضها بنفسه أو أخاضها بعض رجاله ..

وبينما كان في « الظهران » قبل الذهاب إلى رأس تنورة ، أقبل أمير البحرين (الشيخ حمد بن عيسى) يسلم عليه ، ويدعوه إلى زيارة بلاده .

فلما عاد إلى الظهران ركب وحاشيته « اللنشات » من « الخُبر » إلى « المَنامة » دار الإمارة في البحرين . فكانت زيارةً جددت ذكريات ، ولم يَدَع أهل البحرين وسيلة لإدخال السرور على قلب عبد العزيز والمبالغة في تكريمه إلاّ عمدوا إليها .

وفي خلال إقامته أياماً في الظهران ، أمر بتوزيع خمسين ألف ريال ، على فقراء ناحيتها . ثم عاد إلى الرياض .

ذلك اليوم ، أعني يوم افتتاح الأنابيب لتصدير النفط ، كان له في تاريخ البلاد العربية السعودية ما بعده . وللنفط أكبر الأثر فيما شهدناه بعد ذلك من حركة في العمران ، بل في كل شيء .

عودة إلى البحث عن النفط

كان البريطانيون قد سبقوا الأميركيين إلى التنقيب عن النفط في غربي الخليج . ولم تسفر بحوثهم عن نتيجة . فكتبوا إلى « السلطان » عبد العزيز يأسفون على ما أضاعوا من جهد ومال ، وانصرفوا ..

ولما كان وزير الخارجية « الأمير فيصل » يزور لندن على رأس بعثة سياسية ، سنة ١٣٥١ (١٩٣٢ م) تحدث مع الجهات البريطانية ، في احتمال وجود النفط على الشاطىء الغربي للخليج ، فلم يجد في الشركات البريطانية ، استعداداً لمجازفة ثانية ...

كراين في جـــدة

وكان الثريّ الأميركي المستر « كراين » قد زار اليمن وعاد إلى مصر ، فأبدى رغبته بزيارة البلاد السعودية ، فرحب به الملك عبد العزيز . وجاءه سنة ١٣٤٩ (١٩٣١ م) يصحبه ويترجم له « جورج أنطونيوس » الذي ألف بعد ذلك كتاب « يقظة العرب » وكان الملك قد عرف أنطونيوس ، يوم جاء مع الجنرال كلايتون ، لعقد معاهدة « جدة » سنة ١٣٤٥ (١٩٢٧ م) .

وفي خلال الحديث بين الملك وكراين . سأله كراين عما يمكن أن يقوم به من مساعدة لبلاده . فحدثه الملك بما تعانيه البلاد الصحراوية من الجفاف في أكثر السنين وودّ لو يحضر إليها خبير « جيولوجي » يبحث عن آبار « أرتوازية » تسقي الناس في طريق الحج ، ويستعمل أهل البادية ماءها للزراعة .

قال كراين : سأبعث إليكم بخبير أعتقد انه يفيد بلادكم ، ولا تكلف حكومتكم أن تنفق عليه أكثر من تأمين إقامته وتنقلاته .

، ، ،

ووصل إلى جدة سنة ١٣٤٩ (١٩٣١ م) المهندس الجيولوجي الأميركي « تويتشل » فقال : كنت في اليمن وتلقيت برقية من كراين يدعوني أن أتوجه إلى جدة لفحص الأراضي ، بحثاً عن الماء ، وعلى الأخص في مناطق طرق الحج .

وزودته الحكومة السعودية بالنفقات والمساعدين والمعدات . فبدأ البحث .

ويقول في كتاب له ، وضعه بعد ذلك : « قطعت حوالي ١٥٠٠ ميل في الحجاز ، ولم أجد ما يبعث على الأمل في تدفق آبار أرتوازية ، فقدّمت تقريراً لا يبشر بالخير عن وجود الماء في أراضي الحجاز .

، ، ،

وكان البحث جارياً في «البحرين» عن النفط. وتربتها الجيولوجية كتربة الأحساء في شرقي المملكة ، فلم ير الملك عبد العزيز بأساً في استقدام جيولوجيين للنفط وحافرين للآبار ، ليبحثوا كما يبحث زملاؤهم في البحرين . وكلف تويتشل أن يتصل بالشركات الأميركية ، فسافر . وبعد جهد اتفق مع شركة « ستاندارد أويل كومباني أوف كليفورنيا » على أن تتبنى المشروع .

وفي ١٤ ربيع الأول ١٣٥٢ (١٩٣٣/٧/٧ م) صدر مرسوم ملكي بالموافقة على « اتفاقية » أمضاها وزير المالية العربية السعودية ، بالنيابة عن الحكومة ،

والمستر ل. ن. هاملتون ، بالنيابة عن شركة « ستاندارد أويل أوف كليفورنيا » وكان توقيعهما لها في جدة ، يوم ٤ صفر ١٣٥٢ (١٩٣٣/٥/٢٩ م)

بـــدء العمـــل

بدأ التنقيب التمهيدي عن الزيوت ، في مساحة تبلغ ١٤٠ ألف ميل مربع في ٢٦ محرم ١٣٥٤ (١٩٣٥/٤/٣٠ م)

النجاح الأول

وكان النجاح الأول في حفر أول بئر منتجة في الظهران ، يوم ١١ محرم ١٣٥٧ (١٩٣٨/٣/١٢م) وسميت « بئر الدمام رقم ١ » ثم اكتشفت الزيوت بكميات تجارية في بقيق (على ٣٧ ميلاً ، جنوبي غرب الظهران) وأبو حدرية (على ٥٠ ميلا في الشمال الغربي من الجُبيل ، و ٩٥ ميلاً من الظهران)

إصـــدار أطنـــان

وكان أول ما صدّرته الشركة إلى الخارج ، نحو ٤٥٠ طناً ، من ميناء الخُبر ، يوم الأحد ١٠ رجب ١٣٥٧ (١٩٣٨/٩/٤م)

سنة ١٩٤٩ م

وقدمت شركة الزيت العربية الأميركية ، إلى الحكومة العربية السعودية في ١٩٥٠/٤/١٥ (١٣٦٩ هـ) بعد مرور ١٦ عاماً على ابتداء عملها ، تقريراً عن أعمالها سنة ١٣٦٨ (١٩٤٩ م) جاء فيه أن مجموع ما أُنتج من الزيت في المملكة ، عام ١٩٤٩م ، بلغ ٢٢٨٢٠٧٨٣ طناً . يقابلها ١٨٧٥١٢٧٠ طناً أنتجت عام ١٩٤٨ م

وأن ما أنتج من الغاز ، عام ١٩٤٩ بلغ (٢٠٤٣٠٠٠٠) قدم مكعب . وأن العاملين في الشركة ، حسب جنسياتهم في الشهر الأخير من سنة ١٩٤٩ هم ١٠٠٢٦ سعودياً ، و٢٩٧١ أمريكياً و ٨٣٣ عدنياً ، و ٧٨٧ إيطالياً ، و٥١٣ هندياً ، و٤٥٩ سودانياً ، و٣٣٨ باكستانياً ، و١٥٧ من جنسيات أخرى .

تحت المـــاء

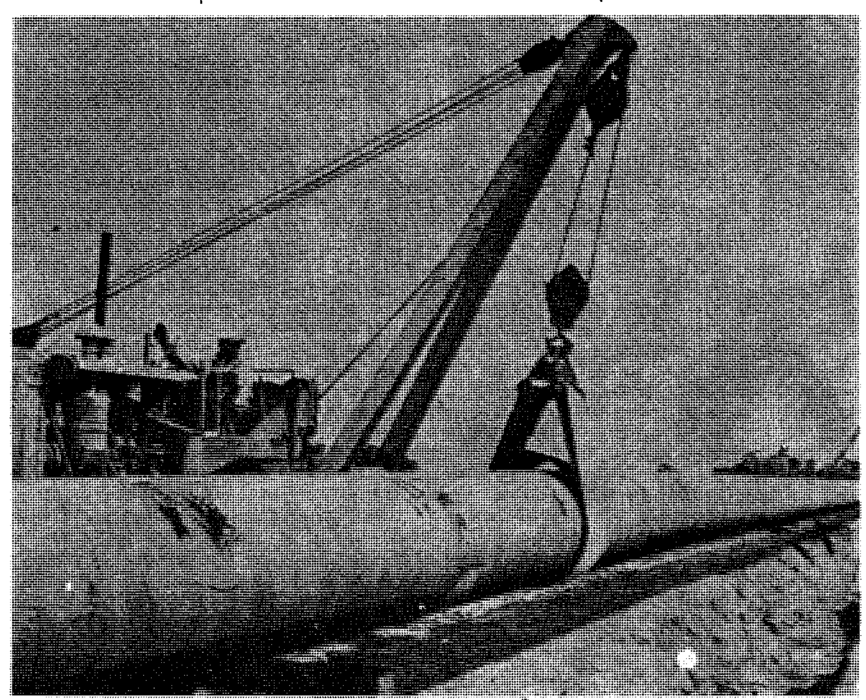
وتقدمت شركة تدعى « باسفيك وسترن كوربوريشن » فعرضت على حكومة الملك عبد العزيز ،مشروع البحث عن النفط تحت الماء. وأذن عبد العزيز بمنحها «الامتياز » بالتنقيب فيما سُمي «المنطقة المحايدة» سنة ١٣٦٨ (١٩٤٩ م)

وبُشر عبد العزيز ، في أواخر سنة ١٣٧٠ (١٩٥١ م) بانكشاف الآبار النفطية في حقل « السَفّانية » على منتصف الطريق بحراً ، بين شواطىء المملكة وشاطىء الكويت .

وتم الاتفاق بين الحكومتين السعودية والكويتية على اقتسام الفائض .

، ، ،

وتوفي عبد العزيز قبل أن يرى الأنابيب تنقل الزيت من قاع « السفانية » إلى « رأس المشعاب » ثم إلى الأسواق التجارية في أنحاء العالم .



الأنابيب تنقل النفط

الادارسة في عسير

سنة ١٢٤٦ هـ (١٨٣٠ م) نزل بصبيا فقيه من متصوفة المغرب اسمه « أحمد بن إدريس » من أهل فاس . كان قد جاور بمكة نحو ٣٠ عاماً . والتفّ حوله مريدون تلقوا طريقته « الأحمدية » وهي على نمط الشاذلية . وانتقل إلى « صَبْيَا » فكثر أتباعه . وتوفي بها سنة ١٢٥٣ (١٨٣٧م)

وخلفه ابنه « محمد بن أحمد » فاستفاد من مقام أبيه في نفوس العامة ، وصار له شبه إمارة . وتزوج بسودانية ولدت له ابناً دعاه علياً . وتزوج عليّ بهندية ولدت له « محمد بن علي » سنة ١٢٩٣ (١٨٧٦ م) فكان هذا داهية البيت .

محمد بن علي

رحل محمد بن علي في صباه . من صَبْيا إلى مصر . وتعلم في الأزهر حيث أقام ست سنوات (١٣١٤ — ١٣٢٠ هـ)

ولما عاد إلى صبيا تولّى « طريقة » جده وإمارة أبيه ، ولقّب نفسه بالمهدي المنتظر . واشتعلت الحرب بين الحكومة العثمانية وإيطاليا سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) ودخل الأسطول الإيطالي مياه البحر الأحمر ، فاتصل الإدريسي برجال الأسطول فأمدوه بشيء من الذخيرة .

وأخيراً وجد نفسه بين جاريه الشريف حسين . في الشمال ، والإمام يحي في الجنوب . وكلاهما يعدّ بلاد عسير جزءً من بلاده . فلجأ إلى

عبد العزيز (سلطان نجد يومئذ) وتعاقد معه . واستمر منيع الجانب إلى أن توفي سنة ١٣٤١ (١٩٢٣ م)

الحسن بن علي

واضطربت إمارة الأدارسة بعد وفاة محمد بن علي . وقد خلفه أحد أبنائه « علي بن محمد » وكان ضعيفاً ، فقام أهل البلاد عليه فخلعوه ، وبايعوا عمّاً له اسمه « الحسن بن علي »

وفاوض « الحسن » الإيطاليين في « مصوَّع » والبريطانيين في « عدن » والإمام يحيى في اليمن . وأرسل ابن عمه « مرغني الإدريسي » إلى مكة ، فعقد هذا باسم الحسن معاهدة مع حكومة الملك عبد العزيز سنة ١٣٤٥ (١٩٢٦ م) وَضَع بمقتضاها ما بقي من إمارة بني إدريس ، تحت حماية عبد العزيز آل سعود . واحتفظ الملك عبد العزيز بالشؤون الخارجية ، تاركاً للحسن إدارة بلاده ، يساعده في أعماله « مندوب سعودي »

في عهدة ابن سعود

وعجزت حكومة الحسن المحلية عن الاستمرار في ضبط الأمن والإدارة والجباية . فأبرق إلى الملك عبد العزيز في ١٧ جمادى الأولى ١٣٤٩ (١٩٣٠ م) يقول : تقرر بموافقتنا ورضانا إسناد إدارة بلادنا وماليتنا إلى عُهْدة جلالتكم .

وأمر الملك عبد العزيز بتأليف مجلس شورى للمقاطعة الإدريسية ، من أهلها ؛ لا تكون قراراته نافذة ما لم يوافق عليها السيد الحسن . واختصاص هذا المجلس « النظر في مصالح البلاد وتأمين الأمن الداخلي ، وترقية التجارة والزراعة والتعليم » ولا رأي له في السياسة الخارجية . وظلّ الحسن رئيساً للحكومة الإدريسية . تصدر الأوامر باسمه بالنيابة عن الملك عبد العزيز . وعين الملك أميراً من قِبله يترأس مجلس الشورى ويدير شؤون المقاطعة ،

وناظراً للمالية لتنظيم الجباية والإنفاق . وأصبحت المقاطعة جزءً من بلاد عبد العزيز .

ذيول :

غير أن الوساوس لم تترك الحسن هانئاً في بلاده . فقد جاءه من زين له الانتقاض على ابن سعود . وقيل له : ستقوم الثورة على ابن سعود في شمالي الحجاز بابن رفادة ، وتقوم أنت في الجنوب ، فتربكه الجبهتان ..

وكان من المعقول أن يحنّ الحسن إلى زمن تفرده بالحكم ، وأن ينسى عجزه عن القيام بأعبائه . فتجهم للأمير السعودي (فَهْد بن زُعَير) ثم حبسه هو والموظفين السعوديين ، واتصل بالإيطاليين في مصوع لإمداده بالذخائر .

ووصل الخبر إلى الملك عبد العزيز في الرياض ، فساق الجند إلى « صَبْيا » براً وبحراً . وعجز الحسن عن المقاومة ، فرحل بأهله وأقاربه وخاصته لاجئاً إلى صنعاء .

زوال الأدارسة

وبعد الحرب اليمانية السعودية (أوائل ١٣٥٣ هـ / مايو ١٩٣٤ م) وسيأتي ذكرها ، كان « تسليم الأدارسة » شرطاً من شروط الصلح مع الإمام يحيى . وزالت إمارة الأدارسة من صفحة الوجود .

فتنة ابن رفـــادة

آل رفادة : شيوخ قبيلة « بَلِـي » من « قضاعة » اليمانية ، من سكان شمالي الحجاز . منازلهم في أطراف « الوَجْه » على الشاطىء الشرقي من البحر الأحمر .

صاحب الفتنــة

وصاحب الفتنة : حامد بن سالم بن رفادة ، كانت له رئاسة تلك القبيلة وكانت إقامته في الوجه . وشغب على الحكومة السعودية ، بعد فتح الحجاز ، فوجهت إليه قوة ، ففرّ إلى مصر سنة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٨ م) وأكثر من زيارة « عـَمـّان » واستُثير فيها للقيام بحركة عصيانية في شمالي الحجاز .

وتوجه من مصر عن طريق السويس ، فمرّ بالعقبة واستقر في « الشُّرَيْح » على مسيرة أربع ساعات منها . ووصل إليه رجال وأسلحة ، عن طريق شرقي الأردن . وبلغ جمعه نحو أربعمئة مقاتل .

دعايات

وهوّلت « الدعايات » في وصف زحفه ، ونشرت الصحف « بلاغات » قيل لمحرريها : إنها صادرة عن مقر « الزعيم » ابن رفادة . ذكر فيها أنه احتل «الخُرَيبة » وحاصر « المُوَيْلح » و « ضُبا » وأسر ضباطاً وجنوداً سعوديين من رجال خفر السواحل ، وأنه قتل وفعل ...

وبادرت القبائل في شمالي الحجاز إلى إعلان براءتها منه ، واستعدادها لقمع فتنته .

الحشد لضربه

وأمر الملك عبد العزيز أهل الهِجَر الشمالية (شمر وعنزة) أن يتقدموا شمالاً ، وأرسل قوة في البحر إلى « ضبا » وسرية من حائل للمرابطة بقرب الحدود ، وأعد جيشاً احتياطياً للطوارىء . ثم أوعز إلى رجال من بلي (قبيلة الثائر) أن يتظاهروا بمؤازرته ، فقام من « الشريح » ودخل « الحريبة » ونزل في « تريم » وأذاع دعاته في الخارج أنه احتلّ البلدان الشمالية وأسر أمراءها .

انهـــزامـــه

ولم يكد يستقر في « تريم » حتى علم بزحف القوى السعودية متراصة تطلبه ، فنكص إلى الوراء ، ونزل بسفح جبل « شار » ولاحقه الجيش السعودي بالسيارات المسلحة والخيول .

مقتـــله

وفي ظهر يوم السبت ٢٦ ربيع الأول ١٣٥١ (١٩٣٢ م) نشبت المعركة في سفح « شار » على مقربة من « ضبا » وانجلت عن مقتل ابن رفادة وابنيه فالح وحامد ، و ٣٥٠ رجلاً من أعوانه .

، ، ،

وحمل رأس ابن رفادة إلى ضُبا فلعب به الأطفال ، ثم علق في سوقها .

توحيد أجزاء المملكة

في ١٢ جمادى الأولى ١٣٥١ (١٩٣٢/٨/١٠ م) اجتمع لفيف من كبار الوطنيين ، في الطائف ؛ واتفقوا على أن يرفعوا إلى الملك عبد العزيز « قراراً » وضعوه ، بالرغبة في تحويل اسم « المملكة الحجازية النجدية وملحقاتها » إلى اسم « المملكة العربية السعودية » ووَضْع نظام خاصّ بالحكم وتوارث العرش . وكان ذلك ما يجول في نفس عبد العزيز .

وصدر « نظام توحيد المملكة » وتسميتها « المملكة العربية السعودية » يوم الخميس ٢١ جمادى الأولى .

ولاية العهد

وأمر بوضع نظام لتوارث العرش من بعده . فانعقد مجلسا الوكلاء والشورى وأبرما قراراً في ١٦ محرم ١٣٥٢ (١٩٣٣/٥/١١ م) بمبايعة كبير أبنائه (الأمير سعود) ولياً للعهد .

الوصية لمن يلي الملك

وأبرق على الأثر إلى وليّ العهد برقية جاء فيها ما نصه الحرفي :

« تفهم أننا نحن والناس جميعاً ، ما نُعزّ أحداً ولا نذل أحداً ، وإنما المعز والمذل هو الله سبحانه وتعالى ، ومن التجأ إليه نجا ، ومن اغترّ بغيره (عياذ الله) وقع وهلك . موقفك اليوم غير موقفك بالأمس ، ينبغي أن

تعقد نيتك على ثلاثة أمور :

أولاً – نيه صالحة ، وعزم على أن تكون حياتك وأن يكون ديدنك إعلاء كلمة التوحيد ، ونصر دين الله . وينبغي أن تتخذ لنفسك أوقاتاً خاصة لعبادة الله والتضرع بين يديه في أوقات فراغك . تعبّد إلى الله في الرخاء تجده في الشدة . وعليك بالحرص على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وأن يكون ذلك كله على برهان وبصيرة في الأمر ، وصدق في العزيمة ، ولا يصلح مع الله سبحانه وتعالى إلاّ الصدق ، وإلاّ العمل الخفي الذي بين المرء وربه .

ثانياً – عليك أن تجدّ وتجتهد في النظر في شؤون الذين سيوليك الله أمرهم بالنصح سراً وعلانيةً والعدل في المحبّ والمبغض ، وتحكيم الشريعة في الدقيق والجليل ، والقيام بخدمتها باطناً وظاهراً . وينبغي أن لا تأخذك في الله لومة لائم .

ثالثاً – عليك أن تنظر في أمر المسلمين عامة ، وفي أمر أُسرتك خاصةً . اجعل كبيرهم والداً ومتوسطهم أخاً وصغيرهم ولداً ، وهن نفسك لرضاهم وامحُ زلتهم وأقِلْ عثرتهم ، وانصح لهم ، واقضِ لوازمهم بقدر إمكانك . فاذا فهمت وصيتي هذه ، ولازمت الصدق والإخلاص في العمل ، فابشر بالخير .

« أوصيك بعلماء المسلمين خيراً . احرص على توقيرهم ومجالستهم وأخذ نصيحتهم . واحرص على تعليم العلم لأن الناس ليسوا بشيء إلا بالله ثم بالعلم ومعرفة هذه العقيدة . احفظ الله يحفظك .

« هذه مقدمة نصيحتي إليك ، والباقي يصلك إن شاء الله في غير هذا .

الشـــورى

كان دستور الملك عبد العزيز : «وأمرهم شُورى بينهم»

يَعنِّ له الأمر ، أو يُرفع إليه ، فيجيل فيه فكرته ، وينتهي إلى حل له ، في نفسه ، يرضاه .

ويجتمع مستشاروه فيطرحه عليهم . ويدرسونه . فاذا اتجهوا إلى البت فيه بما يتفق مع ما وصل إليه هو ، أخذ بقولهم وأمضاه . وإلا ناقشهم – وأفضلهم عنده من يعترض ويناقش – ثم يعمل بما يستقر عليه الرأي .

أما « الدولة » فلا بد من سنّ الأنظمة لها ، وهي في إبان تكونها ، ولا بد من أهل الخبرة والعلم لسنّ تلك الأنظمة .

أول عمل انتخابي في حياته

أمر عبد العزيز ، بعد دخول مكة ، سنة ١٣٤٣ (١٩٢٤ م) بدعوة جمهرة من العلماء والأعيان فاجتمعوا ، فقال يُخاطبهم :

« إن دياراً كدياركم ، تحتاج إلى اهتمام زائد في إدارة شؤونها ، وعندنا مثَل يعرفه الناس جميعاً : أهل مكة أدرى بشعابها . فأنتم أعلم ببلدكم من البعيدين عنكم ، وما أرى لكم أحسن من أن تلقى مسؤوليات الأعمال على عواتقكم .

« أريد منكم أن تعيّنوا وقتاً تجتمع فيه نخبة من العلماء والأعيان والتجار ، وينتخب كل صنف من هؤلاء عدداً معيناً ، كما ترتضون وتقررون . وذلك بأوراق تمضونها من المجتمعين بأنهم ارتضوا أولئك النفر لإدارة مصالحهم

العامة ، والنظر في شؤونهم . ثم يستلم هؤلاء الأشخاص زمام الأمر . فيعيّنون لأنفسهم أوقاتاً يجتمعون فيها ، ويقررون ما فيه المصلحة للبلد . وجميع شكايات الناس ومطالبهم يجب أن يكون مرجعها هؤلاء النخبة من الناس . ويكونون أيضاً الواسطة بين الأهلين وبيني . فهم عيون لي وآذان للناس . يسمعون شكاويهم وينظرون فيها ، ثم يراجعونني .

« إنني أريد ممن سيجتمعون لانتخاب الأشخاص المطلوبين ، أن يتحروا المصلحة العامة ويقدموها على كل شيء فينتخبوا أهل الجدارة واللياقة الذين يغارون على المصالح العامة ، ولا يقدمون عليها مصالحهم الخاصة . ويكونون من أهل الغيرة والحمية والتقوى .

« تجدون بعض الحكومات تجعل لها مجالس للاستشارة . ولكنّ كثيراً من تلك المجالس وهمية أكثر منها حقيقية . تشكل ليقال إن هنالك مجالس وهيآت ، ويكون العمل في يد شخص واحد ويُنسب العمل إلى العموم . أما أنا فلا أريد من هذا المجلس الذي أدعوكم لانتخابه أشكالاً وأوهاماً وإنما أريد شكلاً حقيقياً يجتمع فيه رجال حقيقيون يعملون جهدهم في تحري المصلحة العامة .

« لا أريد أوهاماً ، وإنما أريد حقائق . أريد رجالاً يعملون . فاذا اجتمع أولئك المنتخَبون وأشكل عليّ أمر من الأمور ، رجعت إليهم في حله ، وعملت بمشورتهم . وتكون ذمتي سالمة من المسؤوليات . وأريد منهم أن يعملوا بما يجدون فيه المصلحة . وليس لأحد ، من الذين هم أطرافي سلطة عليهم ولا على غيرهم .

« أريد الصراحة في القول . لأن ثلاثة أكرههم ولا أقبلهم : رجل كذاب يكذب عليّ عن عمد ، ورجل ذو هوى ، ورجل متملق . فهؤلاء أبغض الناس عندي .

المجلس الأهلي

وعُقد بعد ذلك اجتماع ، أسفر عن انتخاب اثني عشر شخصاً ، تألف منهم مجلس سُمي « المجلس الأهلي » وصدر بيان ملكي عهد فيه إلى المجلس بالنظر في نظام المحاكم الشرعية ، وتدقيق مسائل الأوقاف ووضع نظام للأمن الداخلي ، وسنّ لوائح للبلدية ، ولصحة العاصمة ، ونشر التعليم الديني فيها ، وتعميم القراءة والكتابة، وتنظيم التجارة ، ووسائل البرق والبريد .

مجلس الشورى

وفي بداية عام ١٣٤٥ (١٩٢٦ م) صدرت تعليمات سُميت « التعليمات الأساسيةللمملكة الحجازية » تألف بمقتضاها مجلس اعتُبر الأول تمهيداً له ، وسُمي « مجلس الشورى » قوامه ثمانية أعضاء يرأسهم النائب العام (الأمير فيصل) أو معاونه أو أحد مستشاريه .

ووُسّع اختصاص هذا المجلس . وارتفع عدد أعضائه ، تبعاً لكثرة ما حُمّل من أعباء . فكان قوامه سنة ١٣٦٩ هـ (١٩٥٠ م) نائبين للرئيس ، و ١٣ عضواً ، وسكرتيراً، وسكرتيراً مساعداً .

الأمير فيصل يفتتح المجلس

ولكي نعرف مدى « سلطات » مجلس الشورى وتبعاته ، نأتي فيما يلي بخطبة رئيسه (الأمير فيصل) في حفلة افتتاحه (١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م) قال بعد حمد الله وطلب التوفيق منه :

« في مثل هذا اليوم من كل عام ، نلتقي أولاً لشكر الله عز وجل على ما أنعم به علينا من نعم كثيرة ؛ ثم لافتتاح عهد جديد في حياة البلاد والأمة . ولا شكّ في أن هذا العهد ، عهدُ مسؤوليات وواجبات ، يشترك فيها الراعي والرعية ، والمسؤول وغير المسؤول . ولكن هذا الاشتراك في المسؤوليات يختلف باختلاف إمكانيات المسؤولين وغير المسؤولين . وغنيّ عن البيان أنحكومة جلالة الملك،والمجلس ، والشعب ؛ مرتبطون بأوثق الروابط من

الناحية الأخوية والدينية والوطنية وكل العناصر المهمة ، وعلى كلٍّ مسؤوليته ، ولكلٍّ اقتداره .

« فمسؤولية المجلس هي القيام بما عليه من توجيهات ، وإقرار ما يلزم لتقدم البلاد والأمة ، ومراقبة ما ينفّذ وما لا ينفّذ ، وملاحظة ما تقصّر عنه القوانين أو الأوامر أو القرارات .

« ومسؤوليات الحكومة هي القيام بما عليها من إنفاذ ما يتقرر ، والسعي بالإصلاح من شتى نواحيه ، واتخاذ أنجع الطرق لتأمين المقاصد التي من أجلها سنت القوانين وأصدرت الأوامر .

« وواجب الرعيّة ، هو مساعدة الجهات المنوط بها أمر التنفيذ ، لتسهيل مهمات السير بحسب الأوامر والتوجيهات التي توجه إليهم ، والتقليل بقدر الإمكان من إشغال الجهة المسؤولة بما لا طائل تحته .

« إذا تضافرت الجهود فلا شك في أن الأمة والبلاد بحول الله تعالى ، ثم بحسن توجيه صاحب الجلالة الملك ، واجتهاد العاملين كلٌّ في حقله ، وإخلاصهم ؛ ستبلغ الغاية المنشودة بحول الله . فحكومة جلالته لا تزال تستهدف ما يكون فيه خير البلاد سواء في الحقل الداخلي أو الخارجي .

« أما سياسة الحكومة في الداخل ، فنشر العلم ، وتوسعة المدن ، وتأمين المرافق الصحية بقدر الإمكان ، والسهر على صحة الشعب والوافدين ، وتنفيذ وإقرار المشاريع النافعة للبلاد والأمة . ولا شك في أن الطفرة محال . ولكن المهم في كل الأشياء ، هو أن يسلك الإنسان الطريق القويم ، بإخلاص وجدّ ومثابرة .

« في السنوات الماضية حصل بعض التقدم ، وإن كان ليس كل ما أريد . ولكن على كل حال هو أحسن من لا شيء .

« من الناحية الصحية : توسعت إدارة الصحة العامة في ميزانيتها وفي ترتيباتها .

« ومن الناحية العلمية : توسعت إدارة المعارف العامة في فتح المدارس وإيجاد الفصول النافعة فيها ، وأقرت بموافقة الحكومة وتشجيع جلالته فتح كلّيتين في هذا العام ، هما كلية الشريعة وكلية اللغة العربية . وفعلاً فُتحت كلية الشريعة وبدأت الدراسة فيها من هذا الشهر ، كما تأسست مدرسة للصناعات بجدّة .

« ومن الناحية العُمرانية: أُنشئت بعض الطرق، وأكمل إصلاح بعض آخر . واتخذت الأسباب للشروع في إصلاح طريق الطائف والطريق الموصل بين المدينة والمطار ؛ وإصلاح طريق جدة — المدينة ، وتوسيع الطرق بين مكة وجدة ، أو ايجاد خط آخر ، مع الخط الموجود حالياً . وربما تُفتح في بحر السنة بعض الطرق الداخلية في العاصمة لتخفيف الضغط وتسهيل حركة المرور . واتخذت الأسباب لبناء بعض السدود في الطائف لحفظ المياه ، ويؤمل أن يبدأ العمل بها في بحر هذه السنة .

« ومن ناحية المواصلات : قامت إدارة البرق والبريد العامة باستحضار ما يلزم لإنشاء خطوط تلفونية جديدة ، تربط مكة — جدة — الطائف . والأمل أن يتم إنشاء هذه الخطوط في هذه السنة . وأظن أن مدير البرق والبريد العام سيحقق ذلك (وكان حاضراً فقال : إن شاء الله !)

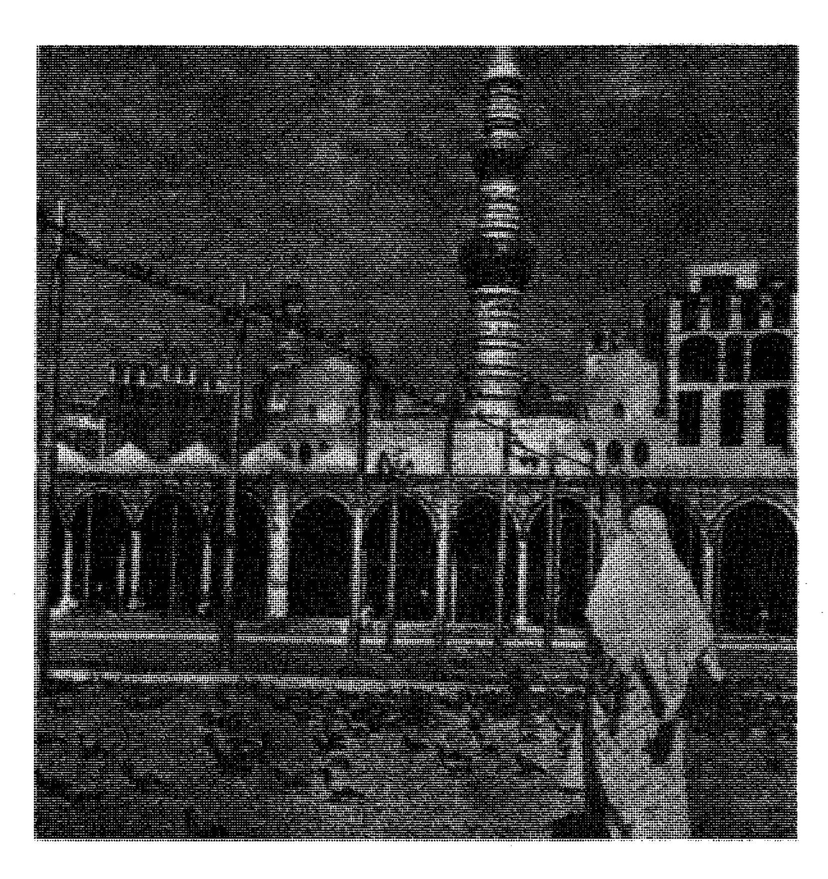
« هذا ما يتعلق بالحقل الداخلي .

« أما ما يتعلق بالحقل الخارجي ، فإن سياسة الحكومة هي توطيد العلاقات الأخوية والودية مع البلاد العربية . وتوطيد العلاقات الودية مع الحكومات الأجنبية ، وبالأخص الإسلامية والشرقية . ولا تضمر لأحد سوءً ولا ترضى بأن يضمر لها أحد سوءً . وعلى كلّ فحكومة جلالة الملك سائرة على سياسة تعتقد أنها حكيمة . وهي : توطيد الروابط الودية مع كل حكومة وشعب يسعى لكسب صداقتها ، يحدوها في كل ذلك الإخلاص . وليس للحكومة

غرض أو مطمع سوى محافظة هذه البلاد على استقلالها واستقرارها وشدّ أزر بعضها بعضاً .

« وعلى كلّ فكلنا مسؤولون وكلنا محاسَبون .

« أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا جميعاً لأداء ما يجب علينا . لخدمة هذه الأمة والبلاد ، في ظل صاحب الجلالة ، مسترشدين بإرشاداته الحكيمة . والله الموفق الملهم للصواب .. » .



جانب من الحرم المكي

عبد العزيز موفــق[١]

التوفيق ، قوة من عالم الغيب ، يؤمن بها من تتبّع أمثال سيرة عبد العزيز .

، ، ،

خطط الحرب فنّ ، والتغلب أو بسط السيطرة فنّ ، والسياسة والإدارة وما إليهما من شؤون المجتمع ، كل منها فنّ له قواعده ومدارسه . ومن المدارس التجارب والمِران وطول الممارسة . أما « التوفيق » فأمر فوق ذلك كله . لا قاعدة له ولا مدرسة ولا سابقة ينسج على منوالها .

وفي الناس من يُسعَف بالحظ ، مرة أو مرات ؛ فيقال : قد وُفّق . ولكنه لا يسمى « موفقاً » ما دام يتأرجح أحياناً بين التوفيق ونقيضه . أما الموفق ــ حقاً ــ فذلك الذي تجري الأحداث ، متتابعة متجانسة ، على وفق غرضه وعلى مدى مصلحته .

لنستعرض بعض أيام « عبد العزيز » الأولى ، وما بعدها ؛ وليس الغرض الإحصاء والاستقصاء :

قضى عبد العزيز مدة الطفولة وبدء الصبا في الرياض . في أسرة لها سؤدد ومجد ، ولكنها مهيضة الجناح ، تغلّب عليها متسلط قاهر . وكان الظن أن ينشأ عبد العزيز ويعيش ، كما يعيش أبناء النبلاء في حواضر البادية ؛ لم يذق

---

(١) أبقي هذا البحث وبعض أمثاله ، كما كانت في « شبه الجزيرة »

طعم الحكم فيتطلع إليه ، ولم يعرف لذة الغَلَب فيطلبه .

ويقذفه القدر — وإن شئت فقل التوفيق — إلى أشد بقعة في صحراء شبه الجزيرة خشونة ووعورة ، فيتنقل فيها مع أبيه وآخرين من إخوانه وذويه . وتصهره شمسها ويحتمل شظفها وقسوتها .

ويستقرّ بعد لأي (عام ١٣٠٩ هـ / ١٨٩١ م) في بلد اصطرعت فيه الأهواء والأطماع ، داخلية وخارجية ، فيرى ابن صباح (في الكويت) يقتل أخويه ليستأثر بالسلطان ، فيعرف عبد العزيز ما للدم من أثر في الحياة . ويرى رجالات من الترك والروس والألمان والإنكليز ، يقتتلون وهم يبتسمون ويتسابقون أمام ابن صباح وهم واقفون . فيكون ذلك فاتحة ما يتلقنه من دروس السياسة العملية الدولية .

ويختصم ابن صباح (صاحب الكويت) وابن رشيد (عدوّ آل سعود) سنة ١٣١٨ هـ ، ١٩٠٠ م ، لأمر لا صلة له بما بين آل سعود وآل رشيد ، فتنشب الحرب بين الرجلين . ويبرز عبد العزيز ، شخصاً ثالثاً في الميدان ؛ فتزول من نفسه مهابة المارد ابن رشيد ، ويسوقه « التوفيق » إلى أن ينفرد بعدوّ أُسرته ، ويسحقه .

وينتقض على عبد العزيز بعض أبناء عمومته في « الخرج » وتشتد شوكتهم بأنصار التفّوا حولهم . فيزحف إليهم (سنة ١٣٣٠ هـ/١٩١٢ م) وقد تحصنوا في السلمية[1] . ويأمر بالخيام لحصارهم ، فتنصب ، لشهر أو أكثر . ولكنه « موفّق » ومهيأ لأن يعمل في الشهر أكثر من حصار جمع من الناس . فيرى خيلاً برزت ، بعيدة عن الحصن . فينتدب أخاه « سعداً » لمطاردتها بعشرات من فرسانه ، وتتبادل الطليعتان إطلاق الرصاص ، ويتقارب مرماهما ، وعبد العزيز على أبواب الخيام يرقب بمنظاره كرّات أخيه سعد .

وتيامن سعد ، فخرج عليه كمين كان مستتراً وراء رابية ، فتراجع . ورآه عبد العزيز قد لوى عنان جواده .. فثار ؛ وطلب فرسه يريد دفع

(١) ويقال : إن المعركة كانت في الخريق .

العدوّ عن أخيه . ولكنه – وهو يركب – نشبت رجله في ثوبه ، فشُغل عن توجيه الفرس ، فأغارت إلى غير الوجهة التي كان يريدها ؛ فاذا هو أمام حصن القوم .. وتلاحق به فرسانه فأهل الإبل . فالمشاة ، وقد ظنوا أنه متعمد مهاجمة الحصن . فما هي إلاّ ساعات حتى دخلوه ، واحتلوا ما وراءه من قرى وخيام ، وفرّ من نجا من العصاة ، وانتهت المعركة في يوم واحد . وقال الناس : ظفر عبد العزيز بخطأ فرسه . وكان « الخطأ » ضرباً من التوفيق ..

، ، ،

وعمل عبد العزيز على مصافاة « الشريف حسين » في الحجاز . وحاول أن يجعل منه أباً ثانياً له . وأنكر هذا على عبد العزيز امتداد سلطانه في حائل وعسير . بعد اطمئنانه في نجد . وبلغت قوة الشريف ذروتها بعد انقضاء الحرب العامة الأولى ، فاجتمع له جيش نظامي مجهز بالمدافع والأسلاك والذخائر ، وعهد بقيادته إلى ثاني أبنائه « عبد الله بن الحسين » وقيل له : ألا تكتسح نجداً ؟ فقال : نجد ، ومن فيها بين يديّ ..

وذهبت مجاملات عبد العزيز للحسين ، سُدى . وحل الوعيد محل الوعود . وأنّى لعبد العزيز أن يفكّر في اقتحام الحجاز ، ودون ذلك ما دونه ؟!

ويجيء دور التوفيق ، فترتفع يد عبد الله بن الحسين ، في « تربة » ويصفع شيخها الوقور خالد ابن لؤيّ . وخالد هذا من الأشراف أيضاً . وفي نفسه إباء . فينقلب على عبد الله وعلى أبيه الحسين . ويذهب إلى نجد ، مستنجداً . ويزحف عبد الله بن الحسين لمحوه . وتَحدْث وقعة « تربة » – سنة ١٣٣٧ هـ/ ١٩١٩ م – وقد تقاطر رجال عبد العزيز لنصرة خالد ، فيظفر ؛ ويصبح سيفاً من سيوف عبد العزيز . ثم يقول الناس ، يوم خرج الحسين من مكة : رب لطمة ذهبت بعرش ...

ومشى الملك عبد العزيز من الرياض ، لفتح بقية الحجاز ، وليس في خزائنه سوى ثلاثين ألف ربية .

وأصبح يوماً ، وهو مخيّم في محلة « الشهداء » بظاهر مكة ، وقد نفد ما ادّخر من مؤن وأقوات ، ولاح في جموعه شبح الجوع أو كاد .

وكان المتوقَّع أن تستسلم جدة كما فعلت مكة ، ولكن لم يكن من الثغر ما كان من العاصمة .

وضاقت صدور الرجال ، حين قلّ المال ؛ فنظر عبد العزيز إلى من حوله ، يقول : المؤن متوفرة في نجد ، غير أن الجمال مشيها وئيد .. من شاء منكم الرحيل فليرحل . أما أنا فمقيم . والفرج من عند الله .

وقبل أن يمسي ذلك اليوم ، وصلت قافلة يتقدمها إسماعيل بن مبيريك ، أمير رابغ . وكان الشريف حسين قد قتل أخاً له غيلة ؛ فلما علم بمقدم عبد العزيز ، جاءه بالطاعة وبعشرين بعيراً تحمل التمر والسمن والبُرّ . وكان ذلك من التوفيق ..

، ، ،

وبينما عبد العزيز يحاصر جدة ، جاءه من أخبره أن الشريف عليا (ابن الحسين) قد جهز طائرة بمدفع رشاش ، واحتفل أهل جدة بتجربتها ، وليس في معسكر عبد العزيز يومئذ ، ما يعصم من غارات الجوّ . لا مدافع مضادّة للطائرات ولا مخابىء . فقال : يكفينا الله شرّها !

وحلقت الطائرة فوق الخيام . ومن في الخيام ينظرون . وحامت حول أكبر سرادق في المخيم ، حيث يجلس عبد العزيز وخاصته . وكان الوقت قبيل الظهر ، ومن في الطائرة يرى من في الأرض بالعين المجرّدة . وكان مع قائدها شاب أعرفه ، روى لي من تمنى له النجاح في مطار جدة قبل قيام الطائرة ، أنه رآه يحمل قنبلتين من اللواتي تقذف باليد ؛ وسمعه يقول :

سألقيهما على رأس عبد العزيز ..

ولم يكن بين الطائرة ورأس ابن سعود أكثر من مئات الأمتار ، وقد أحكم القائد استهداف السراد ق، وهُيِء الرشاش وإحدى القنبلتين . ولكن التوفيق يَقِظ ، فإذا القنبلة تنفجر في الطائرة ، وإذا بالنار تشتعل في الجوّ ، وتهوي الطائرة ، ثم تصبح ومن فيها كومة من الرماد أمام خيمة عبد العزيز ..

، ، ،

وكان عبد العزيز في جدال عنيف ، مع بعض زعماء القبائل ، ممن طال عليهم المقام في حصار جدة . وآخر ما عندهم من الرأي أحد أمرين : إما أن يأذن لهم في دخول جدة عنوةً ، أو يرحلوا عنها إلى نجد . وأجابهم عبد العزيز : لن أدخل جدة في قتال ، وسأبقى على أبوابها . ولكم أن تقيموا أو ترحلوا .

وفيما هم يتهيأون للرحيل، وردت رسالةمن الملك علي بالتسليم، وأجابه عبد العزيز بالموافقة . وانتهى أمر الهاشميين في الحجاز .

، ، ،

وبعدُ أفليس ما تفتّح لعبد العزيز ابن سعود ، من مكنون الأرض ، ذهباً ونفطاً ، من التوفيق ؟

أليس هذا الأمن الذي عم شبه الجزيرة من التوفيق ؟

عبد العزيز « موفق » لا ريب وما التوفيق إلاّ منحة من منح الله ...

عبد العزيز والتعليم

أُنشئت في مكة (العاصمة) سنة ١٣٤٤ (١٩٢٦ م) إدارة حكومية سُميت « إدارة المعارف العامة » مرتبطة بالنائب العام ، يُصرّف أعمالها مدير عام ومعاون مدير . وقُصِر اختصاصها على ما يتعلق بالتربية والتعليم .

وواجهتها في بدء تكوينها عقبة ، هي خلوّ المدارس الابتدائية والأولية ، من المعلمين « المتعلمين » فأنشأت مدرسة في مكة سمتها « المعهد العلمي السعودي » مهمتها إعداد المدرسين للابتدائي والأوّلي . وملأ خريجو هذا المعهد بعض الفراغ .

البعثـــات

وإلى جانب إنشاء « المعهد العلمي السعودي » كان إرسال أول بعثة من الطلاب إلى الخارج ، عام ١٣٤٦ (١٩٢٧ م) وتعاقب إرسال البعثات بعدها . فكان هذا أنجح عمل للمعارف في المملكة .

تحضير البعثات

ثم كانت مدرسة « تحضير البعثات » من أجدى المعاهد السعودية نفعاً في ذلك العهد . أُنشئت حوالي سنة ١٣٥٤ (١٩٣٥ م) ووُضع لها منهج خاص ، استُمد من منهج الدراسة المصرية . بحيث تكفي شهادتها لدخول حامليها في المعاهد العليا وكليات الجامعة ، في مصر وغيرها . وزُوّدت بمعمل لخواصّ المواد وسُنن الكائنات (الكيمياء والطبيعة) وببعض وسائل الإيضاح

العلمية الحديثة . مدّة الدارسة فيها أربع سنوات للقسم العامّ ، وخمس سنوات للقسم الخاص .

المطاوعة والمرشدون

أما « المطاوعة » أو المرشدون في الهِجَر والقبائل ، فهم يُختارون على الغالب من متعلمي الهجر والمدن القريبة من القبائل . وأول ما عليهم أن يعلّموه : القرآن الكريم ، وأركان الإسلام ، والعبادات ، ومبادىء من القراءة والكتابة .

ولا يقتصر عمل المطوع أو المرشد ، على « التعليم » بل هو واعظ القبيلة وخطيب مسجدها ، وإمامها في صلواتها . وقد يكون مرجعها الديني في كل شيء وله رأي مسموع في شؤونها العامة والخاصة .

التعليم الأهلي :

وللتعليم « الأهلي » في المملكة فضل كبير في نهضتها الحديثة . فإن القائمين بالأعمال الحكومية في الدولة كان معظمهم من خريجي المدارس الأهلية التي أنشئت قبل عهد الملك عبد العزيز وفي عهده .

أبناء العشائر

ورأى أحد العلماء كثرة البدو في أطراف ينبع ، من جُهينة وحرب وغيرهما ، سنة ١٣٥٣ (١٩٣٥ م) فكتب إلى الملك عبد العزيز ، في أمر أبنائهم ، فلم يلبث عبد العزيز أن أبرق إلى أمير ينبع بما معناه : أقيموا مدرسة خاصة بأبناء العشائر تتسع موقتاً لمئة طالب . وما انتهى عام ١٣٥٣ حتى كانت المدرسة ، وفيها نحو مئة تلميذ من أبناء العشائر القريبة من ينبع ، فضلاً عما كان فيها من المدارس النظامية والأهلية .

، ، ،

وهناك مدارس« خاصّة » أنشأ أُولاها الملك عبد العزيز في قصره بالرياض لتعليم صغار الأمراء من أبنائه وحَفَدته وأبناء إخوته ومن يليهم من الأسرة السعودية ، سُميت « مدرسة الأمراء » ومثلها مدرسة للأيتام كانت تابعة لإدارة القصر الملكي ، في بناية خاصة بالرياض .

ولما عاد الملك عبد العزيز من رحلته الثانية إلى مصر ، أراد أهل الرياض إقامة حفلة كبيرة له وجمعوا مبلغاً من المال للحفلة . وعلم الملك بالأمر ، فقال : بل يصرف المال على ما فيه مصلحة للبلد . فاتفقوا على إنشاء مدرسة في البطحاء سُميت « المدرسة التذكارية » وبُدّل اسمها بعد ذلك .

وأنشأ الأمير فيصل بن عبد العزيز (في عهد والده) بالطائف « المدرسة النموذجية » لأولاد الأمراء وغيرهم . ثم نُقلت إلى جدة أخيراً ، وضمت إلى وزارة المعارف ، وأطلق عليها اسم « مدارس الثغر النموذجية »

واستقدم الأمراء عبد الله بن عبد الرحمن ، ومساعد بن عبد الرحمن ، وسعود بن عبد العزيز ، وفيصل بن عبد العزيز ، وآخرون مدرسين خاصّين لأولادهم .

في نجد والمنطقة الشرقية

أما بلاد نجد ، فعكفت أول الأمر ، على الدراسات القرآنية والحديثية والفقهية ، ولم تعرف فيها المدارس النظامية الحديثة إلاّ بعد سنة ١٣٥٠ هـ (١٩٤١ م) فافتتحت في بعض مدنها مدارس تدرّج التعليم فيها ببطء لقلة المدرسين أولاً ، ولضعف الرغبة يومئذ في الإقبال على طرائق التدريس الحديثة . ولكنها ، وثبت بعد ذلك . فما دخلت سنة ١٣٦٩ (١٩٥٠ م) حتى كان في نجد ٨٤ مدرسة زاد طلابها على ثمانية آلاف .

ميزانية المعارف

كان أعلى رقم للمعارف ، في آخر ميزانية وضعت للمملكة ، أيام عبد العزيز ، سنة ١٣٧٣ (١٩٥٣ م) هو عشرون مليوناً من الريالات السعودية، تقارب أربعة ملايين دولار ونصف المليون .

اضافات :

ومن المعلوم أن التعليم في المملكة ، مجاني في جميع مراحله ، تدريساً وكتباً ودفاتر وأقلاما الخ . ولكن من المجهول أن الحكومة تنفق أيضاً على نحو ٣٠ ٪ من التلاميذ طعاماً ومأوى وملبساً وما إلى ذلك ، قياساً على طلبة البعثات في الخارج . ويكثر هذا النوع على الخصوص في المدن والقرى المجاورة للبادية ، حيث يؤتى بالطلاب من خيام قبائلهم ومن مراعي إبلهم . وكانت الحكومة تدفع لبعض الآباء « تعويضاً » عن عمل البنين في رعي الماشية أو غير ذلك ، حال غيابهم عن مضاربهم لتعليمهم .

كما كانت تصرف مثل هذا التعويض لآباء بعض المبتَعَثين إلى الخارج من الطلبة المرغوب بتيسير انتجاعهم للعلم .

هذه « النفقات » الإضافية لم تكن ميزانية المعارف تحتملها أو تؤديها.وإنما كانت تؤدّى من « أبواب » للصرف في مخصّصات الإمارات والبادية .

ويقرب من هذا ، أن مئات من الطلاب في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، ظهر للحكومة أن مقدرتهم المالية ، لا تساعدهم على الاستمرار في الدراسة ، فخصتهم بمشاهرات تتراوح بين ١٥٠ و ٢٤٥ ريالاً . للطالب .

وكان للمدارس الأهلية حظها من العون المادي أيضاً ، وهي أجدر المؤسسات بالعون ، وما يصرف لها لا يدخل في نطاق « مديرية » المعارف ولا في ميزانيتها .

من تولوا إدارة المعارف

تولى إدارة المعارف ، في عهد الملك عبد العزيز ، قبل أن تصبح وزارة : صالح شطا ، فمحمد كامل القصّاب ، فماجد الكردي ، فحافظ وهبة ، فمحمد أمين فودة ، فطاهر الدباغ ، فمحمد بن عبد العزيز بن مانع .

الوزارة

واتسعت أعمالها ، بعد وفاة الملك عبد العزيز ، فجعلت « وزارة » مقرها كسائر الوزارات في الرياض . وكان أول من تولاها الأمير فهد بن عبد العزيز حتى مطلع رجب ١٣٨٠ (ديسمبر ١٩٦٠م) وفي عهده أُنشئت « جامعة الرياض » .

وتولاها بعده الشيخ عبد العزيز بن عبد الله ابن حسن آل الشيخ ، حتى شوال ١٣٨١ (مارس ١٩٦٢ م)

ثم تولاها وزيرها الحالي الشيخ حسن بن عبد الله بن حسن آل الشيخ .

ووُسع نطاق جامعة الرياض ، فضمت كليات « العلوم » و « الصيدلة » و « الآداب » و « التجارة » و « الزراعة » وأُنشئت كلية « الهندسة » مستقلة ، ثم أضيفت إلى الجامعة .

وأسست « جامعة الملك عبد العزيز الأهلية » في جدة . كما أُسست « الجامعة الإسلامية » في المدينة المنورة ، يَفِد إليها طلبة العلم من جميع الأقطار الإسلامية .

الملك عبد العزيز والامام يحيى

في قيام الحركتين النجدية واليمانية ، وفي أهداف الزعيمين العربيين عبد العزيز ابن سعود ويحي حميد الدين تشابه عجيب :

كلاهما قام في أوائل القرن الرابع عشر للهجرة (أواخر القرن التاسع عشر للميلاد) أحدهما في الجنوب الإمام يحي — يعمل على استرداد ملك سلف لأسلافه ، فيصارع الزحوف التركية العثمانية ويتغلب عليها فتمد إليه يد الود. وتجيء الحرب العالمية الأولى فيأبى أن يعالنها العداء . وبانتهاء الحرب ، ينتهي ما كان لها من سلطان في بعض بلاده ، ويستقلّ أشرف استقلال وأنقاه .
والثاني في شرقي شبه الجزيرة — عبد العزيز آل سعود — تفتحت عيناه على مُلك سلف لأسلافه اقتسمه الترك العثمانيون وبعض المتغلبة من أتباع آبائه. واجتمع المتسلط العثماني والمتغلب العربي على حربه . واستمر قرابة عشرين عاماً ، يكاد يكون وسادهُ سرج فرسه أو ظهر ذلوله ؛ فأجلى الترك عما كان في أيديهم من بلاده ، وسحق إمارة المتغلب من أبناء جنسه . واشتعلت الحرب العامة ، فهادن الفريقين وقضى بعد انقضائها على كل عقبة أمام وحدة بلاده واستقلالها . ثم انصرف إلى اصلاح ملكه وإسعاده ، مستقلا عزيز الجانب .

ظل الملكان الإمامان ، كلّ يعمل في نطاق قُطره ، تفصل بينهما إمارتان صغيرتان قامت فيهما فتن وأحداث انتهت بانضمام رقعتيهما إلى الجار السعودي عبد العزيز ، وهما إمارة « آل عائض » وإمارة « آل إدريس » وقد لجأ آخر من ولي إمرة الثانية، الحسن بن علي الإدريسي ، في جمع من أقاربه

وخاصته ، إلى الجار اليماني يحي . وتولى عبد العزيز الإنفاق عليهم في دار يحي . وشملهم هذا برعايته .

وحدث ما لم يكن في الحسُبان . فقد كانت إقامة الأدارسة هؤلاء في صنعاء سبباً لِثَلْم حصن الولاء بين الأخوين .

زين الحسن للإمام يحي إمكان العمل في عسير . وتقدم جند من جيش الإمام يحي سنة ١٣٥٢ (١٩٣٣ م) إلى جبال جيزان ، حيث كانت تقوم فيما سبق إمارة الأدارسة . وتجاوزها إلى « نجران » في شرقي البحر الأحمر .

وعلم عبد العزيز بالأمر ، فاستعظمه . وكاتب يحي ، فاتفقا على عقد موئتمر في « أبها » حضره مندوبون عن كل منهما . للاتفاق على « الحدود » ولكنهم انصرفوا على غير اتفاق .

ووجّه عبد العزيز ، إنذاراً ليحي في وجوب سحب القوات اليمانية التي وصل بعضها إلى نجران وَفَيَفْا ، وكان منها ما دخل حدود « بني مالك » و « العَبَادل » ومضت مدّة الإنذار ، وهي اسبوعان ، ولم يكن له أثر .

وزحف الجيش السعودي في ذي الحجة ١٣٥٢ (ابريل ١٩٣٤ م) مشطوراً إلى فريقين : أحدهما بقيادة الأمير سعود بن عبد العزيز إلى الشمال ، ووجهته الجبال . فكانت وقعة « حَرَض » على يد حَمَد الشّويعر ، أمير تهامة عسير . وتوغل سعود في جبال السّراة . وبين صعدة ونجران ، واقترب من غمدان .

والثاني بقيادة الأمير فيصل نائب الملك وثاني أنجاله . كان طريقه في الجنوب . على الشاطىء فاستولى على « ميدي » ثم « الحُديدة » و « بيت الفقيه » و « الزيدية » و « القضيمة » وأخضع الزرانيق وغيرهم من قبائل الجنوب . في خلال ٢٠ يوماً . وبدّد كل مقاومة اعترضته في سَيْره .

وانهار جيش الإمام يحي . في أقل من شهر واحد . فأبرق إلى مصر .

يستنجد بالجالس على عرشها يومئذ ، الملك فؤاد . وكان هذا معواناً لكل إنسان على عبد العزيز ، لا سيما بعد وقعة « المحمل » في منى — عام ١٣٤٥ هـ (١٩٢٧ م) — وقد تقدم ذكرها . ولم يكن في استطاعة « فؤاد » أن ينجد الإمام يحيي ، فاعتذر .

وأُسقط في يد الإمام يحيي ، فلجأ إلى الملك عبد العزيز ..

وتلقى عبد العزيز برقية من يحيي مؤدّاها : كفى ... بلاد « يام » تحت حكمكم . أمرنا بسحب جندنا من نجران . عندكم عبد الله ابن الوزير ، تفضلوا عافاكم الله ، بطلبه ، لعقد معاهدة أخوية .

وأجابه الملك عبد العزيز : سندعو ابن الوزير . والمهم أن يتم انسحاب الجند من نجران ، وإطلاق رهائن أهل الجبال ، وتسليم الأدارسة إلينا .

، ،

وتلقى عبد العزيز إجابة يحيي بقبوله الشروط الثلاثة ، وبأنه تم الجلاء عن نجران ، وأنه أمر بتسريح « رهائن الجبال » ويتم تسليم الأدارسة في الحال .. وكرر طلبه وقف الزحف .

وقف الزحف

أمر عبد العزيز بوقف الزحف في ١١ محرم ١٣٥٣ (١٩٣٤/٤/٢٧ م) واستدعى عبد الله ابن الوزير ، فوصل إلى الطائف يوم ١٤ محرم . وأطلعه الملك عبد العزيز على برقيات إمامه . ثم أملى عليه ، وعلى من حضر من المستشارين السعوديين ، فقرات أشبه بالمواد ، تُبنى عليها « معاهدة » للصلح . وتولى المستشارون السعوديون وابن الوزير ومن كان معه صياغة تلك « المواد » فكانت منها معاهدة « الطائف » وجرى توقيعها في جدة — بعد أن اطلع الإمام يحيي على نصها — في ٦ صفر ١٣٥٣ (١٩٣٤/٥/٢١ م)

حادث المطـــاف

كان من عادة الملك عبد العزيز حين يحج ، أن يقوم من « مِنَى » قبيل طلوع الشمس من أول أيام عيد الأضحى ، فيأتي مكة ، فيطوف طواف الإفاضة ويصلي صلاة العيد ، وسائر الحجيج في منى ، بعيداً عن ازدحام الألوف ومئات الألوف من الناس ، ويعود إليهم في الضحى .

وأقبل في صباح العاشر من ذي الحجة ١٣٥٣ (مارس ١٩٣٥ م) فباشر الطواف مع الطائفين الأقلاّء ، من أهل مكة ، وخلفه ابنه الأمير سعود ، وبعض رجالهما .

وأكمل الشوط الرابع ، وابتدأ الخامس ، بعد استلام الحَجَر الأسود . فلما كان عند باب الكعبة برز رجل من فجوة في شمالي حِجْر إسماعيل يمانيّ البِزّة ، وقد سلّ خنجراً ، وصاح صيحات منكرة ، فيها تهديد ووعيد وسباب ، وقفز منقضّاً على الملك ، من ورائه . وما كان من سعود إلاّ أن ألقى نفسه على أبيه يقيه الطعنة ، ودفع المجرم بيده . وانطلقت في رأس المجرم رصاصةمن حارس الملك،أردته قتيلاً .وعلَتْ صيحة «كامن»آخر، كانفي فجوة ثانية من فجوات الحِجر،وانقضّ بخنجره يريد الملك.فمسّ الخنجر أسفل الكتف اليُسرى من ظهر سعود ، وجرحه . وعاجله حارس الأمير سعود برصاصة قضت عليه . ووثب ثالثٌ مقبلاً من ناحية الركن اليماني ، فلمح صاحبيه مضرّجين بدمهما ، فانطلق يبغي الفرار . ولم ينج من رصاص الجند ، ولكن ظلّ فيه رمق من الحياة ، فاستطاع المحققون

أن يعرفوا منه اسمه وهو « علي »

مرّ الحادث بسرعة ، وقد فتك أحد الأشقياء بشرطي يدعى أحمد بن موسى العسيري ، وجرحوا آخر . وتوقف الملك عبد العزيز عن الطواف قليلاً ، يُجيل نظره في الحرَم . فلما رأى أن الثلاثة لا رابع لهم أمر بإغلاق أبواب الحرم ، وعاد إلى إتمام طوافه ، كأن لم يكن هناك شيء . وخرج بعد الشوط السابع مسرعاً إلى « منى » قبل انتشار الخبر في الحجيج .

وكان الحج اليماني كبيراً ذلك العام ، يقارب عشرة آلاف حاجّ ، بينهم عبد الله ابن الوزير .

وانصرف همّ الملك ، على الأثر إلى كفّ الحُجّاج ، من أهل نجد على الخصوص ، عن مسّ أحد من اليمانيين بسوء ، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

وتلقى الملك برقية من الإمام يحيى يستنكر بها الحادث ويستفظعه ويبرأ إلى الله من جريرته .

وتهامس الناس فيمن تعلق به التهمة ، في تدبير هذه المؤامرة بصنعاء ، فاتجهت إلى « سيف الإسلام أحمد » كبير أبناء الإمام يحيى .

وتناساها عبد العزيز ...



من كلامه :

— المسلمون ينقصهم معرفة الزعماء والأشخاص ونفسياتهم . لأن هناك أشخاصاً من المسلمين يتظاهرون بالغيرة والتضحية وهم في حقيقة الأمر على عكس ذلك . يتظاهرون بالغيرة ، ويسعون في الخفاء لتنفيذ مآربهم الشخصية والتجسس على حال إخوانهم . وهذا أمر يؤسف له ، لأن الأضرار التي لحقت بالمسلمين والعرب جاءت من هذه الطريقة .

من خصائص الملك عبد العزيز

كان موظفو « الديوان الملكي » يقولون انهم قد يضبطون ساعاتهم على تنقلات الملك وأعماله اليومية المعتادة . كخروجه من قصره الداخلي وعودته إليه ، وجلوسه للنظر في الأعمال ، وقيامه للنزهة وابتدائه السهرة وغير ذلك . فهو من أشد الناس بل أشدهم . محافظةً على برنامج عمله ، حتى في أسفاره وأيامَ كانت مطاياه ظهور الخيل والإبل .

اعتاد أن يستيقظ قبل الفجر بنحو ساعة . فيقرأ سوراً من القرآن الكريم ويتعبد ويتهجد . وكثيراً ما يُسمع له نَشيج . ويستمر إلى أن يؤذن الفجر . فيصلي الصبح مع « الجماعة » ويسبّح ويقرأ ورد الصباح ، ويدخل فيضطجع إلى أن تشرق الشمس . وينهض فيغتسل ويلبس ثيابه ويفطر . ثم يخرج إلى المجلس الخاصّ فتُعرض عليه مهام الحكومة في فترة غير طويلة . يأذن بعدها بالمقابلات الخاصة لكبار الزوار . ثم ينتقل إلى المجلس العامّ ، حيث يدخل كل من يريد مقابلته ، ويمكث نحو ساعة . فاذا اقترب وقت الظهر ، نهض للغداء ، ومنه إلى القصر فيستريح قليلاً . ثم يصلي الظهر مع الجماعة ويعود إلى مجلسه الخاصّ فيُعرض عليه ما تجدد من الشؤون العامة . إلى صلاة العصر . ويجلس بعدها لإخوانه وأولاده وأقاربه وكبار الموظفين . ثم يخرج بسيارته إلى ظاهر المدينة للرياضة . ويعود بعد صلاة المغرب .

وبعد العِشاء يجلس في مجلس شبه عام . وهناك يحضر « القارىء » فيتلو فصولاً من كتب مختلفة (كما سيأتي) . وبعد قليل يدخل قارىء

الإذاعة العربية فيتلو ما التقط من محطات الإذاعة الشرقية من متنوع الأخبار. ويأتي بعده قارىء الاذاعات الأجنبية ، وقد ترجم أهم ما أُذيع . ويتكرر قُرّاء الإذاعات في الضحى ، وبعد العصر والهزيع الأول من الليل .

وفي نحو الساعة الرابعة عربية (العاشرة زوالية) مساءً ينفضّ المجلس بنهوض الملك عائداً إلى داخل القصر ، بعد أن يتلطف بكلمات يختمها بتحية الجميع : السلام عليكم .

مائدتــه :

كان يجلس على مائدة الملك عشرات من الناس ، غداءً وعشاء كل يوم . وإن كان عنده ضيف ، جعله أقربهم إليه ، على يمينه . ويجلس الأمراء مصطفين بحسب أعمارهم ، على يساره ، يقابلهم إلى يمينه وزراؤه ومستشاروه وكبار الدولة . ثم يجلس من يليهم على الجانبين من دون ترتيب .

ولا تقييد في وقت دخول الآخرين ، فقد يجيء أحد الكتّاب أو صغار الموظفين العسكريين أو الملكيين ، أو بعض رؤساء البدو ، في منتصف الطعام ، أو أواخره فيجلس حيث ينتهي به المجلس ولا يتخلى أحد لآخر عن مكانه في خلال الطعام .

وإذا شبع أحد الآكلين ، انسحب . وقد ينصرف نصفهم أو أكثرهم والملك يتحدث مع من حوله أو مع أحد البعيدين عنه ، ويتمهل إلى أن يشعر بأن الجالسين اكتفوا ، فينهض .

وإذا قام الملك ، قام معه جميع الآكلين ، حتى الذين جاؤا متأخرين . ويتجه إلى غسل يديه بالطست والإبريق والصابون. وكذلك يفعل من شاء منهم . والطسوت تتعدد إذا كثر الطاعمون .

ثم يأخذ زجاجة ، فيها عطر الورد ، فيتطيب . ويتهافت عليه من حوله ، فيمس كل منهم مِرْود الطيب . وتدور القهوة، وينصرف من أراد ولا استئذان في الانصراف .

طعـــامه :

كان قليل الطعام ، بالنسبة إلى كبر جسمه .

يأكل ثلاث مرات في اليوم . وتكاد أنواع الطعام التي اعتادها ألاّ تتغير . ففطور الصباح ، ويسمونه « الرَيـّوق » يتألف من الخبز والعسل واللبن الرائب . والغَداء وموعده الضحى ، يكون من الأرز واللحم مطبوخين معاً ، وإلى جانبهما نوع من الخضار . وقد يكتفي باللحم ، مشوياً أو مقلياً . ومثله العشاء وهو يكون قبيل الساعة العاشرة عربية ، الرابعة بعد الظهر زوالية ، ويـُزاد فيه شيء من الحلوى .

شرابه المفضل :

وكان يكثر من شرب حليب النياق .

والماء المفضل عنده ، ماء بئر « الجـِعـْرّانة » يـُحمل إليه شرابه منها يومياً حين يكون في مكة أو قريباً منها . أما إذا كان في الرياض ، فان « ماء الجعرانة » من هدايا خاصته إليه ، معبأ في ثلاجات .

وهذه البئر ، تاريخية ، من قبل عصر النبوة ، على ١٨ كيلو متراً من مكة .

قهوتـــه :

ويكرر الملك عبد العزيز شرب « قـَطـَرات » أو نقط من القهوة العربية المصفاة المصنوعة من قليل من البن والزعفران ، وكثير من « الهيل » .

وكان يسترعي انتباهَ ضيوفه الجدد ، سماعـُهم في مجالسه العامّة ، كلمةً لها دويّ بين الفينة والفينة . فإنه حين يريد القهوة ، يقول بصوت خافت : اقهوه ! ويردد الخـُويـّا والزُكـُرت الجالسون في أقصى المجلس : اقهـَوّ .. وتتعالى الأصوات بها حتى خارج المجلس فيسمع السقاة ، ويأتي بها ثلاثة

منهم أو خمسة ، حسب قلة الجالسين أو كثرتهم ، وبأيديهم اليُمنى أباريق القهوة ، وباليُسرى ما لا يقلّ عن ستة فناجين يحملها كل منهم ، بعضها فوق بعض .

ويتقدم أحد السقاة فيصبّ للملك . ويبدأ الثاني والثالث معاً . عن يمين الملك ويساره ، بحركة سريعة يُسمع فيها رنين الفناجين ، فيَسقون من في المجلس . ومن لم يُرد أن يشرب أشار إلى الساقي بكلمة « بَس ّ » فيتجاوزه . ويعودون فيجمعون الفناجين . ومن ترك بقية في فنجانه ، كبّها الساقي على الأرض المفروشة بالسجاد العجمي . ومن أراد الزيادة ردّ الفنجان إلى الساقي ، فيصبّ له ثانية وثالثة ورابعة إلى أن يرتوي . ومن اكتفى ، هزّ الفنجان عند تسليمه إلى الساقي ، أو ردّه إليه مقلوباً ، أو غطاه ببعض أصابعه ، أو قال له : بس .

حدثني أحد السفراء أنه في زيارته الأولى للملك عبد العزيز ، أديرت القهوة ، وكان لا يستسيغها إلا بالسكّر . فشربها حياءً كما يشرب الدواء . وردّ الفنجان إلى الساقي ، فمُلِىء وأُعيد إليه ، فشربه مكرهاً ، وتكرر ذلك فقال للساقي : أرجوك .. بزيادة ... (وهو تعبير في بلاد الشام ، يراد به كفى) فظنه يطلب الزيادة ، فأتحفه بها .. وحار في أمره ، فتنبه له أحد الحضور وأخرجه من المأزق .

سيوفه :

كانت للملك عبد العزيز عناية بالسيوف وخبرة في أجناسها ومعرفة بتواريخها وقد أمر بالمحافظة على السيوف القديمة التي اشتهرت في الأسرة السعودية ، واهتمّ بجمع ما تفرق منها في حوادث الفتن الأهلية وغيرها .

وكان يرى السيوف الفارسية أفضل من الهندية ، ويفضل الهندية على اليمانية.

ويحب السيوف الفارسية القديمة ولا سيما الجنس المسمى « خريسان »

ـ ولعله من صناعة خراسان ـ والجنس المسمى « دابان » وقد انعدمت صناعتهما من مئات السنين والموجود منهما الآن نادر جداً .

وأكثر السيوف القديمة الموجودة في الأسرة السعودية ، من الصنف الثاني (دابان) ومنه السيوف الآتية : « رقبان » وكان من أحب سيوفه إليه ؛ و « صويلح » و « ثُويني » و « ياقوت »

الانطباع :

كان لما يراه أو يلمحه انطباع سريع في نفسه ، من حيث لا يشعر . وإذا تمكن من نفسه خاطر ، لهج به وتحدث عنه في مجالسه ، ومع نفسه ..

وكان يُرى أحياناً يتحدث منفرداً بصوت مسموع .. لا يكتفي بالتفكير بل يزيد عليه التعبير .

قل : والله !

في اجتماع الملك عبد العزيز بالملك فيصل بن الحسين ، أراد فيصل تأكيد أمر ، فقال : وحياة رأسك ! فنظر إليه عبد العزيز وقال : قل والله ..

ذوقه في الأسماء :

وكان للملك عبد العزيز ذوق خاصّ في الأسماء : اتصل بخدمته خالد القرقني من مجاهدي طرابلس الغرب . واستثقل الملك لفظ « القرقني » فدعاه بأبي الوليد ، فكان يقال له : خالد أبو الوليد ، إلى أن رُزق غلاماً فسماه الوليد.

والتاء المربوطة :

وكان لا يجري على لسانه السكون في أواخر الأسماء المنتهية بالتاء المربوطة كمدحت ، وحكمت وطلعت ، فيجعلها هاءً ساكنة : مدحه ، حكمه الخ ..

حبه للمناقشة :

وكان يكره أن يجامله مجالسوه من خاصته ، بالموافقة على كل ما يقول .

ويقرّب من يناقشه ويجادله . وعرفوا فيه هذه الخلة ، فبالغ بعضهم فيها .

يقولون شجاع :

وقال في حديث له مع بعض خاصته : في الناس من يصفني بالشجاعة ، وما الشجاعة ؟ كنت في بعض أسفاري مع اثنين من أصحابي ، أحدهما فيصل الدويش . وخرجت علينا خيل ، فهلع قلبي ، ولكنني تجلدت مخافة العار . وما لبث صاحباي أن لويا عنان فرسيهما ، فتبعتهما منحاشاً . ولو فررت قبلهما لفضحاني بين العرب !

ومن كلامه :

— أنا عربي ، ومن خيار الأسر العربية . ولست متطفلاً على الرئاسة والمُلك . وإن آبائي معروفون منذ القدم بالرئاسة والملك . ولست ممن يتكىء على سواعد الغير في النهوض والقيام ، وإنما اتكالي على الله . ثم على سواعدنا يتكىء الآخرون ويستندون إن شاء الله .

، ، ،

— أنا قويّ بالله تعالى ، ثم بشعبي . وشعبي كلهم ، كتابُ الله في رقابهم ، وسيوفهم بأيديهم ، يناضلون ويكافحون في سبيل الله . ولست أدعي أنهم أقوياء بعددهم أو عُددهم ، ولكنهم أقوياء — إن شاء الله — بإيمانهم .

، ، ،

— إذا كان المسلمون والعرب في منعة من التعاضد والتكاتف ، فليست هناك قوة في مقدورها مهاجمتهم وإذلالهم .

ومن سيرتـــه

إلى موظفي البرق والبريد :

اتصل بالملك عبد العزيز أن برقية شكوى تأخر وصولها إليه،أو وصلت مقتضبة خوفاً من نفوذ المشكوّ منه ، فعاقب المسؤول ، وأصدر الإرادة الملكية الآتية :

« كل شكاية تُرفع لنا عن طريق البرق أو البريد ، من أي شخص كان ، يجب أن تُرسل لنا بنصها ولا يجوز تأخيرها ولا إخبار المشتكى منه ، سواء أكان أميراً أو وزيراً أو أدنى أو أكبر من ذلك »

اللهم اشهد :

وكتب حاجّ سنة ١٣٧٢ ه : بينما كنت داخلا من الباب المجيدي ، في الحرم النبوي ، لزيارة المصطفى عليه الصلاة و السلام ، لفتت نظري لوحة إعلانات معلقة على جدار المسجد ، وفيها « الإعلان » الآتي نصه :

« من عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود ، إلى شعب الجزيرة العربية :

« على كل فرد من رعيتنا يُحس ّ أن ظلماً وقع عليه ، أن يتقدم إلينا بالشكوى . وعلى كل من يتقدم بالشكوى أن يبعث بها ، بطريق البرق أو البريد المجاني على نفقتنا .

« وعلى كل موظف بالبريد أو البرق أن يتقبل الشكاوى من رعيتنا ولو

كانت موجهة ضد أولادي أو أحفاد ي أو أهل بيتي .

« وليعلم كل موظف يحاول أن يثني أحد أفراد الرعية عن تقديم شكواه ، مهما تكن قيمتها ، أو يحاول التأثير عليه ، ليخفف من لهجتها أننا سنوقع عليه العقاب الشديد .

« لا أريد في حياتي أن أسمع عن مظلوم ، ولا أريد أن يحمّلني الله وزر ظلم أحد ، أو عدم نجدة مظلوم أو استخلاص حق مهضوم .

« ألا قد بلغت .. اللهم فاشهد ! »

ديمقراطيته :

قال الكاتب المصري إمام أبو شنب : شاهدت بعيني رأسي أعرابياً قزماً يدخل على الملك عبد العزيز ويريد تقبيله في جبينه . فلما لم يستطع لقصره وطول الملك ، أمسك برأس جلالته ، وقربه إليه قائلاً : كيف أنت يا عبد العزيز ؟

لا ينسى معلمه :

نقلت الصحف في ٢٠ ذي القعدة ١٣٥٤، من أخبار بغداد ، أن الملك عبد العزيز لما وصل إلى الكويت زائراً ، سمع أن معلماً له كان يقرأ عليه القرآن في أيام طفولته ، موجود بها فاستدعاه ولاطفه ومنحه ثلاثة آلاف روبيــة .

بشاشته :

قلما كان عبد العزيز يتحدث ، إلا والبشاشة على وجهه ، يكره العبوس ويأبى أن يتسم بسمات الجبارين ويحب النكتة ويضحك لها إذا جاءت في وقتها ، ويرويها .

لا يخص بها حاشيته وخاصته ، بل كثيراً ما يتخلل مفاوضاته مع رجال السياسة ، مَثَل يضربه لنكتة فيه ، أو بيت شعر يتمثل به ، فيتحول المجلس من تجهم وغموض وفتور ، إلى حركة وصراحة وبشاشة .

لا تجعل عدوك في قلبك :

سمعته مرة في مجلس « ديبلوماسي » والحديث عن حلف أوربي يضم دولة لا تتفق أهدافها مع الآخرين ، يروي أن حية فرت من عدوّ لها ، فلقيت إنساناً فتضرعت إليه أن تختبىء في جوفه . فرقّ لها فدخلت في امعائه ، فلما مرّ عدوّها وأمنت ، خيّرت الإنسان في الميتة التي يفضلها : أتعضه فيتألم ويموت أم تنفث فيه سمها ، فيفقد الحياة ؟.. فذكّرها بإحسانه إليها وإيوائه لها ، فقالت : أنسيت عداءنا القديم من عهد آدم ؟... فقال : هذا جزاء من يجعل عدوه في قلبه .

ثلاثة لا تناقشهم :

وسمعته يوماً يتنادر على بعض الأطباء فيقول : ثلاثة لا تناقشهم : الغريب ،والهَرِم، والطبيب ! فالأول يحدثك بالعجائب ، فاذا عارضته قال : رأيت ذلك في بعض أسفاري . والثاني يأتيك بما لا يرضاه العقل ويقول : كان هذا في أيام صباي . والثالث يسمي لك أمراضاً ليست فيك ، ويقول : قرأت هذا في المدرسة .

في أيام حروبه :

قال كاتب في وصفه : كان إذا نام فرفيقه سيفه ، وأيسر حركة توقظه .

عوّدته حياة الكرّ والفرّ أن يستيقظ فجأة ، ليثب إلى جواده المربوط عند باب خيمته ، ثم ينطلق كالريح إلى حيث يريد .

كما يصفه الاجانب

« عبد العزيز ابن سعود ، أجدر ملوك المسلمين بالخلافة »

الامبراطور غليوم

« هل بين ملوك الشرق الحاضرين من يضارع ابن سعود ؟ لا أذكر حاكماً قوياً وصل إلى مكانة هذا الملك الذي لا يعدله ملك في العالم الإسلامي . فهو الجنديّ البطل ، والمصلح الكبير ، والمُخْلص لدين الله ، والإنسان الظريف الكريم الصريح الثابت الذكي الشجاع المتواضع إلى حد بعيد »

الانكليزي وليامز — ١٩٣٥

« إن الإقليم الذي تنطبق عليه الصفة القومية الاستقلالية أعظم انطباق ، هو العربية السعودية التي يحكمها الملك ابن سعود ، أعظم عربي في الشرق الأوسط . »

الاميركي جون جنتر ، من كتابه في داخل آسيا ١٩٣٩

« ابن سعود رجل ذو خُلق قويّ وإرادة نافذة ، استطاع بهما أن يؤسس الوحدة والنظام في مملكته الواسعة التي لم يسبق لها أن عرفت السلام قط إلا في أيام حكمه . وهو أعظم شخصية في العالم العربي اليوم »

إيفننج وورلد ١٩٣٨

« الملك ابن سعود : مسلم ورع ، تحلى بصفات السياسي المحنك واستطاع بدهائه العربي أن يصبح أبرز شخصية في العالم الشرقي »

رفيوبلج ١٩٣٨

« حادّ النظرات . ينظر إلى محدثه ويدرسه دراسة سريعة . هذا هو ملك الجزيرة العربية الذي قام بما يشبه المعجزات . وأسس ملكه بين عشية وضحاها ، بغير وجل . وهو بعيد المطامح طويل التروي ، لا يحب المجازفة ويعتقد أن الاستعداد للأمر ودراسته هما الوسيلتان للنجاح »

الكاتبة الفرنسية أندريه ڤيوليس ١٩٣٧

« ابن سعود حاكم مثقف ، لم يُقدر للبلاد العربية أن تحظى بمثله في غير الشاذّ النادر من المرات »

فلبي ١٩٢٩

« من النادر أن تجد رجلاً تجمعت فيه المزايا التي تجمعت في ابن سعود ، فهو جندي موفق ظافر ، ومصلح مبدع مبتكر ، وتقي ورع صالح ، وجواد سخي سمح . وراسخ وطيد متين ، وذكي حاذق لبيب ، وشجاع جريء مقتحم وإنسان لطيف مهذب ، نبيل في تواضعه جليل في احتشامه »

الكاتب الانكليزي : كنث وليمز

« الملك الذي جرد السيف في سبيل دينه وعقيدته ، يجمع في طبيعته روح الحرب وروح السلم . لا يقاتل الناس ولا يعتدي عليهم ، وإنما يحارب الجهل ، ويقاتل الجمود ، ويكافح التأخر »

المستشرق المجري الدكتو جرمانوس ١٩٣٥

« كان أبرز ما ظهر من صفات ابن سعود بعد استيلائه على الرياض : النخوة ، والشجاعة ، والحيوية البالغة ، والجاذبية الخلابة ، والشخصية المحبوبة ، وصواب الفكرة ، والاستقامة التامة ، مضافاً إليها خلق المقدرة على العفو عن أعدائه من جهة ، والشدة بل القسوة من جهة أخرى عند الاقتضاء »

روى لبكيتشر ١٩٥٠

« أوجد ابن سعود شعبه بقوة ذراعه وصائب رأيه »

لبكيتشر

« إن المدة التي قضاها ابن سعود ، في خلال تنقلاته الأولى ، مع أُسرته بين أطراف الربع الخالي وقطر والبحرين والكويت ، جعلته يتذوق بساطة البدو ويفهمهم ، وكان ذلك من العناصر القيمة في تكوين زعامته »

لبكيتشر

« من عادة الملك ابن سعود أن يعالج الأمور بحنكته وسياسته السلمية فاذا اضطُر إلى امتشاق الحسام لم يتردد .. »

تويتشل

« لا يسع المرءَ إلا أن يعجب لشخصية الملك عبد العزيز آل سعود ، ويؤخذ بها أخذاً . والواقع أن المملكة العربية السعودية ، هي ابن سعود ، لا أكثر ولا أقل . فقد أوتي براعة سياسية لا يرقى الشك إلى مقدرته فيها ، وقدرة فائقة على إثارة مشاعر الرجال ، وفراسة في معرفة خافية النفوس واتجاه الحوادث . وقد اقترنت هذه المواهب جميعاً ، بصدق التعبير عن قضية العرب ، وإيمان بالغ بها . وليس من شك في أن اسم عبد العزيز آل سعود ، سيخلد في التاريخ ، بل خلد فعلاً »

مجلة بريطانيا العظمى والشرق ١٩٤٥

« قد يكون ابن سعود ، الرجل العربي الوحيد الذي برز منذ ستة قرون في الجزيرة العربية »

الألماني أميل سوايزار ١٩٣٥

« الملك عبد العزيز ، أحكم وأقوى من عرفت من قادة البلاد العربية. وإنه لرجل بعيد النظر ، نافذ العزيمة ، مستعد لقيادة شعبه إلى التمشي مع ركب التقدم العالمي »

الأميركي ميجر جنرال باتريك ج. هيرلي

روزفلت وفيصل وعبـــد العزيز

في ١٩٤٣/٩/٣٠ (آخر رمضان ١٣٦٢) أُقيمت مأدبة عشاء في واشنطن لتكريم الأمير فيصل ، تكلم فيها الرئيس روزفلت فقال :

يا صاحب السمو الملكي ! أظن أن كلاً منا هنا يدرك أن هذه العشية تاريخية مجيدة . ففي تاريخ بلادنا الطويل ، وفي تاريخ الجزيرة العربية الأطول ، لم يكن هناك مآدب مثل هذه المأدبة . لقد جئنا ليعرف كل منا الآخر . وأظن أن شعبينا العظيمين متفقان أن علينا أن ننشد في المستقبل المزيد من معرفة بعضنا بعضا .

هناك قليل جداً من الاميركيين في جزيرة العرب ، يقابلهم نفر قليل من العرب في كل أميركا . وهكذا كلما كثُر تلاقينا في الأيام المقبلة زادت صلات الصداقة بيننا . لا الصداقة السياسية فحسب ، بل الصداقة الشخصية أيضاً.

إننا نشترك في كثير من الصفات . فكلانا — أي كلا شعبينا — يحب الحرية ، وليس هنالك ما يمنع الأمتين كلتيهما من التمسك بالحرية .

ولدينا الكثير مما يجب أن نعرفه عن بعضنا . وإنني آمل أن نتمكن في الأيام القادمة من بحث أمورنا بروح الأصدقاء .

لقد أخبرت صاحب السمو الملكي ، في العشاء أنني أعرف أن إحدى المشاكل في الجزيرة العربية هي عدم وجود المياه الكافية في أماكن كثيرة من البلاد ، وأيضاً عدم وجود أشجار كافية . ولقد أخبرته بما كنا نقوله في أيام صغرنا عن صحراء أميركا الكبرى . وهي القطعة الممتدة في بلادنا من الشمال

إلى الجنوب حيث كان الماء يسيراً والشجر قليلا .

ذكرت هذا للتوضيح فقط ، لأن الجزيرة العربية بلاد غنية بالموارد الزراعية وموارد باطن الأرض وظاهرها وأود أن أؤكد لصاحبي السمو الملكي كليهما (وكان الأمير خالد بن عبد العزيز مع أخيه الأمير فيصل) أن الولايات المتحدة أمة لا تنشد استغلال أية أمة أخرى ، مهما يكن قدرها .

وكم كنت أود لو استطاع والد هذين السيدين القدوم بنفسه . وآمل أن يشرفنا بزيارتنا هنا يوماً ما . كما آمل أن أذهب بنفسي ذات يوم لزيارته في الجزيرة العربية .

أظن أننا كلنا نعرف أن الملك شخص عظيم جداً . وقد كنت أقرأ في عصر هذا اليوم مجلة صغيرة كانت كلها عن الملك ، وكانت بها فقرة قصيرة في النهاية أعجبت بها كثيراً إذ أن كل ما جاء فيها يتفق وفلسفتي الشخصية .

إن من أشد صفات ابن سعود ، إيمانه السامي بعدالة الخالق الأبدية. ولذا لم يدهشه أن الله الذي أرسل الغيث إلى البلاد العربية قديماً . قد فجّر فيها ينابيع الزيت حديثاً . لا ولن يدهشه كثيراً أن يأتي الله بنصر من عنده للعالم الشريف الخليق بذلك النصر .

وأظن أننا لو عملنا جنباً إلى جنب ، بمثل هذه الفلسفة التي هي فلسفة عربية ، كما أنها فلسفة أميركية ، لاستطعنا أن نساهم في إيجاد عالم أكثر هناء ، ودنيا أوفر شرفاً في السنين المقبلة .

وفي الختام أحيّي جلالة عاهل الجزيرة العربية ، وليته كان معنا في هذه الليلة !

زعماء العرب ، وعبد العزيز

من أقدم ما كتب عن عبد العزيز ، كلمة للأمير « ضاري بن فهيد » من آل رشيد ، أملاها سنة ١٣٣١ (١٩١٣ م) قال فيها :

« أما ابن سعود ، عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل ، فهو رجل شجاع صاحب سياسة في قومه وله تصرفات في الحرب ومكائد أكثرها ينجح .

« وهو مديد القامة ، حتى إنه ليس في نجد اليوم أطول منه ، وهو مع ذلك متناسب الأعضاء ، حسن الوجه أبيض ، خفيف اللحية والعارضين . وهو جواد محبوب ، ذو رأفة بعشيرته وممالكه »

، ، ،

ولما خرج الملك فيصل بن الحسين من دمشق سنة ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م) دار الحديث في حيفا بينه وبين الدكتور شهبندر وجميل مردم وسيدة انكليزية ، فقال الملك فيصل :

« أنا ذاهب الآن إلى لندن ، فاذا نجحت في مهمتي واستطعت أن أعيد للسوريين استقلالهم فبها ، وإلا فليس أمامنا جميعاً غير ابن سعود ، فهو الوحيد الذي يُنتظر منه توحيد البلاد العربية وتوطيد استقلالها .

، ، ،

« من نعم الله على الجزيرة ، أن يحكم فيها ملك عظيم الشأن ، كالملك عبد العزيز . عرفته وصحبته من خمسة وثلاثين عاماً ، قبل أن يلي الحكم ،

وبعد أن وليه . فما غرّه الحكم ولا فتنه التاج والسلطان وما برح الفارس الشجاع والقاضي العادل والسياسي المحنك »

أحمد الجابر الصباح ١٩٢٦

« إن عبد العزيز هو خير من يستطيع أن يحكم الجزيرة العربية »

الملك علي بن الحسين

« ابن سعود ، هو الذي مهد للوحدة في شبه الجزيرة ، وهو الذي لفت أنظار المسلمين في مختلف أنحاء العالم إلى البلاد العربية وأهلها ، ولم يكن يفكر فيها أحد من قبل إلاّ من جهة أنها البلاد المقدسة »

محمد حسين هيكل

« ابن سعود ، من أولئك الزعماء الذين يراهم المتفرسون المتوسمون فلا يحارون في أسباب زعامتهم ولا يجدون أنفسهم مضطرين أن يسألوا لماذا كان هؤلاء زعماء ... لأن الإيمان باستحقاق هؤلاء لمنزلة الزعامة في أقوامهم أسهل كثيراً من الشكّ في ذلك الاستحقاق »

عباس محمود العقاد

« ليس ابن سعود من أعظم رجال القرن العشرين فحسب ، بل هو من أعظم رجال التاريخ كله . ولست أنا الذي أصدر هذا الحكم ، وإنما أصدره إنكليزي عرف عبد العزيز من زمان طويل ، وتتبع سيره منذ كان فتى شريداً طريداً إلى أن أصبح الملك المطلق في جزيرة العرب »

محمود أبو الفتح ١٩٣٠

« شيئان هائلان في الجزيرة : الصحراء وابن سعود . ابن سعود عبارة عن عالَم في رجل ملمّ كلّ الالمام بدخائل ملكه ، مؤمن متدين إلى حدّ عظيم . قالوا : إن الذي يصغي إليه وهو يقرأ كتاب الله في الليل لا يملك نفسه عن البكاء »

عوني عبد الهادي ١٩٣٦

إكباره للعلماء واساليبه في الاقناع

كان لعلماء الدين المقام الأول عند عبد العزيز ، يقدمهم على إخوانه وأبنائه وكبار جلسائه . ويصغي إلى آرائهم ويبالغ في إكرامهم .

وعوّدهم إذا بدا لهم أمر ، ورأوا فيه « النصيحة » له ، أن يجتمعوا فيما بينهم ، ويكتبوا خَطّاً (كتاباً) يذيلونه بتوقيعاتهم ، ثم يحضرون لمقابلته أو يكلفون واحداً منهم أن يعرضه عليه ، بالنيابة عنهم ، فيرى فيه رأيه ، و « الشيوخ أبخص » كما يقول جمهور النجديين ، أي : الملك أدرى .

وكان لكبارهم هيبة في نفسه ، لا يصطنعها ولا يتعملها . ولا سيما آل الشيخ ، حَفَدَة من قامت على دعوته دعائم المملكة في سابق عهدها . سُمع مرةً يقول : ما لقيت الشيخ – يعني عبد الله بن عبد اللطيف – إلا تصبّب العَرق من إبطي ..

ويبالغ الكتّاب في وصف ما كان يبذله من الجهد في بدء نموّ الدولة ، لإقناع المشايخ ، ولا سيما « الإخوان » سكان « الهِجَر » بأن استخدام الآلات الحديثة كاللاسلكي والتلفون والسيارات ، لا حرج فيه من الدين . ومن أشد مواقفه في نقاشهم يوم اتفق جمع منهم على أن دخول الأميركيين « الكفرة » إلى بلاد الأحساء وشواطىء الخليج (مناطق البترول) سيجرّ معه دخول المفاسد من خمر و « فونوغراف » وسواهما .

يقول فلبي ، في تاريخ نجد : « إن أول سيارة دخلت الحوطة (حوطة بني تميم) قد أُحرقت علناً ، في السوق العامّ ، وكاد سائقها يلقى مصيرها أيضاً »

وما حدث للسيارة ، حدث للتلغراف ، وللهاتف وللدراجة النارية .

على أن هناك ما لا ينبغي إغفاله ، وهو أن الملك عبد العزيز كان يعلم أن المرء عدوّ ما جهل، ويعلم أن أكثر من عارضوه في استخدام الآلات الحديثة إنما كانوا يَصْدرون عن نيه حسنة ، ويعلم أن هؤلاء ذوي النيات الحسنة خاصّة ، لم تكن معارضتهم ، لرغبة في الشغب ، أو لعرقلة تقدمه الاجتماعي والنظامي بالدولة ، بل يعارضونِ لأن الواجب ديناً ، ولأن من مقتضيات الإخلاص للإمام ، أن ينصحوه فيما يعنّ لهم أنه انحرف فيه عن نهج السّداد .

ولا شكّ في أنه بعد أن رسخت دعائم الدولة ، كان من اليسير عليه أن يقابل المتدخلين منهم فيما لا يعنيهم ، بالإعراض ، ويتابع سيره فيما يعتقد صلاحه لبلاده ، ويأخذ متشدّديهم بالزجر . ولكن عبد العزيز الحكيم المتأني الحريص على أن تلتفّ قلوب الناس حوله قبل جسومهم ، كان يُكْبر — في دخيلة نفسه — جرأتهم ويُجلّ صراحتهم ، ويطيل التفكير في حَلّ عُقدهم النفسية ، ويلتمس العذر لمن عادى ما يجهل منهم ، ويقدّم الإقناع على الإسراع . فعمد إلى شتى الوسائل لإزالة ما علق في أذهان فريق منهم من أن الآلات الحديثة ضرب من السحر أو عبث من الشيطان . فلما أدركت كثرتهم بُطلان ذلك مضى في سبيله يبني ويجدّد ويصلح .

ولم يخلُ الجوّ فيما بعد ، من « تصلّب » أفراد منهم ، كان يجاريهم فيما يهون عليه أن يجاريهم فيه ، من آراء وتدخلات . وأيسرها عنده ما يتعلق به شخصياً ، كموقفه يوم تقرر الاحتفال بعيد رسميّ لمرور خمسين عاماً على فتح الرياض (٤ شوال ١٣٦٩ / ٢١ يوليو ١٩٥٠) إلا أن وزارة الخارجية في جدة ، ما عتمت أن أصدرت بياناً قالت فيه : « كانت الحكومة قد قررت الاحتفال بالذكرى الذهبية لدخول جلالة الملك إلى الرياض منذ ٥٠ سنة وقد استفتى علماء الدين مؤخراً في ذلك ، فأفتوا بأنه ليس من سنن المسلمين ولا يجوز أن يتّخذ المسلمون عيداً إلا عيدي الفطر والأضحى .

ونزولاً من جلالته على حكم الشريعة ، أمر بالغاء المراسم والترتيبات »

وسواء أكان الملك عبد العزيز قد استفتى العلماء ، كما يقول بيان الخارجية أم أن العلماء « تطوعوا » لإفتائه ، كما فهمنا وفهم جميع الناس يومذاك ، فإن هذا لم يكن بالأمر الذي يعزّ عليه الاستسلام أمامه والموافقة عليه ، لعلاقته به وبيوم من أيام انتصاراته . أما إذا بلغ الأمر بأحدهم مبلغ المس من قريب أو بعيد ، بسياسة الدولة أو سير عجلة الإصلاح ، فهنالك « الحزم » بعد استنفاد أساليب الإقناع ، خصوصاً عندما كانت الدولة في إبّان نشوئها .

ثم كان الملك عبد العزيز في المدة الأخيرة من حياته ، إذا ذكر ما لقي من بعض المشايخ في أيام وثبته ، أكثر من حمد الله على توفيقه له في أخذ النصحاء منهم بالرفق . ونوّه بذكر السابقين منهم إلى الاقتناع ، وبما كان لمواقفهم في نصرته ، من الأثر في قمع المتشدّدين وهداية المسترشدين .

الخيل ، ورأي الملك عبد العزيز فيها

كان عبد العزيز ، من بدء حياته ، وإلى ما بعد ظهور السيارات والطيارات كثير العناية بالخيول الأصيلة . وكانت اصطبلات خيوله الخاصة في الرياض ، كما وصفها خبير بالخيل سنة ١٣٥٥ (١٩٣٦ م) تحوي أشهر « المرابط » وقدر عددها يومئذ بنحو ألف فرس ، وقال : إنها ترعى في أنحاء مختلفة من الصحراء ، منها ٢٠٠ اختصّها الملك بالتفضيل على سواها ، لأن معظمها من خيول أجداده ، فوضعها في واحة « الخَرْج » حيث تجد كفايتها من البرسيم الحجازي ، وتشرب من المياه الجارية من ينابيع الخَرْج

وكان من أجود خيله في حروبه الأولى ، فرس يفضلها لركوبه ، اسمها « مُنيفة » قُتلت في إحدى المعارك ، واستعاض عنها بفرس أخرى تسمى « الصّويتية »

وفي حديث له عن « الخيل » في تلك السنة، قوله :

« كانت الخيول العربية ، ضرورية جداً للبدو ، قبل عشرين عاماً . حيث كان الغزو قائماً بينهم على قدم وساق . فكان البدوي لا بدّ له من أن يقتني فرساً أو أكثر مهما يكلفه ذلك من غذاء وماء لها . حتى حليب إبله ، فإنه يؤثر به أفراسه على أولاده ونفسه . أما الآن وقد أصبح الغزو أثراً بعد عين والبلاد آمنة ، فليس هناك حاجة إلى رباط الخيل .

ثم قال :

« وكانت الخيل فيما مضى ، عدة من عدد الحرب لصاحبها ، إذ كانت وسائل المقاتلة بالسيوف والحراب ، والبنادق القصيرة المَدى . أما اليوم وقد صارت الحروب بالبنادق البعيدة المرمى . فقد أصبحت حياة الخيول وركابها عُرضةً للخطر المحقق ، حيث يلحقها رصاص هذه البندقية السريعة الطلقات ، البعيدة المرمى . وسرعتها تفوق سرعة الخيل بمراحل .

، ، ،

وقال الجيولوجي« تويتشل » : « إن الملك عبد العزيز وأبناءه ومعظم البارزين من العرب السعوديين ، يلذّ لهم ركوب الخيول والسباق ، وكثيراً ما يشاهدون في المسابقات في الرياض والطائف ومراكز أخرى ، حيث يشترك الأمراء أحياناً فيها . ويملك الملك إصطبلاً كبيراً يشتمل على الخيول الأصيلة ، في اليمامة ، قرب الخرج »

، ، ،

وفي الرياض ، عدا خيل الملك عبد العزيز ، خيول معروفة الأصول، جمعت وزارة الزراعة السعودية ، بعد وفاته ، طائفة منها في إصطبلات على الطريقة الحديثة سمتها « مركز تربية الخيول العربية »

وزارة الـــدفاع

قالت جريدة « أم القرى » في ٤ شوال ١٣٦٩ (١٩٥٠ م) ما خلاصته : إن الجيش الذي كان يعتمد عليه الملك عبد العزيز ، في فجر حياته ، هو جيش الجهاد ، الذي كان مكوناً من حاضرة أهل نجد ، مضافاً إليه جيش « الإخوان » الذي كان من القبائل البدوية الرحالة التي وضع لها نظام « الهِجَر » وأنزلها من البادية إلى الحاضرة ، وأصبحت هجرها كثكنات عسكرية . وظلّ هذا سائداً إلى عام ١٣٤٨ (١٩٣٠ م) فأمر الملك بتكوين إدارة للأمور العسكرية ، بدأت بإنشاء الجيش النظامي .

وجرى في جدة أول استعراض للقوة العسكرية السعودية أمامه ، عام ١٣٤٩ (١٩٣٠ م) وكانت مؤلفة من : فوج من المدفعية ، وفوج من الرشاش ، وفوج من المشاة ؛ إلى جانب جيش الجهاد ، وجيش الإخوان .

وفي سنة ١٣٥٤ (١٩٣٥ م) بلغت القوات النظامية حداً اقتضى تشكيل وكالة للدفاع ومديرية للأمور العسكرية ، وأُلغيت تشكيلات الهجانة ، والتشكيلات غير النظامية ، عدا جيش الجهاد . وجُعلت القوات على ثلاثة صنوف : سلاح المشاة ، وسلاح المدفعية ، وسلاح الفرسان . ونُظم الجيش على أساس كتائب وألوية ، ووزع على المناطق ، تبعاً لوضع الدولة الجغرافي ، وجُعل مقرّ « وكالة الدفاع » بالطائف .

وفي عام ١٣٥٩ (١٩٤٠ م) أُلغيت مديرية الأمور العسكرية ، وأُقيم ما سُمي « رياسة الأركان الحربية » .

وفي أول ربيع الآخر ١٣٦٥ (٦ مارس ١٩٤٦ م) أُنشئت « وزارة الدفاع » وعين أول وزير لها (الأمير منصور بن عبد العزيز) وبدأت النهضة العسكرية في الجيش بارسال البعثات المختلفة إلى الخارج ، للدراسة .

وفي رجب ١٣٦٧ (١٤ مايو ١٩٤٨ م) اشتركت فرقة من هذا الجيش في الجهاد مع الجيش المصري ، للقتال في فلسطين ، كان قائدها العقيد سعيد الكردي، وقد أبلت هذه الفرقة بلاءً حسناً في القطاع الجنوبي من فلسطين .

وعلى أثر عقد الهدنة ،في أواخر جمادى الآخرة ١٣٦٨ (أواخر ابريل ١٩٤٩) تقرر إبقاء الفرقة ، بصفة موقتة ، في مصر ، وأدخل عدد من ضباطها وضباط الصف وجنودها ، مدارس الجيش المصري في مختلف فروع الأسلحة ، للتدرُّب والتمرن ، نظرياً وعملياً .

وأرسلت وزارة الدفاع بعثات إلى انكلترا وأميركا وأوربا والسودان . وتدرج الجيش متمشياً مع مقتضيات الزمن ، في أنظمته وتشكيلاته وأسلحته .

، ، ،

وفُجعت البلاد ، بعد سنين قلائل ، بفقد الأمير « منصور » عام ١٣٧٠ هـ (١٩٥١ م) فخلفه في وزارة الدفاع ، أخوه الأمير مشعل ، وكان قد سبق له أن مارس العمل فيها ، نائباً عن منصور .

واستقال مشعل (بعد وفاة أبيه) فتولاها الأمير فهد بن سعود ، ثم الأمير محمد بن سعود .

، ، ، ،

أما اليوم (سنة ١٣٩١ هـ ٩٧١ م) فوزير الدفاع والطيران هو الأمير سلطان بن عبد العزيز . تولى ذلك سنة ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م) وصدر مرسوم ملكي ، في العام الماضي بتعيين أخيه الأمير تركي ، نائباً له .

الطيران والمطارات

استعاض الملك عبد العزيز ، عن الذلول والسيارة ، بالطيارة . ومن المعروف عنه أنه كان إذا أحب شيئاً أكثر منه وحضّ عليه .

وأرسلت « بعثة » سعودية إلى إيطاليا ، عام ١٣٥٤ (١٩٣٥ م) مؤلفة من عشرة شبان ، لتعلم الطيران ، فتخرجوا وعادوا . وكانت حكومته قد اشترت سنة ١٣٤٨ (١٩٢٩ م) أربع طائرات من ذوات المحرك الواحد فعملوا عليها . وقاموا برحلات داخلية أول الأمر . وأمر بتقويتهم ، بزيادة التمرين فأوفدوا إلى مصر ، وعادوا عند نشوب الحرب العالمية (الثانية) وزيدت طائراتهم قبل ذلك أربعاً أخرى ، منها ثلاث للتدريب . ثم زيدت ثلاثاً من ذوات المحركات الثلاثة ، فطائرة افرنسية صغيرة سريعة حديثة الصنع ، فطائرة أميركية بلغ بها العدد ثلاث عشرة طائرة في مدة وجيزة

وأُنشئت للطيران (إدارة) خاصة أُلحقت بعد ذلك بوزارة الدفاع . وسميت « إدارة طائرات الخطوط السعودية »

وقويت عنايته بالطيران ، في أواخر الحرب (الثانية) وبعد انتهائها . فأوعز بشراء خمس طائرات أميركية من طراز « داكوتا » وأضيفت إليها ست من النوع نفسه ، فثلاث أُخر ، فخمسٌ من طراز « بريستول » فغيرها .

وأُنشيء خط طيران منظّم بين المملكة العربية السعودية ، ومصر وسورية ولبنان ، لنقل البريد والركاب والبضائع .

وقامت طائرات الخطوط السعودية برحلات كثيرة لنقل الحجاج من جدة إلى البحرين والكويت وكراتشي وبومباي والبصرة وبغداد وطهران

والخرطوم وكانو ولاغوس وجيبوتي وممبسّة وديريان وجوهانسبرغ وأديس أبابا وطرابلس الغرب وعدن ، كما قامت برحلات إلى أثينا وروما وباريس ولندن .

وأنشأت وزارة الدفاع « مدرسة » للطيران في الطائف ، أُرسل فوج من متخرجيها إلى انكلترة حيث أكملوا دراساتهم .

المطّارات :

وأول مطار أُنشىء في بلاد عبد العزيز « مطار جدة » حيث أُقيمت إدارة مصلحة الطيران المدني .

ثم مطار الحَوِيّة : على بعد ٢٨ كيلو متراً من الطائف .

وأُنشئت مطارات الرياض والخرج والأحساء والظهران ، ويُعدّ هذا من أعظم المطارات في الشرق الأوسط .

ثم مطار في رأس مِشْعاب ، وفي المدينة . وأُقيمت مطارات داخلية للرحلات الخاصة ، أصبحت الآن لرحلات عامة كمطار حائل ،ومطارات بُريدة وسكاكة وينبع والوجه ، وكثير غيرها .

الوزارة

وُجعلت للطيران « وزارة » بعد ذلك ، قُرنت بوزارة الدفاع ، وتولاهما معاً الأمير سلطان بن عبد العزيز سنة١٣٨١ (١٩٦١م) كما تقدم

أول مرة يطير بها عبد العزيز

كانت المرة الأولى التي ركب بها الملك عبد العزيز الطائرة ، رحلة قصيرة ، من بئر عفيف إلى الحوية ، قادماً من الرياض في ٢٤ شوال ١٣٦٤ (٣ أكتوبر ، تشرين الأول ١٩٤٥) ثم كانت مطيّته المفضلة في سائر رحلاته .

الموازنة المالية

أُجريت المحاولة الأولى لوضع ميزانية ثابتة للدولة ، في مطلع عام ١٣٤٨هـ (١٩٢٩ م) ولكن الميزانية تقررت عام ١٣٥٣ (١٩٣٤ م) وقد فُصّلت فيها أبواب الواردات والنفقات العامّة . واتبعت في وضعها طريقة تكليف الدوائر الرسمية أن تضع مشروعات مفصلة لموازنتها ، تقدّم إلى وزارة المالية ، فتدرسها وتبدي ملاحظاتها عليها . ثم تحال إلى مجلس الشورى فيدققها ويحيلها إلى مجلس الوكلاء لرفعها واستصدار الموافقة الملكية عليها . وبلغت النفقات في تلك الموازنة حوالي ١٤ مليون ريال وقدرت الواردات بمثل ذلك .

وأمامنا موازنة أُخرى لسنة ١٣٦٧ (١٩٤٨ م) بلغت بها النفقات ٢١٤٥٨٦٥٠٠ ريال . ومثلها تقدير الواردات ، أي تزيد على موازنة ١٣٥٣هـ (١٩٣٤ م) بنيف وخمسة عشر ضعفاً .

ومن دلائل نموّ دخل الدولة ، أن موازنة سنة ١٣٨٦ (١٩٦٦ م) بلغت ٥,٠٢٥,٠٠٠,٠٠٠ ريال . وهي تعادل ٦٢٨,١٢٥,٠٠٠ من الجنيهات على اعتبار كل ثمانية ريالات بجنيه واحد .وتكون هذه الموازنة قد زادت على الموازنة الأولى سنة ١٣٥٣ (١٩٣٤ م) ثلاثمئة وستين ضعفاً . ويقاس على هذه الزيادة ما كان في الأعوام التالية إلى الآن .

إصطناعه للرجال

كان من أعجب ما يراه الراوُون في مجالس الملك العامة ، في الرياض بعد استقرار المملكة ، أنها لا يكاد مجلس منها يخلو من عدد غير قليل من رجال « شَمّر » أمراءً وشيوخاً وذوي بأس كانت لهم ولآباء بعضهم أو لإخوانهم مواقف عنيفة في قتال عبد العزيز ، أيام تسلط آل رشيد « الشمّريين » على بلاد آل سعود . وقد تقدم أنه استصفى ديارهم وضمها إلى مملكته وانقضى سلطانهم على يده ، بعد حروب ووقائع لم تشهد جزيرة العرب مثلها من زمن طويل .

خُتمت معاركه مع آل رشيد وأركان إمارتهم ومغاويرها ، بدخول من بقي منهم ، في طاعته . وليس هذا بالعجب ، فهو من شأن كل منتصر .. ولكن العجب أن يتحوّل « المَوْتورون » منهم والأعداء الألداء بالأمس القريب إلى أعضادٍ له وأنصار ، ومحبين ، يلتفّون حوله بصدق وإخلاص يبينان في وجوههم وحركاتهم وسكناتهم .

كان يجلس للناس ، ورجال آل سعود في جانب ، ورجال دولته في جانب ، ورجال شمّر في جانب ..

وتوالدوا في الرياض ، ونشأ أبناؤهم على الولاء والإخلاص . مكرّمين معزّزين .

، ، ،

وكان الملك عبد العزيز يعتقد أن « الإخلاص » قلما يتجرد منه صاحبه . فلما انصرف من القضاء على « ابن رشيد » استدعى بعض رجاله ، وبينهم « رُشَيد الناصر » وكيل ابن رشيد في دمشق والوسيط بين ابن رشيد والترك

(العثمانيين) وكان يتسلم منهم السلاح والعتاد والمال ويبعث بها عوناً لابن رشيد في حربه مع ابن سعود . وقال له عبد العزيز : بماذا أعاقبك ؟ قال : بما تهوى ، وما أنا بنادم على ما فعلت . قال : لقد أخلصتَ في خدمة صاحبك ، وزال صاحبك ، وما يزال فيك حِسّ « الإخلاص » فعد إلى دمشق فأنت وكيلي بها . فكان ممثله في سورية ، وأخلص في عمله إلى نهاية حياته .

وبعد انقضاء الحرب بين عبد العزيز والأشراف في الحجاز ، بقي بعض أنصار هؤلاء يناوئونه ، فعفا عن الجميع عفواً عاماً ، سنة ١٣٥٣ (١٩٣٥ م) وولى بعضهم مناصب كانوا من المخلصين في عملهم بها ، بقية حياتهم .

وتدور في ذاكرتي ، وأنا أكتب هذا الفصل ، أمثلة كثيرة عرفت أخبارها من أصحابها أو رويت لي عنهم . وليس الغرض إلاّ الاستدلال على اتجاه عبد العزيز في طريقة استخلاصه الأشخاص ممن أولاهم ثقته ، وكانوا من خصومه أو من أعوان خصومه ، فأصبحوا بحسن اصطناعه لهم ، من خيرة رجاله .

من كلام الملك عبد العزيز

كل فرد من شعبي ،جندي وشرطي . وأنا أسير وإياهم كفرد واحد . لا أفضل نفسي عليهم ، ولا أتبع في حكمهم غير ما هو صالح لهم .

، ، ،

ـ يعلم الله أن كل جارحة من جوارح الشعب تؤلمني ، وكل شعرة منه يمسّها أذى تؤذيني . وكذلك الشعب ، فإنه يتألم إذا أصابني أيّ شيء . ولكن المصلحة العامة تضطرّني أن أقضي على من لا يُصغي إلى النصح والإرشاد وأن أتجرّع ألم ذلك حفظاً لسلامة المجموع .

، ، ،

ـ يجب أن تحرصوا على العمل ، والعمل لا يكون إلاّ بالتساند والتعاضد .

مجالس الملك عبد العزيز

كانت للملك عبد العزيز أوقات مخصصة لمجلسه العامّ، يدخله فيها كل قادم عليه . ويمتلىء كثير من المقاعد بمن يحضر من إخوته وأبنائه ومستشاريه وخاصته . يجلس آل سعود عن يمينه أو يساره ، في صفّ واحد ، بحسب أعمارهم ، الأكبر فمن يليه . ويوسع أي واحد منهم المكان لمن هو أسنّ منه ، ولو بأيام . يفعلون ذلك بحركة سريعة « أوتوماتيكية » ومن لم يكن منهم ، جلس في صف آخر . على يمين الملك أو يساره . ويظلّ على يمين الملك فراغ لبضعة أشخاص قد يحضرون أو يحضر بعضهم ، من ضيف كبير أو ذي شخصية مرموقة ، إذا دخل مسلّماً على الملك وقف له ، ووقف الجميع ، ومد يده لمصافحته وأشار إليه بالمكان الذي ينبغي أن يجلس فيه ، إلى جانبه ، أو قريباً منه ، أو بين الجماعة الذين هم المستشارون والخاصّة ، فمن يليهم .

وكل داخل على مجلس الملك ، ممن لا يريد التكليف عليه بالقيام ، والسلام باليد ، أو تقبيل يده ، يقف في مدخل المجلس ويرفع صوته قليلاً بتحية الملك: صبّحكَ الله (أو مسّاك) بالخير . ويجلس حيثما يجد فراغاً في المكان . وإذا كان الملك مشغولاً بحديث مع أحد القريبين منه أو بقراءة ورقة أو بإملاء كلمة أو بشاغل ما ، دخل القادم بهدوء إلى حيث ينتهي به المجلس ، أو إلى مكانه المعتاد جلوسه فيه ، ويجلس مترقباً انتهاء الملك من عمله ، فيقف رافعاً صوته بالتحية . وقد يجيب الملك بهزّ رأسه أو تحريك شفتيه أو بلفظ

« بالخير » وإذا أراد أحد الجالسين الانصراف ، انسلّ بحركة خفيفة ، لا سلام معها ولا كلام ...

وإذا تكلم الملك في مجلسه العامّ ، أنصت الجميع بطبيعة الحال . فإذا سكت أو انتهى من حديثه ، فلكلّ شخص من الجالسين ، كبيراً كان أو صغيراً ، أميراً أو موظفاً أو زائراً ، أن يتكلم موجهاً خطابه إلى الملك .

وأكثر ما تكون مجالس الملك العامة ، قبل الظهر ، وبعد صلاة العصر . وهناك مجلس يوميّ آخر ، هو بين الخاصّ والعامّ ، يبدأ بعد صلاة العشاء وينتهي بانقضاء سهرة الملك ، قلّما يحضره أحد من الأمراء السعوديين . ويقتصر في الغالب على كبار الموظفين وبعض الأعيان ، والضيوف غير الأجانب .

يفتتح هذا المجلس بالدرس . فيجلس القارىء في أقصى مقعد من يسار الملك ، وأمامه مصباح كهربائي ، يدير زرّه فيضيء . ويفتح كتاباً فيقرأ منه فصلاً بعد الفصل الذي قرأه في الدرس السابق . ثم يغلقه ، ويقرأ فصلاً آخر من كتاب آخر . ولا تزيد المدة عن نصف ساعة . ويُخْتم الدرس بإغلاق الكتاب وإطفاء المصباح ، وانسحاب القارىء بهدوء . وقد يرغب الملك في انهاء الدرس لبعض الشواغل ، فيقول للقارىء : بركة ! وفي أكثر الأيام تَعْلَق في ذهن الملك « آية » يستشكل تفسيرها ، أو حديث نبوي أو موعظة أو « حادثة » من التاريخ تستحق التعليق عليها ، فيتساءل أو يتحدث بما يخطر بباله في الموضوع . ويتناول بعض الجالسين ، الآية أو الحادث — تاريخياً أو أدبياً ، وربما كان بيتاً من الشعر — بتعليقاتهم .

وكثيراً ما يدور الحديث حول خبر ، مما يلتقطه موظفو الإذاعة. وهؤلاء يدخل أحدهم مجلس الملك العامّ أو شبه الخاص ، ويتلو ما تجمع لديه من أخبار ، وهو واقف ، بصوت يسمعه كل من في المجلس . فإن كان في

ملتقطاته « خبر جديد » دار الحديث حوله . وقد يتكرر الدرس مرتين في اليوم ، والإذاعة ثلاث مرات أو أكثر .

وكان عبد العزيز ، في أعوامه الأخيرة ، إذا انقضى الدرس ، أخرج الجلوس عن صمتهم بخبر سمعه ، وترك لهم مجال التعليق . وقد يناقشهم ويناقشونه ، ثم ينظر في الساعة ، فإذا حان موعد انفضاض المجلس ، قال : هاتوا الحصان ! ويعني بالحصان الكرسيّ المتحرّك . ويمضي إلى جهة « الحريم »

أما مجالسه الخاصة فكان جلها للعمل. بحضور أخيه الأمير عبدالله وولي عهده الأمير سعود وبعض مستشاريه ورئيسي الديوان والشعبة السياسية ، ومساعد رئيس الشعبة ، ويُسمّى الجميع « الرَّبْع » يجلسون متربعين بين يديه ، كالحلقة وهو على كرسيه ، ينحني عليهم ويمتد عنقه فوقهم . ويبدأ رئيس ديوانه فيتلو ما عنده من برقيات . ويملي عليه الملك أجوبتها . وكثيراً ما ينظر في وجوه « الربع » عند إملاء الأجوبة ، فإن كان لأحدهم رأي طُرح للبحث. ثم يأتي دور مساعد رئيس الشعبة السياسية ، فيتلو خلاصات للرسائل والعرائض الواردة . ويجيب الملك على كل منها بايجاز يصوغه الكتاب فيما بعد . وقد يعاد عرض المهمّ منها عليه ، قبل إنفاذه . وهناك ما يأتي من سفاراته في البلاد الأجنبية كالتقارير السياسية وأمثالها ، فإنه إلى أن ضعف بصره في العامين الأخيرين قبل وفاته ، كان يقرأها بنفسه ويملي الإجابة عن بعضها كما يملي التعليمات والأوامر ، بالنص ، لا يأذن لأحد من كتّابه بزيادة فيه أو نقصان ، ولكنه يرعى بسمعه وبصره أية ملحوظة يبديها أحد الجلوس لديه في الموضوع .

عبد العزيز ، الخطيب

لم يكن يهيء الخطبة كما يفعل أكثر الناس ، وفيهم من يكتبها ويحفظها . ويكاد سامعه لا يعرف أنه يخطب إلاّ من ارتفاع صوته هادراً ، ومن ابتدائه حين يريد الاسترسال والتوسع — بحمد الله ثم بالصلاة على نبيّه كما كان يصنع الخلفاء الراشدون ومن جرى على سَنَنِهم .

يتحدّث حين يخطب ، منطلقاً على سجيته ، غير متأنق ولا متكلّف . فيُفيض في الشطر الأول من خطبته — أو من حديثه — بما تمليه عليه ذاكرته من عظات يستمدّها ، أو يستمدّ معاني أكثرها من الحديث النبوي ومن آيات كتاب الله . ويأتي بالشواهد ، وقد يتمثّل بالبيت من الشعر أو بالشطر ، يَرِد في كلامه عرضاً ، لا على أنه قول يُنشَد ولكن على انه كلام مُحكم يُورَد .

ويتناول الموضوع . فإن كان عادياً ، كافتتاح مجلس أو شروع في تنفيذ مشروع ، أو تحدُّث إلى فريق من الناس ، تكلم هادئاً متمهلاً تتخلل قواله ابتسامة خفيفة ، تجتذب إليه قلوب سامعيه . وان لم تكن الابتسامة فليس هناك عبوس ولا تجهّم ، ولا يُلمح على وجهه في أيّ حال ما يعلو وجوه معظم الخطباء من تحديق ، في قريب أو بعيد، ومن اصطناع للجدّ .. لا أثر للنكتة في خطابته ولا توقّف لمعرفة رأي السامع فيما يقول .

أما إذا كان الموضوع لأمر جلل ، كمواقفه في اجتماعات شيوخ نجد ،

وقد استمر في بعضها ساعتين أو أكثر ، فكان هناك « الخطيب » حقاً ، المتجهم المزمجر ، لا يتلكأ ولا يتلعثم ولا يتمتم ولا يجمجم . انطلاق في فسيح من مجال القول . شواهد حيّة من أحداث عرفها السامعون أو أدركوا من عرفها ، وحججٌ وبراهين . هناك كان يتكلم « الإمام » وليس فيمن حوله من يدعوه بأكثر من عبد العزيز . وقد يتجمّل بعضهم فيقول : يا طويل العمر . إصغاءٌ إلى كل حرف ينطق به . لا هتاف ولا تصفيق ، ولا صياح ولا زعيق ..

لم تنحصر مواقفه « الخطابية » هذه، في نجد؛ بل رآها بعض أبناء الأقطار الأخرى من بلاده . وكثيراً ما كان يتحوّل إلى « الخطابة » بمعناها الصحيح ، وهو في إحدى خطبه « العاديّة » إذا استفزّه في خلالها أو قبيل شروعه فيها ، قول أو حدث يستثيره . وإذا كان في الخطباء من يدركه العثار حين يستثار فالملك عبد العزيز كان أبين ما تراه حين يجدّ الجدّ ويُقتدح الزند .

قال « كنث وليمز » : مواهب ابن سعود الخطابية عظيمة ، بل هي من عوامل احتفاظه بعرشه . يُظهر مقدرة عجيبة في أحاديثه العامة والخاصة ، وهو إذا تكلم تدفق كالسيل . يُحبّ التحليل وردّ الشيء إلى أصله ، شديد الولع بتشريح المواضيع تشريحاً يدلّ على ذكاء وفطنة ولباقة . يخاطب البدويّ بلهجة البدوي ، والحَضَري بلهجة الحضري ، وما استمع إليه أجنبي إلاّ خرج مفتوناً بحديثه .

، ، ،

وتجدر الإشارة هنا ، إلى أنه كانت له أيضاً خطب وتصريحات ، رسمية أو شبه رسمية ، كان يملي « الفكرة » فيها ، على بعض كتّابه ، فتصاغ الصياغة الأنيقة ، ولا يلقيها هو ، وإنما يتلوها بالنيابة عنه أحد مستشاريه أو وزرائه . ولا يكون عبد العزيز هو المتكلم ، إلا إذا تحدث ، أو ارتجل واستُثير .

عبد العزيز في حديثه

ليس من المبالغة ولا من الثناء ، ان أذكر أن عبد العزيز كان عَجباً في سرعة الخاطر إذا تحدّث ، وفي قوة الحُجة إذا أراد الإقناع .

لقيت كبيراً أميركياً يتهيأ للقيام بعمل رسمي في البلاد السعودية . ورأيت أمامه بضعة كتب أشار إليها وقال لي : كل هذه الكتب عن الملك « ابن سعود » سأقرأها قبل أن أذهب إليه . ومضى بعد حين إلى الرياض . وتعددت مقابلاته للملك ، ثم عاد فمر بالقاهرة — وكنت يومئذ فيها — فسألته عن الملك والكتب ، فقال : ما قرأته شيء ، وابن سعود شيء آخر . إنه أعمق من كل ما وُصف به ..

وقال لي صديق ، كان وزيراً للخارجية في سورية : أعجب ما رأيت في الملك عبد العزيز أنني لم أكد أبدأ الحديث معه حتى استوقفني وأجاب على ما قلت وعلى ما كنت مزمعاً أن أقول ..

وعاد شكري القوتلي من أول زيارة قابل بها الملك عبد العزيز ، فكان مما وصف به « ذاكرة » الملك وحضور ذهنه ، أنه يَعدّ وجهات النظر في الموضوع وهو يتكلم ، فيقول مثلاً : أمامنا طريقتان أو ثلاث بل أربع .. قال القوتلي : واسترسل مرة فقال : ست بل سبع ، بل ثمان .. وأوردها جميعاً واحدة فأخرى .. يعدها على أصابعه .

وسر القوة في حجة عبد العزيز أن عقله كان يسبق لسانه ، وأنه ينسى العاطفة أمام « المنطق » ولا يقول إلا ما يعتقد .

من خُطَب الملك عبد العزيز

نحن والأجانب :

من خطبة له في جدة :

« إن هذا الوطن المقدّس ، يوجب علينا الاجتهاد فيما يُصلح أحواله ، وإننا جادّون في هذا السبيل قدر الطاقة ، حتى تتم مقاصدنا في هذه الديار ، ويكمل للمسلمين جميعاً أمنهم وراحتهم ، وتتم لجميع الوافدين لمنازل الوحي المساواة في الحقوق والعدل .

« إن علينا للدول الأجنبية المحترمة حقوقاً ، ولنا عليها حقوق . لهم علينا أن نفي لهم بجميع ما يكون بيننا وبينهم من العهود (إن العهد كان مسؤولاً) والمسلم العربي يشين بدينه وشرفه أن يخفر عهداً أو ينقض وعداً . والصدق أهم ما نحافظ عليه . علينا أن نحافظ على مصالح الأجانب ، ومصالح رعاياهم المشروعة ، محافظتنا على أنفسنا ورعايانا ، بشرط أن لا تكون تلك المصالح ماسة باستقلال البلاد الديني أو الدنيوي . تلك حقوق يجب علينا مراعاتها واحترامها ، وسنحافظ عليها ما حيينا إن شاء الله تعالى .

« وأما حقوقنا على الدول . ففيما يتعلق بهذه الديار ، نطلب منهم أن يسهلوا السبل إلى هذه الديار المقدسة ، للحجاج والزوار والتجار والوافدين . ثم إن لنا عليهم حقاً فوق هذا كله ، وهو أهمّ شيء يهمنا مراعاته ، وذلك أن لنا في الديار النائية والقصية إخواناً من المسلمين ومن العرب ، نطلب مراعاتهم وحفظ حقوقهم فإن المسلم أخو المسلم ، يحنو عليه كما يحنو على نفسه في أي مكان كان ، وإني أؤكد لكم أن المسلمين عموماً ، والعرب

خصوصاً ، كالأرض الطيبة كلما نزل عليها المطر أنبتت نباتاً حسناً . وإن المطر الذي نطلبه هو الأفعال الجميلة من الحكومات التي لها علاقة بالبلاد التي يسكنها اخواننا من العرب ومن المسلمين . وإن الأرض الطيبة ، هم المسلمون عامة والعرب خاصة . ولي الأمل الوطيد في أن الحكومات المحترمة ذات العلاقة بالبلاد الإسلامية والعربية ، لا تدّخر وسعاً في أداء ما للعرب والمسلمين من الحقوق المشروعة في بلادهم . أسأل الله أن يجعل أفعالنا أصدق من أقوالنا وأن يوفقنا وإياكم لما فيه الخير والصلاح .

الراعي والرعية :

ومن خطبة له في المدينة المنورة :

« إننا نبذل النفس والنفيس في سبيل راحة هذه البلاد ، وحمايتها من عبث العابثين . ولنا الفخر العظيم في ذلك .

« وإن خطتي التي سرت ولا أزال أسير عليها ، هي إقامة الشريعة السمحة كما أنني أرى من واجبي ترقية جزيرة العرب ، والأخذ بالأسباب التي تجعلها في مصافّ البلاد الناهضة ، مع الاعتصام بحبل الدين الإسلامي الحنيف .

« إنني أعتبر كبيركم بمنزلة الوالد ، وأوسطكم أخاً وصغيركم ابناً . فكونوا يداً واحدة ، وألّفوا بين قلوبكم لتساعدوني على القيام بالمهمة الملقاة على عاتقنا .

« إنني خادم في هذه البلاد العربية ، لنصرة هذا الدين، وخادم للرعية. المُلك لله وحده ، وما نحن إلاّ خدم لرعايانا . فإذا لم ننصف ضعيفهم ، ونأخذ على يد ظالمهم ، وننصح لهم ، ونسهر على مصالحهم فنكون قد خنا الأمانة المودعة إلينا .

« إننا لا تهمنا الأسماء ولا الألقاب ، وإنما يهمنا القيام بحق الواجب لكلمة التوحيد ، والنظر في الأمور التي توفر الراحة والاطمئنان لرعايانا .

« إن من حقكم علينا النصح لنا . فإذا رأيتم خطأ من موظف ، أو تجاوزاً من إنسان ، فعليكم برفع ذلك إلينا لننظر فيه . فإذا لم تفعلوا ذلك فقد خنتم أنفسكم ووطنكم وولاتكم .

مسلم ، عربي ، مسالم ، مدافع :

ومن خطبة له :

« أنا مبشر أدعو لدين الإسلام ، ولنشره بين الأقوام .

« أنا داعية لعقيدة السلف الصالح . وعقيدة السلف الصالح هي التمسك بكتاب الله وسنة رسوله وما جاء عن الخلفاء الراشدين . أما ما كان غير موجود فيها ، فأرجع بشأنه إلى أقوال الأئمة الأربعة ، فآخذ منها ما فيه صلاح المسلمين .

« أنا مسلم ، وأحب جمع كلمة الإسلام والمسلمين . وليس أحب عندي من أن تجتمع كلمة المسلمين ولو على يد عبد حبشي . وإنني لا أتأخر عن تقديم نفسي وأسرتي ضحية في سبيل ذلك .

« أنا عربي ، وأحب قومي والتآلف بينهم وتوحيد كلمتهم . وأبذل في ذلك مجهوداتي ولا أتأخر عن القيام بكل ما فيه المصلحة للعرب ، وما يوحد أشتاتهم ويجمع كلمتهم .

« أنا مسالم ومدافع . أنا مسالم للناس ، وأحب النصيحة قبل كل شيء لأن الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم . وأنا مدافع ، لأنني ما حاولت في وقت من الأوقات أن أعتدي على إخواني وأبناء قومي . وكنت في كل وقت أقابل ما يصدر إلي منهم ، من إساءة أو خطيئة بصدر رحب ، على أمل أن يرجعوا إلى الصواب ، ولكني إذا رأيت تمادياً في الغيّ والإساءة أضطرّ حينئذ للدفاع .

عقيدتنا بين أيديكم :

ومن خطبة له بمكة :

« أنا بذمتكم وأنتم بذمتي . إن الدين النصيحة . أنا منكم وأنتم مني . هذه عقيدتنا في الكتب بين أيديكم فإن كان فيها ما يخالف كتاب الله ، فردونا عنه ، واسألونا عما يشكل عليكم فيها ، والحَكَم بيننا كتاب الله وما جاء في كتب الحديث والسنة .

عرب ، ومسلمون :

من خطبة ارتجلها في مكة :

« ما كنا عرباً إلاّ بعد ما كنا مسلمين . كنا عبيداً للعجم ، ولكن الإسلام جعلنا سادة . ليس لنا فضيلة إلا بالله وطاعته واتّباع محمد . ويجب أن نعرف حقيقة ديننا وعربيتنا ، ولا ننساهما .

« كل حرية باطلة ، إلا حرية الإسلام . والإنسان لا ينفع إلا بالدين . ونحن لا نبغي محاربة أوربا ، وإنما نطلب حقوقنا باتحادنا فنعتصم بالله . والإسلام أكبر وسيلة وأكبر حصن . هو أكبر مزايا الحسب والنسب . فيجب على المسلم محبة دينه وشعبه ووطنه .

مذهبـنـا :

ومن خطبه له في مكة أيضاً :

« يسموننا بالوهابيين ، ويسمون مذهبنا بالوهابي ، باعتبار أنه مذهب خاص . وهذا خطأ فاحش ، نشأ عن الدعايات الكاذبة التي كان يبثها أهل الأغراض .

« نحن لسنا أصحاب مذهب جديد ، أو عقيدة جديدة . ولم يأت محمد بن عبد الوهاب بالجديد ، فعقيدتنا هي عقيدة السّلَف الصالح التي جاءت في كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه السلف الصالح .

« نحن نحترم الأئمة الأربعة . ولا فرق بين الأئمة مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة . كلهم محترمون في نظرنا .

البرقيات والرسائل

كان يُقرأ بين يدي عبد العزيز في أوقات متعددة من كل يوم ، ما يُرفع إليه من برقيات ، أو رسائل (وهذه قد تختصر قبل أن تقرأ له) فإذا كان فيها ما يحتاج إلى مداولة تكلم بشأنها ونظر إلى من حوله من المستشارين (الرَّبْع أو الجماعة) يسمع ما عندهم فيها ، ثم يملي الإجابة بما يترجح له من الرأي . وقد سبقت الإشارة إلى هذا في مناسبة أخرى . أما أكثر ما يُعرض عليه ، مما يراه بديهياً لا يستحق النقاش ، فإنه يملي على الكاتب ما يتراءى له فيه . وليس للكاتب أن يزيد على كلامه أو ينقص منه حرفاً .

فالبرقيات الصادرة عن ديوانه ، أكثرها من تفكيره وإملائه ، حتى « الأحكام » في بعض الوقائع الشرعية .

ومن المهم أن أشير هنا ، إلى أن الملك عبد العزيز ، كان حريصاً على ألا يهمل أية برقية تأتيه ، من ملك أو تاجر أو صعلوك ، من دون أن يجيب عنها هو بإمضائه الصريح « عبد العزيز » في جميع المناسبات . وكذلك الرسائل .

من طريف برقياته

أبرق إليه معتمده في القاهرة ، بأن « فاروقاً » ولدت له ابنة ، وهنأه جميع الملوك إلا جلالته .. وتلقى المعتمد البرقية الآتية ، بالجفر :

ج — لم يسبق أن هنينا أحد بولادة ابنة له ، ولم نسمع بمثل هذه العادة !

عبد العزيز

في رحلاته

وكان أيام رحلاته في البادية (قبل السيارة والطائرة) ككل أعرابي أنيق : ينام على الفراش والسجادة في الليل . ويضعهما تحته على الكور ، في سفره على الراحلة . ولا يحمل في جيبه شيئاً ، لا ساعة ولا قلماً ولا ذهباً ولا فضة . وقد لا يكون في ثيابه جيوب البتة .

إلا أنه يحمل ساعة في الخُرج عند السفر ، ويضعها تحت الوسادة عندما يقيم في مكان . وهي في صندوقها الذي جاءت فيه من المعمل .

ويحمل منظاراً كبيراً لا غنى له عنه . وكثيراً ما يراقب من مجلسه حركات رجاله وخدامه وغيرهم .

ويبرق في تنقله

ثم كان من عادته — بعد السيارة والطيارة — إذا ترك الرياض ، أن يأمر بالإبراق إلى من لا يكون معه ، من كبار أبنائه ومستشاريه وسفاراته ، من أي مكان يستقرّ فيه .

يتوقف في الطريق

وكان من عادته بعد الانتهاء من اصطيافه في الحوية ، أو في الطائف ، وخروجه من مكة لركوب الطائرة من جدة إلى الرياض ، أن يجعل « أمّ السَلَم » محطة له ، قبل دخوله جدة .

ويعلم أعيان جدة وكبار الموظفين فيها بقيامه من مكة ، فيتسارعون إلى أم السلَم لاستقباله والتسليم عليه .

وقد يبطىء بعضهم فيتكتلون جماعات ، ويقفون في الطريق ، ويراهم وهو قادم بموكبه ، فتتوقف سيارته وسيارات الموكب ، ويجيئونه يسلمون عليه واحداً فآخر .

الضرائب

المملكة العربية السعودية من أقل ممالك العالم ضرائب ، فلا ضريبة هناك على رؤوس الأموال ، ولا مقاسمة للورثة ، وليس على العقارات التي يسكنها أصحابها شيء من الرسوم .

وكان جزء كبير من نفقات الحكومة في الحجاز وبعض بلدان المملكة ، تقوم به ضرائب الجمارك ، على أساس النظام العثماني القديم .. حتى إن أول بعثة علمية للدراسة في الخارج أُنفق عليها من ضريبة إضافية ، هي قرش واحد ، على كل طرد من البضائع يدخل البلاد .

ووضعت الحكومة « تعريفة » جمركية سنة ١٣٥٧ (١٩٣٨ م) لم تلبث أن تناولتها عوامل الرفق والاشفاق وتنشيط الصناعة والزراعة والبناء ، تخفيفاً وإعفاءً ، إلى أن اقتُصر بها على الكمالي من المستوردات .

والضريبة التي يعرّفها علماء الاقتصاد بأنها « جباية إجبارية تُفرض على الأفراد الذين يساهمون في الاستفادة من خدمات الدولة » قد عالجها الملك عبد العزيز معالجة « إنسانية » أبوية محضة ، بتحميل جانب من موارد الدولة عبء الجانب الآخر .

ذلك أن دخل البلاد من الجمرك والحجّ والرسوم العادية الصغيرة ، كان يُعتبر « كافياً » إلى حدّ ما ، لقيام الهيكل الحكومي في ابتداء نشوء الدولة . ولوحظ آنذاك أن الغالب على الجمهور الفقر ، فلم تكن هناك رؤوس أموال كبيرة تُستثمر إلا في بيوت محدودة العدد ، ولم يكن في العقارات ما يدر

الريع المغري ، فاكتفى بفرض رسوم زهيدة عليها سُميت رسوم الإيجار .

ولم تعرف بلاد نجد ، وهي الجناح الأول من جناحي الدولة ، شيئاً اسمه الجمرك ، قبل ضم الأحساء إليها سنة ١٣٣١ (١٩١٣ م)

زد على هذا أن مبدأ الحُكم الذي قام عليه مُلك عبد العزيز ، هو تجنب إرهاق الفرد ، والعمل على التخفيف عن الجمهور ، فلم تكلّف رعيته أيّ نوع مرهق من المساهمة المالية .

وفي البلاد السعودية باب ثابت من أبواب « الجباية » هو « الزكاة » سألت عنه وزارة المالية ، فأجابت بما أذكره على سبيل الاستطراد، قالت :

« من حين دخول الملك إلى الأراضي الحجازية ، أمر باستحصال الزكاة ، على المزارع والمواشي ، بموجب الأحكام الشرعية الخاصّة بها .

« أما طريقة الاستحصال ، فتتلخص فيما يأتي :

١) تقرر المجالس الإدارية ، في كل بلد ، متوسط أسعار الحبوب والمواشي . ويبلّغ الجباة ، باعتبارها أساساً لمن يرغب دفع بدل الزكاة المطلوبة منه نقداً ، ومن يرغب في دفعها عيناً يقبل منه . بمعنى أن الحكومة تترك حرية الاختيار للرعية في دفع الزكاة ، إما عيناً أو نقداً .

٢) الزكاة العينية: تستحصل على متوسط النوع الواجبة فيه الزكاة ، اتباعاً للحديث الشريف : « .. فاياك وكرائم أموالهم » .

٣) في أغلب الأحيان ، توزع الزكاة على الفقراء التابعين للقرية أو القبيلة التي جبيت منها . وإذا كانت كمية الزكاة بسيطة ، فإن الحكومة تقوم بتوزيع نقود وكساوى على الفقراء كما هو مشاهد .

« والحقيقة أن الملك كان يرى في الزكاة شعيرة إسلامية يجب أن تؤدّى ، قبل أن يرى فيها مورداً من موارد الدولة . وسواء لديه أكان هذا المورد ضخماً أم ضئيلاً ، أو انقلب إلى باب من أبواب الإنفاق .

، ، ،

هذا ما أوضحته وزارة المالية . ويزاد عليه أن الزكاة المفروضة هي « اثنان

ونصف في المئة » من قيمة ما يملك الفرد ، من عقار وتجارة ونقد وأسهم مالية وودائع في المصارف وما يشبه ذلك . ومن حق الدولة « الإسلامية » إذا اقتضت المصلحة العامة ، أن تتولى بوسائلها تحصيل الزكاة من المزكين في مواعيدها ، والتصرف في إنفاقها على وجوهها تنظيماً لما يتحصل ولما يُصرف ، وإبراءً لذمة الفرد أمام ضميره في تأدية ما فَرَض عليه ربه .

إلاّ أن عبد العزيز ، رأى إرضاءً للمزكي في توزيع زكاته ، أن يجعل للدولة نصف الزكاة تتصرف في إنفاقه ، وللفرد التصرف في النصف الثاني .

إن الزكاة الشرعية المفروضة هي رُبْع العُشر فعلى بيت المال أن يستوفي ثُمن العُشر (واحداً وربعاً في المئة) ويترك ثُمن العُشر الباقي للرعايا ينفقونه بأنفسهم .

والزكاة تستحق على جميع الأفراد والشركات السعودية في ختام كل عام ، ابتداء من غرة المحرم (١٣٧٠ هـ)

وفي المملكة أيضاً ، ما يسمى « إعانة الجهاد » يؤدّيها أهل الحواضر كسكان الأحساء والقطيف والقصيم والحجاز وعسير وجبل شمر ، ممن كان عليهم أن يشاركوا في خوض الحروب إلى جانب القبائل والبادية ، ولكنهم أُعفوا من الدعوة إليها . وكانت لها شعبة خاصة في الديوان .

ولسائل أن يسأل : هل تكفي إعانة الجهاد وموارد الجمارك مضافةً إلى نصف الزكاة الذي هو واحد وربُع في المئة من ثروة الفرد ، لتنظيم جهاز الدولة والإنفاق على موظفيها وعلى جندها وسلاحها وما إلى ذلك ؟ ونجيب : لا ، ولو كان منفّذ أحكام الشرع في بلاد عبد العزيز هو غير عبد العزيز ، لما استعصى عليه أن يجد منافذ إلى ثروات رعاياه بما يمكن سنّه من النظم إلى جانب الزكاة . ولكن عبد العزيز مسوق بطبعه إلى الرأفة بالناس ما استطاع الرأفة . وأمامه « النفط » بعد أن ظهر ؛ فليكن من ريعه الإنفاق على مرافق الدولة ، ولا تضييق على عباد الله . ذلك « منطق » عبد العزيز ، رضيت وزارة ماليته أم غضبت !

أب ، قبل الملك وبعده

الملك عبد العزيز لا يُلقي القول جزافاً . وقد سُمع في مناسبات متعددة يذكر أنه لا يرى نفسه أكثر من « أب » لأسرة كبيرة — هي شعبه — وأنه مسؤول عن هذه الأسرة أمام الله .

وإذا عرفنا من سيرته في الأيام العصيبة ، على الخصوص ، كالحربين العالميتين ، وأيام انحباس الغيث عن رعاياه ، أنه كان يبادر إلى ما في خزانته الخاصة وخزائن الدولة من مال ، فيأمر بالإنفاق منه على إطعام القبائل المجدبة أرضها ، وعلى الأفران تُموَّن بالدقيق لتوزيع العيش (الخبز) على أهل المدن مجاناً ، لم نشكّ في أنه كان يعني ما يقول من أنه « أب » لأسرة ..

وهو يعبر عما في قرارة نفسه ، حين يكرر في خطبه القول المألوف « المُلك لله وحده » فيقف عند كل كلمة منها ، متجرداً أمام ربه ، من صفة « الملك » وقد أعقبها في إحدى خطبه ، بقوله : « وما نحن إلا خَدَم لرعايانا »

كان عبد العزيز يُصغي إلى الكبير والصغير من شعبه . يستمع إلى أحاديثهم ، ويشارك المسرور منهم في سروره ، ويتوجع لألم المحزون ، فينسون أنهم بين يدي ملك « يتمتع بحقوق السيادة » ولا يشعرون إلا بأنهم بين يدي « أب » طالما قال — وبرهن على القول بالفعل — : الكبير منكم أخ لي والصغير من أبنائي .

والذين كانوا يخاطبون الملك ، بلقبه الرسمي ؛ إنما هم الأقلون عدداً

في رعيته . أما السواد الأعظم فكان يدعوه بأحب النعوت إليه : يا طويل العمر ! أو : يا أبا تركي ! وبعضهم ينادونه باسمه مجرداً من النعوت والألقاب : يا عبد العزيز .. ويجيبهم ، مبتسماً أو مصغياً ولا يراهم قد خرجوا عن حدود



الأدب معه . ذلك لأنه في طويته لم يكن يعبأ بالألقاب ، فضلاً عن كراهيته للملق والتكلف واصطناع التأدب ..

فإذا قلنا إن الملك عبد العزيز كان « ديمقراطياً » في جبلّته التي فطر عليها ، فكلّ خُلُق فيه ، وكل خبر عنه يؤيد هذا القول . لقد عاش وهو يرعى أفراد شعبه ، من خاصة وعامة ، رعاية الأب أبناءه ، ويراهم أُسرته التي هو كبيرها وعليه أن يعولها ، قبل أن تبايعه بالملك ، وبعد البيعة .

إنشاء وإصلاح

بين الرياض والدمّام :

اشتدت حركة النقل والتنقل بين الرياض والدمام ، بعد ظهور الزيت وأصبح للدمام شأن في استقبال ما تحمل البواخر إلي مينائه ومن مينانه . والطريق بينه وبين الرياض صعب السلوك على السيارة ، لكثرة ما فيه من «نفود» الرمال ، وعلى راكب البعير لقلة ما فيه من الماء .

وفي شهر شعبان ١٣٦٥ (يوليو ١٩٤٦) كان بين يدي عبد العزيز ، في حَدّة – بين مكة وجدة – بعض رؤساء العمل في شركة « بكتل » وأمرهم بدرس إنشاء « سكة حديدية » تجتاز الصحارى ، من الدمّام إلى الرياض .

وبعد أربع سنوات قالت وزارة المالية السعودية في مذكرة ، سنة ١٣٦٩ ﻫ (١٩٥٠ م) :

« لقد وصل الخط الحديدي من الدمام إلى الظهران ، فبقيق . والعمل جار لإيصاله إلى الرياض ، عن طريق الخَرْج . واتصل رصيف مدينة الدمّام بالشاطىء ، في المياه العميقة ، بواسطة جسر فولاذي طوله ٢٨٧٠ متراً وممر صخري طوله ٧٨٣٠ متراً

وتكوّن المرفأ الرئيسي من ميناء يرتكز على أعمدة فولاذية . وبلغ طول الميناء ٧٤٢ قدماً ، وعرضه ٨٥ قدماً . وجُهز المرفأ لرسوّ باخرة شحن كبيرة على كل من جانبيه . وقد تم إنشاء هذا المرفأ في أواخر جمادى الأولى ١٣٦٩ (مارس ١٩٥٠م)

وفي صباح السبت ١٩ محرم ١٣٧١ (٢٠ أكتوبر ١٩٥١م) هرع أهل « الرياض » إلى ساحة في ظاهر المدينة (أُنشئت فيها بعد ذلك محطة الرياض) وأُقيم سرادق كبير جلس فيه الملك وكبار الأمراء والوزراء وغيرهم ، وتـُليت آيات من الذكر الحكيم . ثم أقبلت القاطرة الأولى ، مارّة أمام الحفل ، وأخذ المذيع يشرح أن قوتها ألف حصان ، وأنها تسحب حمولة ١٠٥٠ طناً ، وتـُربط بها عربات الدرجتين الأولى والثانية ، فعربات النقل ، فحاملة زيت . وأقبلت قاطرة أُخرى ، بقوة الأولى تجرّ عربات مزودة بالكهرباء وتكييف الهواء وفيها المطاعم والمثالج ، والمناعم والمباهج ..

ووُزع على كبراء من حضروا ذلك الحفل كتيـّب سـُمي « كتاب سكة حديد الحكومة السعودية » جاء فيه أن طول السكة ٥٥٦ كيلومتراً تخترق جزءً شاسعاً من النصف الشرقي من البلاد السعودية . فهي تبدأ من ميناء الدمام ، متجهة إلى حقول الزيت . ثم تمتد إلى مدينة الهفوف . ومن الهفوف يسير الخط جنوباً إلى عـَيـْن حـَرَض . ومنها يتغير الاتجاه إلى الغرب . وبعد اجتياز « رمال الدهناء » يصل إلى الخرج ، حيث يـُزرع أكثر من ٣٠٠٠ فدان بالفواكه والخضروات والحبوب والعلف ، لاستهلاكها في الرياض . وأخيراً، بعد أن يقطع الخط أرضاً وعرة تحيط بها صخور منحدرة ، يصل إلى الرياض عاصمة البلاد .

أما تكاليف سكة الحديد هذه، فكانت حوالي ٢٠٠ مليون ريال سعودي، سـُدد منها نحو ٩ ملايين ريال من واردات أجور الركاب والشحن خلال إنشائها .

بين مكة وجدة :

وكان من أول ما فكر فيه الملك عبد العزيز من أعمال الإنشاء في بلاده ، في عهد الاستقرار ، رصف الطريق بين مكة وجدة . وتمّ رصفه وفرشه بالإسفلت في أوائل الحرب العامة الثانية ، ثم أُلحق به طريق مكة — عرفات —

وطول الطريق بين مكة وجدة ٧٣ كيلو متراً ، وبين مكة وعرفات ٢٠ كم

إصلاح جدة :

هُدم سور جدة الذي كان يشوّه منظرها ، وفُرش الشارع المحيط بها بالإسفلت . وقامت فيها حركة عمرانية واسعة النطاق . وأُقيم ميناء خفر السواحل . وأنشئت على مقربة من المطار « ورشة » كبيرة لأعمال الطرق والمباني أنفقت عليها الحكومة السعودية (٣٠٠ ، ١٠٥ ، ١) دولار .

مرفأ جدة :

وكان مرفأ جدة (ثغر الحجاز) منذ خلق الله الأرض ومن عليها ، تكتنفه الشعاب ويعاني سالكوه الصعاب . وفرض الله الحج على الناس . وطريقهم البحري الأقرب إلى بيته الحرام « جدة » وظل قاصد جدة لا مناص له من إطالة الوقوف في عرض البحر ، انتظاراً لربان خبير يقود سفينته أو يهديها سواء السبيل .

ذلك في عهد السفن الشراعية . أما في زمن البواخر ، فكان الخطب أشد . وقد شاهدنا كما شاهد غيرنا اضطرارها إلى إلقاء مراسيها ، بعيدة عن المدينة عدة من الأميال ، خشية الارتطام وتباعداً عما في قاع المرفأ من التلاع والآكام ورأينا عشرات الألوف من حجاج بيت الله — في كل عام — تحملهم السنابيك تحت أشعة الشمس المحرقة ، وتتلقف الأيدي والأكتاف أمتعتهم ، وقد تشاركهم في حمل بعضها الأمواج ولكن إلى جوف البحر .

اتجه إزماع الملك ، في محرم ١٣٦٦ (ديسمبر ١٩٤٦) وهو في جدة ، إلى إنشاء مينائها . وأقبل المهندسون وأهل الصناعات يعملون جادّين، وبين أيديهم أحدث ما أخرجته معامل الغرب من آلات ، رافعات وناقلات ، وممهدات تردم المياه ، وتصهر الحديد ، وتبسط الفولاذ ، وترفع العمدان .

ومئات من أبناء البلاد بين عشرات من مختلف الأقطار ، أميركيين وغير أميركيين ، يشيدون الصرح المنبسط ، ويقومون بأعظم عمل على الشاطىء السعودي ، هو الأول من نوعه فيه ، وفي ساحل البحر الأحمر .

وكانت التجربة الأولى لنجاح المشروع ، في جمادى الآخرة ١٣٦٩ (نهاية فبراير ١٩٥٠) يوم أرست على الميناء بواخر من « عابرات المحيط » فإذا هي متصلة بالرصيف ، والرصيف متصل بجدة ، وكان للزوارق عهد ، وانقضى ..

الكهرباء في الرياض :

وهذه خطوة من خطوات الإصلاح ، في عهد عبد العزيز .

مدينة « الرياض » يجب أن تكون أول مدينة في الصحراء ترى « النور » .

أمر الملك بإضاءة الرياض بالكهرباء ، عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) ولم تمض شهور حتى كانت أربع سيارات شحن كبيرة تحمل من « رأس مشعاب » موتورات ومولدات تدار بالديزل ، واصلةً من « سان فرنسيسكو » فكانت نواة محطة لتوليد الكهرباء ، في عاصمة نجد ، تولد ١٦٠٠ كيلو واط .

وأُضيف إليها سنة ١٣٦٨ (١٩٤٩م) مكائن تعمل بالديزل أيضاً ، قوتها ١١٤٠ حصاناً ميكانيكياً ، موصولة بمولد ذي تيار متبادل ، لإضاءة البيوت والشوارع ، وللآبار ولأغراض أخرى . وقد أُنفق عليها ٦٢٧٠٠٠ دولار .

المباني في كبريات المدن

في خريطة الدولة مدن كانت معروفة . منها الرياض وجدة والطائف والمدينة . هذه المدن الأربع ليس من الصواب أن نقول إن عدداً ضخماً من « المباني » أُنشىء فيها ، بل الصواب أن نقول : إن « مدناً » جديدة أُنشئت إلى جانب كل منها ، أو في داخلها وأطرافها .

فالرياض ، زهرة نجد ، كانت قبل عهد الملك عبد العزيز وفي السنين الأولى من حكمه ، قلعة منبسطة جمة المنعطفات والتعاريج مبنية بالآجر النيئ والطين . وظهرت بها في أواخر عهد عبد العزيز تباشير القصور والدور ، وأخذت في مباعدة ما بينها وبين طرازها المعماري القديم .

وننتقل إلى « الطائف » فنرى المَشيد الجديد ماثلا ، وقد تضاءل أمامه القديم حتى كاد لا يبين .

وأما « جدة » فالإقبال على الإنشاء فيها منبعث من أسباب : أحدها أن البلدة أصبحت المقرّ السياسي للدولة ، فتوسعت حكومة الملك عبد العزيز في بناء الدواوين والدوائر ، وابتنى كبار رجالها وموظفيها ، ما يصلح لإيواء أُسرهم وتوفير وسائل الراحة لها . والثاني تكاثر عدد الوافدين من الخارج وبينهم الممثلون السياسيون والقنصليون ، وأصحاب المشاريع والأعمال الحكومية والحرة ، يضاف إلى هذا نمو الثروة العامة في البلاد ، وإقبال السكان على العمران . فجدة كل يوم في مزيد .

المدينة ، والطريق إليها ، والمسجد النبوي فيها :

وكان من أماني عبد العزيز ، أن يرى الطريق ممهدة بين جدة والمدينة المنورة ، تخفيفاً لما يعانيه الحجاج وغيرهم ، من عقبات ما بين البلدين .

وأمر بإنشاء الطريق ، واتفقت حكومته مع شركة « توماس وورد » البريطانية على تعبيده وفرشه بالإسفلت ، وتعهدت الشركة بإنجازه سنة ١٣٧٣هـ (١٩٥٤ م) وتوفي الملك قبل هذا الموعد ، فلم تقرّ عينه بسلوكه في خمس ساعات بسيارته .

وكان من أعظم ما شرع فيه عبد العزيز ، في المدينة المنورة ، إصلاح المسجد النبوي وتوسيعه ، بعد أن ضاق بازدحام الوافدين عليه ، فأعلن عزمه في ١٢ شعبان ١٣٦٨ (١١ / ٦ / ١٩٤٩ م) على توسعته . وأمر باستقدام

المهندسين فدرسوا المشروع ووضعوا الخرائط ، وأشاروا بهدم عدد من الدور والحوانيت المجاورة للمسجد .

ورُصدت الأموال سنة ١٣٧٠ (١٩٥١ م) لشراء المقرر هدمه ، مما حول المسجد ، أو التعويض على أصحابه . وبلغت مساحته ٢٢٩٥٥ متراً مسطحاً .

وبدأ أول مِعْول للهدم في احتفال عظيم ، يوم ٥ شوال ١٣٧٠ (١٠/ ١٩٥١/٧ م) وبلغت نفقات نزع الملكيات حوالي ٣٦ مليون ريال (٢٥ مليون ليرة لبنانية) أنفقت في أيام عبد العزيز وابنه سعود .

ثم كان ما صُرف على البنيان، مما قام به البنّاء العصامي محمد بن لادن ، في العهدين ، نحو ثلاثين مليون ريال ، وبدا المسجد النبوي كما نراه اليوم .

واتجه عبد العزيز إلى إحداث ميادين في مدينة الرسول ، قدرت مساحة أحدها بعشرة آلاف متر مسطح . وشُقت في أيامه طرق وفرشت شوارع بالإسفلت . وأُنشيء « المستشفى » المسمى باسمه ، كما أُنشئت دار للمحكمة الشرعية ، وبدىء بإنشاء بناء للمكتبة العامة ، ومبان للجامعة الإسلامية بوشر بنيانها في أيامه . ومثلها المطار الحديث في الشمال الشرقي للمدينة وعدة منشآت أُخر ، شُرع بها في أعوامه الأخيرة،وأكملت بعد وفاته . وما زالت يد الإصلاح والإنشاء تعمل في المدينة إلى الآن .

المدن الحديثة

وللزيت وهو عامل الثروة الأكبر في البلاد السعودية ، مبانيه ومنشآته بل « مدنه » الزاخرة بالعاملين في حقوله .

وإذا أغفلنا ذكر « الهِجَر » اكتفاءً بما قدمناه عنها ، فإن مدينة « الظهران » القائمة في بقعة من الأرض كانت مجاهل خالية ، قد أنشئت على الطراز الأميركي ، لوجود ألفين أو ثلاثة آلاف من أبناء العالم الجديد فيها ، يتخللهم نحو خمسة

عشر ألفاً من العمال والموظفين العرب السعوديين . وأُنشيء فيها مستشفى عربي ، وفندق على الطراز الحديث أنفقت الحكومة على إنشائه ٢٩٢٠٠ دولار ، كما أُنشئت « ورشة » صناعية بلغت نفقات إنشائها ٢١٧٠٠ دولار .

وقامت على شاطىء الخليج مدينة صناعية في ميناء « رأس تنورة » بُنيت فيها محطة ضخمة لتكرير الزيت . ومحطة أُخرى لتوليد الكهرباء . وأُنشيء رصيف في الميناء تنقل عليه أطنان الزيت ليل نهار .

كان كل هذا قبل عام ١٣٦٩ (١٩٥٠ م) وازدادت بعده المقادير واتسعت المساحات ، وتضاعفت الأرقام .

خلاصات عن المملكة

بعد أن تمّ للملك عبد العزيز ، توحيد الأقاليم الثلاثة : الحجاز وعسير ونجد ، وإطلاق اسم « المملكة العربية السعودية » عليها ، بلغت سعة بلاده ما يقارب أربعة أخماس شبه الجزيرة العربية .

وشبه الجزيرة هذا ، لعله أكبر شبه جزيرة على وجه الأرض . تزيد مساحته على ١,١٥٠,٠٠٠ ميل مربع .

المملكة :

وتقدر مساحة المملكة العربية السعودية فيه ، بنحو ٩٢٧,٠٠٠ ميل مربع أي أكثر من أربعة أضعاف مساحة فرنسا ، وما يقارب عشرة أضعاف مساحة الجزر البريطانية .

السكان :

ويتراوح عدد السكان فيها بين خمسة وستة ملايين (في ذلك العهد) وقد باشرت الحكومة وضع إحصاء لهم ، ولم يتمّ .

الحدود :

ويحدّ المملكة العربية السعودية : من جهة الشرق ، الخليج العربي وبلاد عُمان . ومن جهة الغرب ، البحر الأحمر ، (القُلزم) ، وتتاخمها في الشمال بوادي العراق والشام والأردن . وفي الجنوب اليمن وحضرموت .

عواصم المملكة :

وللمملكة عاصمتان تليهما جدة :

الأولى « مكة » وهي العاصمة الدينية ، حيث يجتمع الحجيج كل عام .

والثانية « الرياض » وهي العاصمة السياسية ، حيث إقامة الملك والأسرة السعودية ، وقد أصبحت بعد وفاة الملك عبد العزيز ، مقر وزارات الدولة ومصالحها الرئيسية .

أما « جدة » فتلي في مكانتها مكة والرياض . ولا يزال يقيم فيها المبعوثون السياسيون ، من سفراء ووزراء مفوضين وقناصل ومندوبين رسميين . وفيها مقر وزارة الخارجية التي هي همزة الوصل بينهم وبين المراجع العليا في الرياض.

نجـــد :

والديار النجدية ، هضبة عالية . متوسط الارتفاع في غربيها ٤٠٠٠ قدم ، وشرقاً ، في الدهناء ٢٠٠٠ قدم . تمتدّ شمالاً إلى جبَلَيْ أجَأ وسَلمى ،في بلاد شمّر . وارتفاع أجأ نحو ٥٠٠٠ قدم ، وسلمى (جنوبي أجأ) حوالي ٤٥٠٠ قدم .

ومن أبرز المرتفعات في هضبة نجد ، سلسلة جبال « طويق » المعروف قديماً باسم « عارض اليمامة » .

ويبلغ امتدادها من الشمال إلى الجنوب ٥٠٠ ميل . ومتوسط ارتفاعها عن سطح البحر ٢٨٠٠ قدم . وارتفاع بعض قممها ٣٥٠٠ قدم .

تهامة

وعلى الجانب الغربي من جبال السَّراة ، تنبسط سهول تهامة ، متاخمةً البحر الأحمر ، فيبلغ عرضها قرب جيزان ٣٠ ميلاً . وتضيق شمالاً إلى ما بين ٢٠ و ١٠ أميال في جهة الوجه ، وتنتهي عند خليج العقبة .

السهول :

وأوسع السهول في المملكة ، سهول نجد : تمتد ٩٠٠ ميل إلى الشمال داخل حائل ، وإلى حدود العراق وشرقي الأردن . وهذه السهول كانت تسمى « السّمَاوَة »

النفود :

والنُّفُود ، أرض الكُثبان الرملية المتنقلة . اسم قسمها الشمالي القديم : « عالِج » أو « رملة عالج » و « رَملة بُحْتُر » وهي الصحراء الشمالية الممتدة بين الدهناء وبادية العراق شرقاً ، وسكة حديد الحجاز غرباً ، وبين الجوف وسكاكة شمالاً ، وجبلي شمّر جنوباً .

الدهناء :

والدّهْناء : امتداد رملي لهضبة نجد ، من الشرق . تبتدىء في شماليها الغربي بقرب تيماء ، وتمتدّ جنوباً إلى الربع الخالي . وفي شرقيها الصمّان ، فالأحساء ، فصحراء الجافورة . وعلى شرقيها الشمالي بادية العراق . وغربيها بلاد نجد . وهي كالقنطرة بين البحرين الرمليين : النفود شمالاً ، والربع الخالي جنوباً .

الرّبع الخالي :

والرّبع الخالي : اسم حديث للصحراء الكبرى في جنوبي شبه الجزيرة ، تحيط به بلاد نجد واليمن وحضرموت وعُمان . وهو من أوسع الصحارى الرملية في العالم . كان جغرافيو العرب يسمون كل ناحية منه باسم ما يجاورها .

مقاطعات المملكة

أيــام عبــد العزيز

١ ـ الحجاز :

وهو القسم الشمالي الغربي من شبه الجزيرة . مساحته التقريبية ١٧٥,٠٠٠ ميل مربع . أشهر مدنه وأعظمها وأقدمها : مكة . ثم من حيث الشرف والقدم ، المدينة . وتليها في القدم الطائف وأخيراً جدة .

وفي الحجاز من البلاد الصغيرة ، والقرى والمعالم التاريخية ، والبقاع المقدسة والقبائل ، ما صُنّف فيه الكثير من كتب أهل الرحلات وعلماء البلدان وغيرهم .

وقد أُحصيت إمارات الحجاز في عهد الملك عبد العزيز ، بتسع عشرة إمـارة .

وقدر عدد السكان فيها وفي باديتها بمليونين .

٢ ـ مقاطعة نجـد :

أوسع الأقاليم ، في شبه الجزيرة مساحةً ، تتألف من : الرياض (مركز إدارتها) ومن توابعها الدرْعية . وضَرَمى والخَرْج والحَوْطة والحَرِيق.. ووادي الدواسر (قاعدته الخماسين) والأفلاج (قاعدتها ليلى) والوَشْم (مركزه شَقْرا) ومن بلاده ثرمدا ومَراة .. وسُدير (مركزه المجَمعة) والمِحْمَل (من قراها رغبة) والشعيب (قاعدتها حريملا)

وتتبع مركز الرياض ، إمارات البادية : أ ـ سُبَيْع والسّهول (بدو العارض) ب ـ عُتَيبة (ومن قراها الدوادمي ، والشَعْرا ، وكثير من

الهجَر) ج ـ قحطان (قحطان نجد) د ـ مُطَير (ومركزها الأرطاوية) والدواسر ، والقرينية ، وآل شامر .

تحدث محمود شكري الألوسي المتوفى سنة ١٣٤٢ (١٩٢٤ م) عن نواحي نجد وقبائله[١] فليرجع إليه وإلى ما استدرك عليه سليمان بن سحمان المتوفى سنة ١٣٤٩ (١٩٣٠ م)

٣ ـ الأحساء :

اتسمت هذه المقاطعة بطابع خاصّ في بلدان الجزيرة : خصباً ، وموقعاً وأحداثاً .

عُرفت قديماً باسم « هَجَر » و « البحرين » و « وادي الحَساء » و « الحَسَا » .

ويطلق اسم « الأحساء » اليوم ، على الإقليم الممتد على الشاطىء الغربي من الخليج . وكان العثمانيون لما يئسوا من التسلط على نجد ، في أواخر عهدهم، سموا الأحساء « متصرفية نجد »

امتازت بوفرة مياهها وكثرة عيونها . وبين هذه العيون ما هو « معدني » حارّ . وتدفق النفط فيها أيام الملك عبد العزيز .

قاعدتها ـ على عهد عبد العزيز ـ « الهفُوف » وهي من أغنى البلاد العربية السعودية ، واحات وزراعة وتمراً .

وتتبع الهفوفَ ، مدنٌ صغيرة وقرى كثيرة ، من أهمها : المبرَّز ، والعُقَير والقَطيف (وهي الآن مركز إمارة تتبعها قرى كثيرة) والدمّام ، والخُبَر ، وبقيق .

ويتبع الأحساء كثير من قبائل البادية .

---

(١) في كتابة « تاريخ نجد » الطبعة الثانية سنة ١٣٤٧ هـ

٤ ـ الظّهْران والدّمّام :

الظهران : سُلخت عن « الأحساء » وكان موضعها يسمى « جبل الظهران »

وازدهرت على الشاطىء القريب منها مدينة « الدمام » التي أصبح ميناؤها أعظم موانىء الخليج . وفيها الآن مقر الإمارة ، وابتداء السكة الحديدية التي تنتهي في الرياض . وبُنيت إلى جانبها مدن « الخُبَر » و « رأس تنورة » و « بُقَيْق » وانتعش ميناء « جُبَيْل »

٥ ـ الشمال :

كانت قاعدته قبل العهد الأخير من حياة الملك عبد العزيز ، مدينة « تَبُوك » وأهم المدن والقرى فيه : تبوك والعَقَبة (عَقَبة أيْلة) ، والجَوْف (تتبعه سكاكة) ويسمى « جوف آل عمرو » واسمه القديم «دُومة الجَنْدل» ثم قريات الملح ، وهي مركز وادي السِرحان . ونَبْك القريات . وعرعر . وطَرِيف . ولِينة . وقرى صغيرة أُخرى .

٦ ـ الجَنُوب :

أُطلق على المناطق التهامية المنحدرة من جبال عَسِير ، اسم « مقاطعة الجنوب » وجُعلت قاعدتها مدينة « جيزان » أو « جازان » وهي ميناء على البحر الأحمر يقابل جزائر فَرَسان ، ويحجزه من الداخل « جبل جيزان » وأكثر سكانه شوافع وأشراف ، وفيه قليل من الزيود ، وبعض الحضارم ، ورجال القبائل .

٧ ـ عَسِير (عسير السّراة) :

قاعدتها مدينة « أبها » ومرفأها « القنفدة » على البحر الأحمر . ومن مدن المقاطعة « خَمِيس مُشَيْط » و « رجال ألْمَع » و « النَمَاص » و « بني شَهْر » و « تثليث » و « شَهران » و « رُفيدة » و « المَجاردة » و « ظَهْران اليمن » وقرى كثيرة .

٨ — القَصِيم :

كانت مقاطعة القصيم قبل ظهور النفط ، أوسع بلاد نجد تجارة مع الخارج ، ومن أغناها زراعة وازدهاراً .

وهي تتألف من أربع إمارات : بُرَيْدة (مركز إمارة القصيم) و « عُنَيزة » و « الرّسّ » و « المِذْنَب »

٩ — مقاطعة الجبل (جبل شمّر)

وهي القسم الشمالي من نجد . كان يطلق عليها اسم جبلْي طيء : « أجأ وسلمى » يمتدان من الجنوب إلى الشمال الشرقي . وبينهما سهل ، تتخلله أودية عامرة بالمزارع والبساتين ، في نحو **٣٠** كيلاً تقوم فيها مدينة « حائل » مركز إمارة المقاطعة . من أشهر قبائلها « شمّر » .

وتتألف المقاطعَة من ثلاث إمارات حضرية ، وأربع بدوية . فالحضرية :
١) — إمارة حائل ٢) — إمارة تيماء ٣) — إمارة خيبر .

والإمارات البدوية :

١) — إمارة حَرْب . ٢) — إمارة عَنزة .

٣) — إمارة شمَّر . ٤) — إمارة هُتَيْم .

، ، ،

وكانت هذه الأقاليم أو المقاطعات ، هي أساس التنظيم الإداري في المملكة ، على عهد الملك عبد العزيز . ثم طرأ على بعض أوضاعها كثير من التغيير ، ليس من موضوع هذا الكتاب تتبّعه أو تقصيه . وإنما الغاية إيراد ما يتصل ببلاد المملكة وعلاقة بعضها ببعض ، في أيامه وأحياناً قبله .

ميـــاه المملكـــة

ليس في المملكة العربية السعودية ، على اتساع رقعتها ، نهر جار باستمرار . وإنما هناك ينابيع على شيء من الغزارة ، وأودية في كثير من الأنحاء ، تسيل أحياناً وتجف في أكثر فصول السنة ، وآبار هي المصدر الأول لسقيا الناس .

ومن أخصب بلاد المملكة وأغزرها هطولَ ماءٍ ، بلادُ عَسِير . تسقيها مياه الأمطار ، وما يفيض عنها لم يكن يضبطه مجرىً ولا يحفظه سدّ ، فينصبّ مندفعاً إلى اليمّ .

وفي الأحساء والخرج والأفلاج والقَصيم غزارة في مياه العيون والآبار .

وكان الحجاز ، ولا سيما مكة وجدة ، من أقل المواطن المعمورة في الجزيرة ماءً ، وأكثرها ازدحاماً ونماءً .

في مكة :

دخل عبد العزيز الحجاز ، و« عين زُبَيدة » التي يستقي منها سكان مكة والحجيج ، تسقي الناس من اثني عشر مورداً . وانصرفت العناية إليها فضوعفت مواردها .

في جـدة :

وكانت جدة إلى عهد غير بعيد ، تعاني الأهوال من قلة الماء . يشرب أهلها مما يتجمع من ماء « المطر » في « حفائر » وصهاريج ، وإذا شحّ المطر

وقلّ المدّخر ، ارتفعت أسعار الماء وظميء الناس أو ارتحلوا .

وتداركت « الحكومة العثمانية » الأمر بعض التدارك ، في أواخر عهدها . فأتت بأنابيب رقيقة جلبت بها مياه عين تسمى « الوزيرية » في شرقي جدة . واستوردت آلة لتقطير ماء البحر يسميها أهل جدة « كنداسة » ولكن الوزيرية ما لبثت أن تضاءلت ، والكنداسة كانت كثيراً ما تتعطل ، لطارىء يحلّ ببعض أدواتها ، فيضجّ الناس ويقتتلون على « صفيحة » من الماء ، أو يلجأون إلى الحفائر والصهاريج إن كان فيها ما ينقع الغُلة .

وجلبت الحكومة السعودية « كنداسة » أخرى تساعد الأولى . ونشبت الحرب العالمية (الثانية) فقلت مادة الوقود ، وكانت تنفد أحياناً ، فتتوقف الآلتان عن عملهما ويشقى الناس .

تلك كانت حال جدة إلى يوم الثلاثاء خامس المحرم ١٣٦٧ (٢٠ نوفمبر ١٩٤٧ م) ففي هذا اليوم احتفلت جدة بوصول أنابيب من الماء العذب النقي إلى البلدة الظامئة المحرومة .

العزيزية :

أمر الملك عبد العزيز ، بعد عودته من زيارة مصر سنة ١٣٦٥ (١٩٤٦م) بجلب الماء إلى جدة من عيون « مرّ الظّهران » المعروف اليوم بوادي فاطمة ، فاختير منها ثماني عيون ، وأُخذ من كل عين ثُمن مائها ، بحيث لا تختل مصلحة أصحابها الزراعية وتعهدت الحكومة بصرف ٤٥ ألف ريال لأصحاب كل عين ، تعويضاً لهم عما يؤخذ من ماء ينابيعهم ، وجيء بالماء في أنابيب فنية ، فبلغ ما يصل منه إلى جدة يومياً سنة ١٣٦٩ (١٩٥٠ م) ٦٥٠ ألف جالون . وقد بلغت النفقات نحو ستة ملايين ريال ، وسمي « عين العزيزية » نسبة إلى الملك عبد العزيز .

وضوعف ، بعد هذا التاريخ ، حجم الأنابيب وعددها ، وأُنشيء للماء

خزان على بعد ١٥ كيلو متراً ، شرقي جدّة ، يسع مليون جالون ، وأُنشئت في داخل جدة ، مواسير لتوزيع المياه على الأحياء والمنازل والحدائق . وبلغت تكاليف المشروع الجديد ٢,١٣٧,٥٠٠ دولار . يزاد عليها ما أُنفق على ماء « عين السلطان » وكانت في أرض يملكها الأمير عبد الله الفيصل ، فتبرع بها ، وارتوت جدة وأهلها بأكثر من أربعة ملايين جالون في اليوم .

ولم تقتصر فائدة « العزيزية » على جدة وأهلها ، بل شمل خيرها مسافة ٤٥ كيلو متراً من طريق مكة – جدة ، حيث تمر الأنابيب . إذ وُضعت « كبّاسات » على مسافات متقاربة ، تُمد الحجّاج والمسافرين وغيرهم من أهل تلك البادية ، بالماء . ومن رأى الألوف من فقراء الحجاج يمشون على أقدامهم بين الثغر والعاصمة ، سالكين ذلك القفر الأجرد ، أيام اشتداد الحرّ ، وهم يتسابقون إلى الارتشاف من مَعين تلك « الكباسات » يملأون أجوافهم و « زمزمياتهم » ويغسلون وجوههم وأطرافهم ، يرتوون ويبتردون ، مبتهجين مغتبطين ، أدرك عظم فضل الله الذي أجراه على يد عبد العزيز .

وضوعفت فيما بعد مقادير المياه المستوردة من مَرّ الظّهران (وادي فاطمة) إلى جدة ، فتحولت أطراف دورها القاحلة إلى حدائق ، وشُق بعض شوارعها بالأزهار ، فعادت جدة اليوم ، غيرها بالأمس ، والماء عنصر الحياة الأول .

وماء المدينة :

وفي المدينة آبار وبساتين وحدائق . وشراب أهلها من « عين الزرقاء » .

تم في عهد عبد العزيز تبليط مجرى العين ، من المنبع في قباء ، حتى « منهل خرز عيسى » في داخل البلدة ، إلا مواضع صخرية تُركت كما هي ، لأنها في غنى عن التبليط .

وأُحدثت في عهده عدة ممرات لماء العين في باطن الأرض ، وظهر الماء

في أماكن صخرية، في كهف طبيعي مساحته ستة عشر متراً مربعاً ، وارتفاعه سبعة أمتار ، فضُم إلى مجرى العين . ومستوى الماء ينخفض في زمن الصيف عن مستوى مجرى العين ، فيُرفع بمضخة . ويعرف هذا الكهف الآن بالبِدْع الجديد .

ولعين الزرقاء إدارة خاصة ، نيط بأعضائها تعهدها والتجديد فيها .

الرياض :

وازدحمت مدينة الرياض بالسكان ، قبل انتشار عمرانها الحديث . ولم يكن فيها إلا آبار في بيوتها يستقي منها أصحابها ، في طعم أكثرها ملوحة . يزيد ماؤها وينقص ، تبعاً لأمطار الشتاء في كثرتها وقلتها . ووراء سور المدينة نخيل يسمونه الشميسي ، فيه ماء عذب تعمل في إخراجه الدوابّ ، جيئةً وذهاباً ، في سَوان كالنواعير وليست بنواعير . كان يشرب منه بعض الموسرين من أهل الرياض ، يُحمل إليهم في قرب وفناطيس .

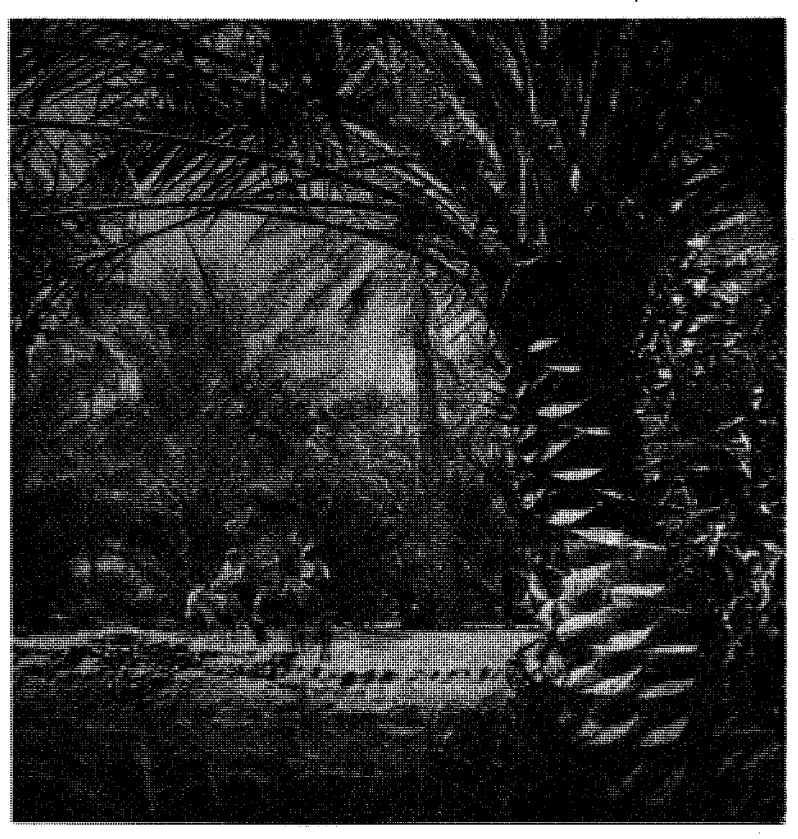
ولما كانت سنة ١٣٧١ (١٩٥١ م) أمر الملك عبد العزيز بإجراء الماء إلى الرياض من « وادي الباطن » ومن « السويدي » وهما من ضواحيها ، ثم من « الحائر » على نحو ٢٠ كيلو متراً منها . وزيدت آبارها بعدد غير قليل من الآبار الأرتوازية .

الأحساء :

وأغنى بلاد المملكة بالماء، الأحساء . ومن دخلها رأى العيون الجارية فيها، تسقي جداولها الناس والمزارع ، ويسميها أهلها وبعض الكاتبين عنها ، أنهاراً .

ومن أشهر عيون الأحساء ، في جهاتها الجنوبية : عين الخدود ، ويقدر ما تخرجه في الدقيقة بثلاثين ألف جالون . وعين الحقل ، تعطي في الدقيقة ٢٢,٥٠٠ جالون ، وعين غصيبة ، وعين التعاضيد ، وعين برابر . وفي

جهات الأحساء الشمالية: العين الحارة، ماؤها حارّ عذب، وعين الجوهرية، وعين منصور، وعين أم سبعة . وفي قرى الأحساء أكثر من خمسين عيناً جارية .



منظر في المفوف

الخَرْج :

وفي جنوبي الرياض ، على نحو ٨٠ كيلاً منها ، واحة كبيرة من أخصب واحات المملكة ، هي ناحية « الخرج » تتصل من شماليها الغربي بوادي حنيفة . كثيرة العيون والآبار والبساتين . اتجه إليها اهتمام الملك عبد العزيز فطلب لإصلاحها بعثة من العراق، ثم من مصر. وأخيراً جيء ببعض الفنيين من الأميركيين فأصلحوا مسارب الماء ونجحوا .

في البادية :

ولا يغرنك وأنت تجتاز مفاوز الجزيرة ، قول أحد الأعراب : هاك الغدير .. فليس الغدير في عرفهم أو عرف أكثرهم إلا ضحضاح آسن من بقايا سحابة هطلت فتركت في إحدى الحُفَر قليلاً من مائها ، فتلوّث وبدت فيه جحافل الديدان . وإن أرغمك الظمأ على الشرب منه ، فلا مناص لك من وضع طَرف من « غُتْرتك » على إناء تغترف به من ذلك الغدير . وتغمض عينيك إن شئت ، ولا تبال بالطعم أو الرائحة . وهذا ما حمل أكثر « المدنيين » ممن يجوبون الفيافي ، على أن يعتادوا شرب « الشاهي » بغير سكّر فلا يشربون الماء — ماء الغدران — إلا غالياً معقماً .

الآبار الارتوازية :

وفي كثير من أنحاء هذه البادية الجرداء ، أعان الملك عبد العزيز على الإكثار من حَفْر الآبار الأرتوازية وجلب المكينات لها ، والإيعاز إلى رجال المالية ، بتقسيط أثمانها ، تيسيراً على المزارعين . وكان ذلك قبل ظهور النفط واتساع صناديق الدولة . فانتشرت الأرتوازيات في مدن نجد وقراها وصحرائها

وأول ما استبشرت به البلاد من تحقيق « الفكرة » الأرتوازية ، كان ما نشر في شوال ١٣٥٨ (أواخر نوفمبر ١٩٣٩) من نجاح التجربة في حفر بعض الآبار، في جهتي الدمّام والقطيف .

، ، ،

عمل عبد العزيز ما استطاع ، لتوفير المياه في مملكته الصحراوية في أكثر أجزائها . وقد سبق القول في الحديث عن بدء اكتشاف البترول ، أنه كان يبحث عن الماء ، فخرج له ولبلاده النفط .

الذهب والفضة

تبدأ قصة البحث عن الذهب في المملكة ، في شتاء ١٣٤٩ (١٩٣٠ م) خلال زيارة المستر شارلز كراين الأميركي ، للبلاد السعودية ، وتكليف الملك عبد العزيز له — وقد قابله بجدة — أن يبعث إليه خبيراً فنياً يبحث عن المياه والمعادن . فجاء المستر ك. س. توتشل — كما تقدم في حديث اكتشاف البترول — وكان معروفاً مما كتبه المتقدمون أن في البلاد مناجم معدنية ، فظفر توتشل ، بعد دراسة ابتدائية، بعلائم تدل على وجود الذهب وبعض المعادن الأخرى . ورأى ان العمل يحتاج إلى أيد فنية ورأس مال كاف ، فسعى إلى تأليف شركة « عربية إنكليزية أميركية » عقدت اتفاقاً مع الحكومة السعودية وأمضاه وزير ماليتها ، ووافق عليه الملك عبد العزيز بمرسوم سنة ١٣٥٣ (١٩٣٤ م) وسُميت الشركة « نقابة التعدين العربية السعودية المحدودة »

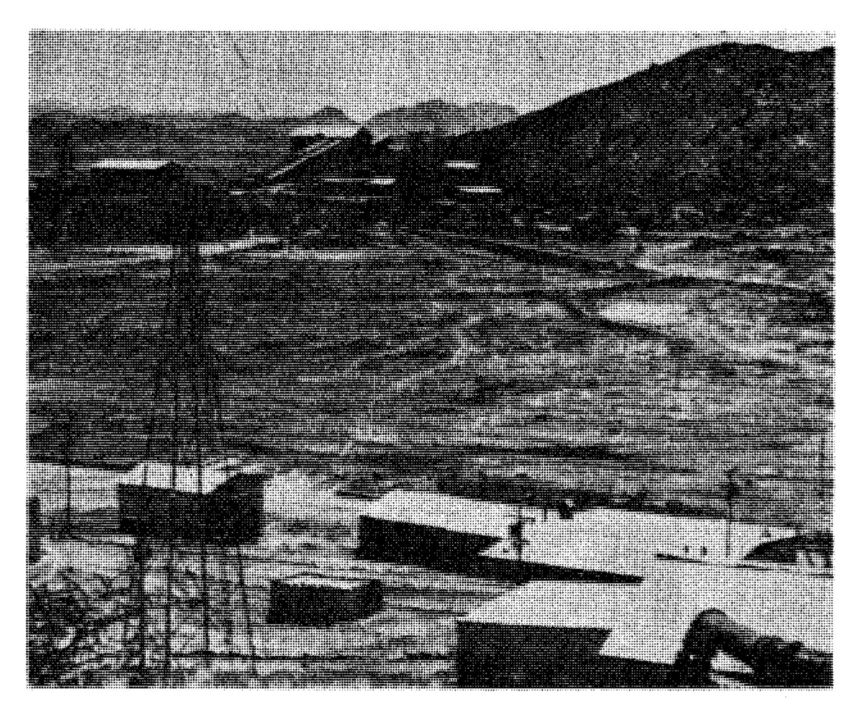
وبعد سنتين من إبرام الاتفاق ، بدأ استثمار منجم « مهد الذهب » بين جدة والمدينة المنورة .

واستمر العمل إلى ما بعد وفاة الملك عبد العزيز . ثم توقفت النقابة سنة ١٣٧٤ (١٩٥٤ م) ولم يقم بعدها من يخلفها . وكان الربح الصافي للدولة منها حوالي عشرة ملايين دولار .

وقيل يوم توقفها : إن الذهب قد نفد . وليس بصحيح ، فما زال الخبراء يؤكدون وجوده بكثرة .

معادن أُخرى

وكان معروفاً من تقرير وضعته إحدى البعثات الزراعية عن الطائف ، سنة ١٣٣٨ (١٩١٩ م) وجود مقادير كثيرة من الحديد ، فيها وفي ما يجاورها ، وقليل من النحاس وغيره .



منجـــم الذهب

ولما قام تويتشل بالتنقيب الجيولوجي على شاطىء البحر الأحمر من جدة إلى ينبع ، وضع تقريراً ضمّنه نماذج مما عثر به من أنواع المعادن ، كالفضة والحديد والنحاس والكبريت ومعدن الكروم والرصاص والزنك الخ .

عبد العزيز ، في كناه وألقابه

كان أحب الكُنى لعبد العزيز ، أن يقال له : أبو تركي (وهو ابنه البكر) يدعوه به رجال القبائل . وقد يسمون أبناءه الآخرين أيضاً . وكلهم حبيب إليه ، أثير عنده .

أما توجيه الخطاب إليه بطويل العمر ، فهذا يشاركه فيه الكثيرون في المملكة ، عندما يتحدث أحدهم إلى الآخر . وكان أحب إليه من دعوته بعظمة السلطان أو جلالة الملك .

وتعريفه في الكتابة عنه أو الحديث ، بابن سعود أو ابن السعود ، لم يكن مما يرتاح إليه . مع أنه أشهر ما عُرف به من كُناه وألقابه في الشرق والغرب .

وإذا قيل في حاشية عبد العزيز وبين رجاله : حضر «الشيوخ» أو فعل الشيوخ ، كان هو المعنيّ بذلك ، حتى في أيام أبيه . لأن لأبيه لقباً آخر كان يُعرف به إلى آخر حياته ، هو « الإمام »

ولقب الشيوخ شائع في جزيرة العرب ، لكل ذي سلطان أو رياسة . يطلق عليه في ديرته وما يتبعها ، تمييزاً له من غيره من شيوخ القبيلة أو رؤسائها . وقلما يجري لفظ « الشيوخ » هذا في مملكة عبد العزيز ، على ألسنة غير النجديين منهم .

وهناك اللقب الشرعي الخاصّ ، لقب « الإمامة » آل إليه بعد وفاة أبيه . وكان أسلافه من عهد محمد بن سعود المتوفى سنة ١١٨٩ (١٧٦٥ م)

يُقرن اسم كل منهم بالإمام ، كما هو معروف . وللإمامة في أعناق المسلمين حقوق ، في الطاعة والأحكام ، ليس هنا مجال بسطها . وكان لقب « الإمام » منذ دُعي به عبد العزيز ، أحبّ ألقابه إليه .

ذلك ما كان يدعى به ، من كُناه وألقابه غير الرسمية .

أما الرسمية ، مما خاطبته به الحكومات وبعثاتها ، في مكاتباتها وعلى لسان ممثليها ووفودها وما ورد في صحفها وما كان يقترن به اسمه في المعاهدات الدولية وما يشبهها من عقود ورسائل ليست من الكتب الخاصة أو الشخصية ، فأول ما عُرف به من الألقاب هو : أمير نجد ورئيس عشائرها .

وانفرد الترك بالكتابة إليه : « والي نجد وقائدها عبد العزيز باشا »

ولما عُقد مؤتمر الرياض سنة ١٣٣٩ (١٩٢١م) وحضره علماء البلاد ورؤساؤها ، تقرر أن يكون لقبه « السلطان » فكان ينعت بصاحب العظمة سلطان نجد .

ولما ضُمت إمارة آل عائض (في تهامة عسير) وإمارة حائل في الشمال ، إلى سلطنة نجد سنة ١٣٤٠ (١٩٢٢ م) سُميت بلاده « سلطنة نجد وملحقاتها » وجُعل لقبه « عظمة سلطان نجد وملحقاتها »

وبعد دخوله جدة سنة ١٣٤٥ (١٩٢٦م) اجتمع أعيانها وأعيان مكة وبايعوه «ملكاً» على الحجاز فأصبح لقبه « جلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها » وأُبلغت الدول الأجنبية ذلك ، فاعترفت به .

وفي ٢٥ رجب ١٣٤٥ (١٩٢٧/١/١٩ م) بايعه أهل نجد ، في الرياض ملكاً لنجد ، فأصبح اللقب « جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها »

وفي ١٧ جمادى الأولى ١٣٥١ صدر المرسوم الملكي في الرياض بتوحيد أجزاء المملكة الحجازية والمملكة النجدية وملحقاتها ، وتسميتها جميعاً « المملكة العربية السعودية » ابتداءً من يوم الخميس ٢١ جمادى الأولى ١٣٥١ (٢٢ سبتمبر ١٩٣٢) فأصبح لقبه الرسمي من هذا اليوم : « صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية »

بهذا دُعي عبد العزيز بين رجاله وفي خاصته ، ثم في مختلف أوضاعه السياسية وعلاقاته الخارجية رسمياً .

وكان أكثر اعتزاء عبد العزيز : « أنا ابن فيصل » وهو جده الأدنى ، و « أنا ابن مُقْرن » جده الأعلى ، و « أنا أخو نُورة » كبرى شقيقاته . ويكني عنها في حالات الغضب الشديد ، فيقول : أنا أخو الأنور المعزّى ! (أي عبد العزيز)

ويشارك عشيرته وأهل العارض ، في قولهم : « أهل العوجا إخوان من طاع الله » والعوجا من أسماء العارض ، ينتخون بها من زمن طويل .

عَلمه وشِعاره

العلم والشعار ، في المملكة العربية السعودية ، هما للملك وللدولة معاً.



والشعار : سيفان متقاطعان ، فوقهما على الوسط نخلة :



ولون العلم أخضر — رمز الجهاد — وفي وسطه بِلَوْن أبيض ، سيفان متقاطعان ، فوقهما جملة « لا إله إلاّ الله محمد رسول الله » وقد يُكتفى تحت هذه الجملة ، بسيف واحد مستطيل .

، ، ،

ولا يُنكّس العلم السعودي في المناسبات الداخلية أو الدولية . لوجود اسم « الله تعالى » فيه .

في الحرب العالمية الثانية

وقف الملك عبد العزيز من الحرب العالمية الثانية ١٣٥٨ ﻫ (١٩٣٩ م) موقفه من الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ م) على تباين ما كان عليه وضع بلاده السياسي والجغرافي ، في الأولى والثانية .

لزم الحياد ، ليجنّب شعبه غوائل حرب لا مصلحة له في التعرض لها . وضحى في سبيل ذلك بفوائد مادية مما سُمي « الإعارة والتأجير » وكانت حكومة الولايات المتحدة الأميركية ، تُغدقه على حلفائها ، بغير حساب .

وبينما العالم يعاني المجاعات ، كانت مبرّات عبد العزيز تعم رعاياه ، والأفران تعمل ويوزع خبزها مجاناً ، وحكومته تسقط ٢٥ ٪ من رسوم الجمارك ، وتقرض التجار من رعاياها ٢٥ ٪ من قيمة ما يستوردونه ، على أن يعيدوا ما اقترضوه بعد بيعهم ما استوردوه ، ونائبه العام « فيصل » يقول في خطبة الحج عام ١٣٥٩ (١٩٤١ م) : « لا يجهل أحد ما فيه العالم اليوم من نكبات ومحن ، حتى البلاد التي لم تشترك في الحرب ، لا تخلو من أزمات اقتصادية وغيرها . أما نحن فلله الحمد ، من أسعد الناس ، وهذا لا شكّ من نعم الله التي تستوجب الشكر »

وكان الهمّ الأكبر للملك عبد العزيز ، مدة الحرب ، حال بلاد العرب والمسلمين على العموم ، والعمل – على الخصوص – لإنقاذ بلاد الشام من الكابوس الفرنسي ، وإنقاذ فلسطين من البلاء الصهيوني . وقد جاء في خطبة له ارتجلها بمكة في حجيج السنة الآنف ذكرها :

«كل ما ندعو إليه ، هو جمع كلمة المسلمين واتفاقهم ليقوموا بواجبهم أمام ربهم وأمام بلادهم .

« والذي نُشهد الله عليه ، ونحن أوسطكم في الإسلام وأوسطكم في العربية ، أننا ما ننام ليلة إلا وأمر جميع المسلمين همنا .

« يهمنا أمر إخواننا السوريين ، وأمر إخوانا الفلسطينيين ، وأمر إخواننا العراقيين ، وإخواننا المصريين .

« تهمنا حالهم ، ويهمنا أمرهم ، ويزعجنا كل أمر يدخل عليهم منه ذل أو خذلان لأننا ما نرى إلا أنهم منا ونحن منهم .. كما تهمنا جميع بلاد المسلمين .

« إنني أُخاطب إخواننا في مصر ، والعراق ، وسورية ، وفلسطين ، فأقول لهم : إن المصلحة واحدة والنفوس واحدة .

، ، ،

وفي خلال الحرب أُنشئت دار الأيتام بمكة ، ورُصف طريق جدة ــ مكة ، بالإسفلت . وأنشىء سدّ في أعلى مكة لحجز السيول عنها . ونُظّمت جمعية الإسعاف الخيري . ووُضع نظام الطرق ونظام جباية أموال الدولة . وقابل الملك عبد العزيز الرئيس روزفلت ، في المياه المصرية كما سيأتي .

، ، ،

وانتهت الحرب ، بما أذاعته محطات الراديو العالمية ، مساء ٢٥ جمادى الأولى ١٣٦٤ (٩ مايو ١٩٤٥ م) وما زالت ذيولها ، وما خلّفته من ويلات الصهيونية ، تهدّد العالم ، كل يوم بانفجار جديد ..

في قضية فلسطين

كانت المجابهة الأولى بين الملك عبد العزيز والبريطانيين ، في قضية فلسطين ، يوم عرضوا في اجتماعات « وادي العقيق » في جمادى الأولى ١٣٤٥ (١٩٢٦ م) مشروع « اتفاقية » عُرفت بعد ذلك باتفاقية « جدة » وطلبوا وضع مادة للاعتراف بمركز خاصّ لبريطانيا في فلسطين .

وتوقفت المفاوضات من أجل هذه المادة وموادّ أُخرى ، إلى أن نزلت بريطانيا عنها .

، ، ،

وجاء بعد ذلك نبأ اعتداء نفر من اليهود ، بإلقاء قنابل على المصلّين يوم الجمعة في المسجد الأقصى (ربيع الأول ١٣٤٨ / اغسطس ١٩٢٩ م) فكتب عبد العزيز كتاباً إلى ملك بريطانيا ، يعرب فيه عن سوء الأثر الذي أحدثه الاعتداء في نفسه ونفس شعبه ، ويناشده معاقبة الآثمين ، ومنع تكرار مثل ذلك الحادث .

وأجابه العاهل الإنكليزي في ١٠ ديسمبر ١٩٢٩ (رجب ١٣٤٨) مؤكداً اهتمام حكومته للأمر وأن حادث الاعتداء على المسجد ، لم يقع ..

، ، ،

وواصل الجهود مع الحكومة البريطانية ، بأحاديث مباشرة ، بينه وبين وزرائها المفوضين بجدة ، وبواسطة خارجيته ، وممثل حكومته بلندن ، مبيناً في كل موقف أن السياسة التي انتهجها البريطانيون في ذلك البلد العربي المقدس

تتنافى مع الصداقة التي تنشدها بريطانيا مع المسلمين والعرب ، وتخالف عهودها ومواثيقها ولا تتفق مع الحق والعدل .

، ، ،

ولما اشتدت ثورة فلسطين سنة ١٣٥٥ (١٩٣٦م) رأى أن يقوم بمساع مشتركة مع بعض الحكومات العربية فأبرق إلى مفوضيته في بغداد ، لتنقل إلى رئيس الوزارة العراقية (ياسين باشا الهاشمي) رأيه في الموقف . وقد تضمنت البرقية أولاً : وصف الحال التي صارت إليها قضية فلسطين (في ذلك الحين) وعظم أثرها في نفوس العرب والمسلمين . ثانياً : موقف الإنكليز وتصلبهم في القضية . ثالثاً : موقف العرب المدافعين عن أنفسهم . رابعاً : المصاعب التي ستواجه التدخل في الأمر أمام تشدد البريطانيين واستماتة العرب . خامساً : أشار إلى أن هذه الصعوبات كلها ، لا يجوز أن تحول دون بذل المساعي . وأوضح في تلك البرقية ما دار من المباحثات بين وزيره المفوض في لندن والحكومة البريطانية ، وأن هذه لم تشأ أن ترتبط بأي وعد ، ولم تزد على القول بأنها تحب الإصلاح .. إنّ هذه لفرصة لعمل الممكن لخدمة فلسطين ولمساعدة أهلها في موقفهم الحاضر الدقيق ، ولفسح المجال للعرب لنقل قضية فلسطين من قضية بين أهاليها وإنكلترة واليهود ، إلى قضية عربية عامة .

واتصل بعدئذ برؤساء الحكومات الأخرى ، يستحثها ويستثيرها إلى ما يمكن آنئذ عمله .

تسلسل الحوادث

نشبت في فلسطين ثورة ١٣٥٥ (١٩٣٦م) فسارع الملك عبد العزيز إلى تحويل العون المادي ، في ٢٥ ربيع الأول ١٣٥٥ – كما هو مدوّن في مذكرات رسمية – لتسليمه إلى منكوبيها . وأبرق في ١٣٥٥/٣/١٥ هـ (١٩٣٩م) إلى وزارتي الخارجية والمالية السعوديتين بجدة ، لترسلا إليهم

مساعدات من الأرزاق والمؤن ، وأن تهيّأ للشعب السعودي سبل القيام بمثل هذه المساعدات .

وأبرق إلى وزيره المفوض في لندن (في الشهر نفسه) ليتصل بوزارة الخارجية البريطانية ، وينقل إليها شعوره الشديد ، وتأثره مما وصلت إليه الحال في فلسطين ، وأن يتداركوا الموقف بما يضمن للعرب حقوقهم .

وفي ١٣٥٥/٤/٩هـ، أبرق إلى وزيره في لندن أيضاً ، ليسعى باسمه لدى المراجع البريطانية العليا ، للإفراج عن المعتقلين والمحكوم عليهم ، ووقف الهجرة ، تمهيداً للدخول في مباحثات لحلّ المشكل .

وأبرق إلى مالك اليمن، وإلى ملك العراق، وإلى أمير شرقي الأردن، يقترح تعاون الممالك العربية كتلة واحدة، في مفاتحة الإنكليز بشأن فلسطين ، ومجابهة الموقف متحدين ، لتفريج الأزمة في تلك البقعة العربية المنكودة ، ومحاولة الوصول إلى حل للقضية بين أهلها والبريطانيين بواسطة ملوك العرب وأمرائهم .

وفي ٢٢ رجب ١٣٥٥ (أكتوبر ١٩٣٦ م) وجّه بالاشتراك مع ملكي العراق واليمن وأمير شرقي الأردن نداءً إلى أهالي فلسطين ، بواسطة اللجنة العربية العليا ، لوقف الاضطرابات حقناً للدماء ، معتمدين على رغبة الحكومة الإنكليزية في التعاون على تحقيق العدل .

ولبّى أهل فلسطين دعوة ملوك العرب ، فتوقف الاضطراب ، وأذاعت الحكومة البريطانية عزمها على إرسال « لجنة ملكية » بريطانية للنظر في مطالب الفلسطينيين .

وتردد القول في فلسطين بمقاطعة « اللجنة » فاستقبل الملك عبد العزيز ، في الرياض ، وفداً في منتصف شوال ١٣٥٥ (أول يناير ١٩٣٧) أرسلته اللجنة العربية العليا ، من القدس ، لشرح موقفها في مقاطعة « اللجنة الملكية » فكان رأي الملك عبد العزيز ، ثم رأي حكومة الملك غازي في العراق ، ورأي أركان الحكومة الوطنية في سورية ، الاتصال باللجنة الملكية للادلاء بمطالب فلسطين العادلة . وأصحب الوفد بكتاب جاء في ختامه : « ونحب

أن تكونوا على ثقة بأننا لا نألو جهداً في سبيل مساعدتكم لإصلاح الحال بقدر إمكاننا »

وكان من أثر هذا ، أن قررت اللجنة العربية العليا في فلسطين الاتصال باللجنة الملكية وبسط القضية لها .

وفي ١١ محرم ١٣٥٦ (٢٥ مارس ١٩٣٧ م) قابل وكيل وزارة الخارجية السعودية بجدّة الوزير البريطاني المفوض، وأكد له ضرورة لجوء بريطانيا إلى معالجة القضية على أسس من فهم وجهة النظر العربية ، ومعاملة الفلسطينيين باللين. كما شكره على إبدال حكم الإعدام عن بعض المحكوم عليهم من العرب.

وفي ١٣٥٦/٦/٢٥ (أغسطس ١٩٣٧) على أثر قرار أصدرته اللجنة الملكية البريطانية بتقسيم فلسطين ، أصدر النائب العام للملك عبد العزيز ، إذناً بتأليف لجنة ، في كل بلد من البلاد السعودية لترفع صوت الشعب العربي السعودي في العالم، ولتمدّ الحركة الوطنية في فلسطين بما يتبرع به السعوديون من عون ومساعدة .

وفي ١٢ شوال ١٣٥٦ (١٥ ديسمبر ١٩٣٧) حضر السر ريدر بولارد وزير بريطانيا المفوض بجدة ، لمقابلة الملك فيها ، فأفضى إليه الملك بأنه « لا يوجد عربي صادق يوافق على التقسيم ،وإذا قيل لكم إن أفراداً في بلد عربي ما ، يوافقون عليه ، فثقوا أن أغلبية ذلك البلد لن توافق . وحذّره من أن تقوم السلطات البريطانية بعمل يكون مضراً بعرب فلسطين .

وفي ٣ ذي القعدة ١٣٥٦ (٤ يناير ١٩٣٨) تحدث الملك عبد العزيز إلى الوزير البريطاني المفوض ، شارحاً له ما رأى أن الموقف في فلسطين قد وصل إليه ، ومدى امتعاضه من موقف البريطانيين ، ومدى تأثير ذلك في مركز بريطانيا في العالمين العربي والإسلامي ، إلى أن قال : « إن الذي أخبرك به بصراحة ، هو أن حكومة بريطانيا لم تقدر موقفي ، وإني على كل حال أفي لديني وعروبتي قبل كل شيء... والمحافظة على شرفي وعلى ديني وعربيتي تقضي عليّ بالكثير .. »

رسائل ومذكرات

وتبادل الملك عبد العزيز والحكومة البريطانية ، في خلال هذه الأحداث بفلسطين ، كثيراً من الرسائل و « المذكرات » الرسمية . أشير هنا على سبيل المثال إلى مذكرة منها بتاريخ ١٩ ذي القعدة ١٣٥٥ (١٩٣٧/١/١) بعث بها الملك عبد العزيز إلى الحكومة البريطانية ، خُتمت بالفقرات التالية :

.:. وإننا نُجمل فيما يلي الاقتراحات والتوصيات التي وعدنا بتقديمها ، والتي وعدت الحكومة البريطانية بالنظر إليها بعين الاعتبار :

أولاً — نقترح على الحكومة البريطانية إعلان عفو عامّ عن سائر الجرائم التي ارتكبت أثناء الاضراب والاضطرابات ، وإطلاق سراح المسجونين . لأن ذلك يساعد على إيجاد جوّ جديد من الثقة يساعد على حل جميع المشاكل .

ثانياً — مسألة الهجرة اليهودية : إن هذه المسألة هي في الدرجة الأولى لدى أهل فلسطين ، بل لدى العالم العربي والعالم الإسلامي . وهي في الدرجة الأولى لدى كل من ينظر للقضايا القومية بعين العدل والإنصاف ، فإن مكاثرة شعب آمن في وطنه وبلاده ، بشعب غريب أجنبي ، له مطامع قومية في وطنه ، مما لا يستطيع شعب في العالم ولا حكومة من حكومات الأرض قبوله راضية به ، ولم يسبق له مثيل في تاريخ الشعوب والأمم . واليهود قد ملأوا الدنيا بدعاياتهم وغاياتهم وأن مقصدهم تشكيل حكومة يهودية في فلسطين ، ويضمرون مطامع وراء هذه ، تشغل بال العالم العربي والإسلامي في كل بلد وقطر . وحيث أن العدد الذي في فلسطين من اليهود قد أصبح عدداً وافراً ، ولا بدّ

قد تحقق اللجنة الملكية في هذا الأمر ،فاذا رأت الحكومة البريطانية أن تعلن إيقاف هجرة اليهود ، فإن كل سماح بهجرة جديدة سيجدّد المخاوف ويقضي على الطمأنينة التي سعينا لتثبيتها في قلوب من يثق بنا وبنصائحنا . وقد تحققنا هذه المخاوف بصورة أكيدة ، مما وصلنا من الرسائل ومن المعلومات التي وصلت إلينا من الذين درسوا القضية في فلسطين ، بكل إنصاف واعتدال . وإن رأت الحكومة البريطانية أن توقف الهجرة ، مدة عشر سنوات ، على الأقل إلى أن ترى الموقف في المستقبل ، فلعل هذا يكون أقرب إلى حل المشكلة من الجهات الأخرى .

ثالثاً ــ مسألة بيع الأراضي : نقترح أن تسن الحكومة نظاماً لحماية الملكية الصغيرة ، كما فُعل في مصر . حتى تصون أملاك الضعفاء الجهلاء من الضياع .

رابعاً ــ أما المسألة الرابعة والتي هي في نظر أهل فلسطين مهمة ، وهي : شكل الحكومة . فنرى أن تحل الحكومة البريطانية هذه القضية بينها وبين أهل فلسطين . ونحن من جهتنا سنوصي أهل فلسطين بقدر إمكاننا واقتدارنا بالتزام السكون التامّ والتفاهم مع الحكومة البريطانية على هذا الأساس الذي نعتقد أنه وإن كان يهمهم ، فهو في الدرجة الثانية من الأهمية بنسبة الهجرة اليهودية .

مع السر بولارد

وضربت وزارة الخارجية السعودية موعداًللّورد بلهافين وستنتون (الكولونيل هاملتون الذي كان معتمداً لبريطانيا في الكويت ، أيام الحرب العظمى) ليكون مع السر ريدر بولارد ، في مقابلة الملك عبد العزيز ، في الشميسة (غربي مكة) مساء يوم السبت ١٤ ذي القعدة ١٣٥٦ (١٥ يناير ١٩٣٨) فكان مما قاله عبد العزيز لبولارد :

« لو ترك العرب هم واليهود ، فإن أمرهم يسهل . ولكن المشكل هو

أن العرب يشتبكون مع الإنكليز من أجل اليهود ، وهؤلاء بقوتهم وما لهم لا يُؤمن لهم ، فاذا أسسوا دولة كانوا بأنفسهم خطراً على الإنكليز ، وبما لهم من قوة ومداخلة يمكنهم أن يتفقوا في أية ساعة ، متى تقووا ، مع أعداء بريطانيا . وقد يأتي وقت يجازف فيه العرب ويخاطرون فإما أن يقتلوا اليهود في غفلة من الإنكليز ، وإما أن يُضطر الإنكليز للقضاء عليهم ..

« إنني مؤمن بوجوب صداقة العرب للبريطانيين . ولكن من يستطيع أن يضمن استمرار هذه الصداقة مع بقاء هذا الجرح الدامي في جسم العرب ، ما دام الإنكليز يجلبون أعداء العرب والمسلمين ليحلّوهم في بلادهم ؟ قد يقال : إن العداوة بين المسلمين والنصارى كانت موجودة وما تزال . ولكن حكم القرآن في النصارى ، هو خلاف حكمه في اليهود . فعداوة النصارى سياسية ، وعداوة اليهود ضرورة دينية يجب على كل مسلم أن يؤمن بها ويعمل بمقتضاها . ولذلك فإن مشروع التقسيم يجب أن يصرف النظر عنه بتاتاً ، وأن يسار على خطة أخرى ، على أساس حفظ حقوق اليهود الموجودين بفلسطين ، وضمان مصالح بريطانيا ، والاعتراف بحقوق العرب .

مذكرة

وأبرق الملك عبد العزيز في ٣ صفر ١٣٥٧ (١٩٣٨م) من « القرعاء » إلى ابنه الأمير فيصل ، بمكة . أن يكتب إلى السفير البريطاني في جدة عن لسان عبد العزيز ، مذكرة أولها :

« سبق لجلالة الملك أن أوضح للحكومة البريطانية في عدة مناسبات ما يراه ويشعر به بشأن قضية فلسطين . ورغم كل ما أوضحه ، لا يزال يرى أن الحالة في فلسطين تتحرج من شيء إلى أسوأ .

ثم يقول : « إن جلالة الملك ، يحبّ أن يناشد الحكومة البريطانية باسم

الصداقة التي تربطها بالعرب ، وأن يناشدها باسم العدل والإنصاف ، أن تعطف النظر على قضية فلسطين ، بعين العدل والإنصاف ، وأن تضع نفسها موضع هؤلاء الضعفاء الذين يراد تمزيق شملهم وتقسيم بلادهم ، وإحلال شعب أجنبي عنهم ، بالرغم منهم ، ليذلهم بأنفسهم ويهدد البلاد المجاورة لهم ، كما يهدد السلام في هذا الشرق العربي .

الى الرئيس روزفلت

وبعث الملك عبد العزيز ، إلى الرئيس الأميركي ، برسالة في ٧ شوال ١٣٥٧ (٢٩ نوفمبر ١٩٣٨ م) جاء فيها :

« إن عرب فلسطين يا فخامة الرئيس ، ومن ورائهم سائر العرب ، وسائر العالم الإسلامي ، يطالبون بحقهم ويدافعون عن بلادهم ضد دخلاء عنهم وعنها . ومن المستحيل إقرار السلام في فلسطين إذا لم ينل العرب حقوقهم ويتأكدوا أن بلادهم لن تعطى إلى شعب غريب أفاق ، تختلف مبادئه وأغراضه وأخلاقه عنهم ، كل الاختلاف . ولذلك فانا نهيب بفخامتكم ونناشدكم باسم العدل والحرية ونصرة الشعوب الضعيفة التي اشتهرت بها الأمة الأميركية النبيلة ، أن تتكرموا بالنظر في قضية عرب فلسطين ، وأن تكونوا نصراء للآمن المطمئن الهادىء المعتدى عليه من قبل تلك الجماعات المشرّدة من سائر أنحاء العالم . لأنه ليس من العدل أن يُطرد اليهود من جميع أنحاء العالم المتمدن ، وأن تتحمل فلسطين الضعيفة المغلوبة على أمرها هذا الشعب برمته . ولا نشك في أن المبادىء السامية التي يتحلى بها الشعب الأميركي ستجعله يذعن للحق ويقدم لنصرة العدل والإنصاف .

جواب روزفلت

البيت الأبيض

واشنجتون — ٩ يناير ١٩٣٩ (يوافق ١٦ القعدة ١٣٥٧)

حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز ابن سعود ملك المملكة العربية السعودية .

يا صاحب الجلالة ،

لقد سرني كثيراً استلامي كتاب جلالتكم المؤرخ في ٢٩ نوفمبر ١٩٣٨ الذي سلمه القائم بأعمال المفوضية العربية السعودية بالقاهرة في ٦ ديسمبر إلى القائم بأعمال المفوضية الأميركية هناك ، بخصوص مسألة العرب في فلسطين .

ولا يخفى على جلالتكم أن الحالة في فلسطين استرعت طويلاً اهتمام الشعب الأميركي . ولذلك فاني قد طالعت كتاب جلالتكم الذي كرستموه لهذا الموضوع ، باهتمام خاص .

إن اهتمام الشعب الأميركي بفلسطين ، يرتكز على عدة اعتبارات . منها ما هو ذو صبغة روحية ، ومنها ما هو ناشىء عن الحقوق التي نالتها الولايات المتحدة في فلسطين من الاتفاقية الأميركية البريطانية الخاصة بالانتداب في فلسطين ، المؤرخة في ٣ ديسمبر ١٩٢٤

وقد تبين موقف الولايات المتحدة بشأن فلسطين في « بيان عام » أصدرته وزارة الخارجية في ١٤ اكتوبر ١٩٣٨ يسرني أن أبعث لجلالتكم بصورة منه .

ويمكنني أن أضيف إلى ذلك أن هذه الحكومة لم تتخذ مطلقاً أي موقف مخالف لما تمسكت به منذ البداية في هذا الموضوع .

صديقك الحميم

توقيع / فرنكلين روزفلت

وأُلحق بهذا الكتاب ، نص بيان أذاعته وزارة الخارجية الأميركية للصحافة في ١٤ أكتوبر ١٩٣٨ بأن مشروع إنشاء الوطن القومي اليهودي ، قد لعب فيه الذهب ورأس المال الأميركي دوراً رئيسياً . وأن كل تغيير يطرأ على الانتداب البريطاني في فلسطين يجب أن توافق عليه الولايات المتحدة الخ .



الى مؤتمر لندن

الملك عبد العزيز ، والسر بولارد

في صباح ١٧ رمضان ١٣٥٧ (١١ أكتوبر ١٩٣٨) وصل إلى الرياض السر بولارد ، ومعه أوراق طلب عرضها على الملك ، تشتمل على :

١ — بيان من الحكومة البريطانية بعدولها عن مشروع التقسيم .

٢ — قرار بدعوة عرب فلسطين ، ومندوبين عن الحكومات العربية المجاورة ، ومندوبين عن الوكالة اليهودية ، للبحث في حل المشكلة .

٣ — خلاصة تقرير لجنة « ودهد » بالعربية والإنكليزية .

، ، ،

واستقبله الملك ، قبل ظهر اليوم نفسه . وجرى بينهما حديث ، خلاصته :

بولارد — سأل الملك عما إذا كان قد اطلع على الأوراق ؟

الملك : تصفحتها . وآمل أن يكون الخير من وراء المؤتمر الذي ستدعو إليه الحكومة البريطانية . ثم أسهب الملك في الكلام على ما يعتقده من ضرورة اتفاق العرب وبريطانيا ، لاقتضاء مصلحة الطرفين . ثم قال : ونحن على كل حال ، آمالنا كانت ولا تزال معقودة فيما نعلمه عن حكومة بريطانيا وانتظار اليوم الذي تعمل فيه للأخذ بناصر العرب والعطف عليهم .

بولارد — أشار إلى أنه يُنتظر أن تذيع الحكومة البريطانية الليلة بياناً عن

سياسة فلسطين ولربما أنهم سيشيرون إلى أن الهجرة سيبحث بها في المؤتمر .

الملك : إن موضوع الهجرة هو النقطة الأساسية . وسواء ذكرت في البيان أو لم تذكر فانها ينبغي أن تكون موضوع البحث في المؤتمر .

بولارد — أشار إلى أن الحكومة البريطانية تحفظت بشأن الأشخاص الذين يُنتخبون عن فلسطين وأنها لا تقبل أن يكون أحد منهم من المسؤولين عن الثورة التي نشبت في فلسطين .

الملك : المهم اختيار الأشخاص المحنكين الذين يحسنون الفهم والكلام . ونحن لا نقبل الأشخاص الذين يريدون أن يأخذوا الأمور بغير تعقل .

بولارد — أشار بصورة خاصة إلى « المفتي » وأنه لا يمكن أن يكون عضواً في المؤتمر .

الملك : المفتي هو من الأشخاص المعروفين في فلسطين . ويمكن أن يرى بعض أشخاص آخرين يقومون باللازم .

الدعوة لحضور المؤتمر

بولارد — ذكر أن من أغراضه التي قدم من أجلها ، هو أن يبلغ جلالة الملك دعوة الحكومة البريطانية لحضور المؤتمر .

الملك — أجاب بأنه يقبل الدعوة ، لأنها تساعد على حل المشكلة .

التمهيد لعقد المؤتمر

وتمهيداً لعقد « مؤتمر لندن » قام الملك عبد العزيز بالاتصال بملوك العرب وأمرائهم ، من جهة ، وبالحكومة البريطانية من جهة أخرى ، فأبرق إلى ممثليه لدى مصر وسائر الحكومات العربية في ١٣٥٧/١٠/٢٧ (١٩٣٨ م)

يخبرهم بما جرى . وأبرق إلى خارجيته بجدة في ١٣٥٧/١٠/١٢ هـ،لتبعث إلى المفوضية البريطانية فيها بمذكرة ، بشأن الفلسطينيين الذين سيذهبون إلى المؤتمر ، وان لا تقدم الحكومة البريطانية على اختيار أشخاص من عندها ، أو تفرض على الهيئات الوطنية أشخاصاً معينين .

طلب إطلاق معتقلي سيشل

وأبرق في ١٣٥٧/١١/٣ إلى وكيل خارجيته بجدة ، أن يكلف الوزير البريطاني إخبار حكومته ، بأنه يرى وجوب إطلاق معتقلي سيشل الفلسطينيين ، ورفع الضغط عن أهل فلسطين للتنقل والتداول فيما بينهم بشأن المؤتمر .

فيصل يرأس الوفد ، ورسالة الى تشمبرلن

وسافر نائب الملك العامّ ووزير خارجيته ، الأمير « فيصل » إلى لندن على رأس الوفد العربي السعودي ، ومعه من والده رسالة إلى المستر نيفل تشمبرلن رئيس الحكومة البريطانية،أوضح فيها أن ما بينه وبين بريطانيا من علاقات وصداقة تحتم عليه وعلى بريطانيا « أن يأخذا بعين الاعتبار تجنب كل ما يضر بمصلحة الفريقين » وأشار إلى مواقفه مع بريطانيا في أشدّ ساعات الخطر ، غير متأثر بما كان أعداؤها يُغرونه به ، ولا مصغ إلى محاولاتهم الإيقاع بينه وبينها . وتخلص إلى ما يترتب على بريطانيا القيام به لحل القضية الفلسطينية حلاً عادلاً « يضمن الحق وصداقة الأمة العربية » ثم أهاب بالوزير البريطاني الأول ، أن يظهر سياسة بريطانيا بوضوح ، وألاّ يكون فيها ما يؤدي إلى هدم صلات الودّ بينها وبين العرب جميعاً ...

من عبد العزيز الى روزفلت

كتب الملك عبد العزيز إلى الرئيس الأميركي روزفلت في ٢٥ ربيع الثاني ١٣٦٢ (٣٠ ابريل ١٩٤٣ م) رسالة أولها، بعد البسملة : من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل ، ملك المملكة العربية السعودية ، إلى فخامة الرئيس فرنكلين روزفلت ، رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأميركية .

يا صاحب الفخامة

في هذا المعترك العالمي الذي قامت فيه الأمم تهدر دماءها ، وتبذل ثرواتها ، دفاعاً عن حرياتها واستقلالها . راعني وراع المسلمين والعرب ما شاع من انتهاز فئة من اليهود الصهيونيين ، هذه الأزمة الخانقة وقيامهم بدعاية واسعة النطاق أرادوا بها السعي لتضليل الرأي العامّ الأميركي ، من جهة ، والضغط على دول الحلفاء في موقفهم الحرج من جهة ثانية ، ليحملوا بذلك دول الحلفاء على الخروج على مبادىء الحق والعدل والإنصاف التي أعلنوها وقاتلوا من أجلها ، وهي حريات الشعوب واستقلالها . يريدون بعملهم هذا أن يحملوا الحلفاء على مساعدتهم في القضاء على الشعب العربي الآمن المطمئنّ ، في فلسطين ، يريدون إخراج هذا الشعب الكريم من موطنه ، وأن يحل اليهود المشردون من كل الآفاق ، في هذا الموطن الإسلامي العربي المقدس . وأي ظلم فادح فاضح ، لا قدّر الله ، أن يكون من نتائج هذا الصراع العالمي أن يأتي الحلفاء في آخره ليكللوا ظفرهم المقبل ، بهذا الجور ، من إخراج الشعب العربي من موطنه وأن ينزلوا مكانه شذاذ آفاق من اليهود ، لا تربطهم بهذا الموطن أية رابطة غير دعوى خيالية لا أصل لها في نظر الحق والعدل .

وفي نهاية الرسالة: إننا لا نريد محو اليهود، ولا نطالب بذلك، ولكننا نطالب بألا يُمحى العرب من أرض فلسطين من أجل إسكان اليهود فيها . إن أرض العالم لن تضيق على اليهود ، فاذا تحمل كل بلد من بلدان الحلفاء الآن ، في الوقت الحاضر ، عُشر ما تحملته فلسطين ، أمكن حل قضية اليهود ، وأمكن حل قضية إسكانهم . وكل ما نرجوه في هذا الموقف الحاضر ، هو مساعدة فخامتكم لإيقاف سيل الهجرة إيقافاً تاماً ، بايجاد أماكن لليهود في غير فلسطين يأوون إليها ، ومنع بيع الأراضي لليهود في فلسطين منعاً باتاً ، ثم يُنظر فيما بعد بين العرب والحلفاء لتأمين حياة من يمكن أن تتحمله فلسطين من اليهود المقيمين فيها الآن .

جواب روزفلت

وأجابه روزفلت ، في ١٥ يوليو ١٩٤٣ (يوافق ١٩ رجب ١٣٦٢) يقول :

حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، ملك المملكة العربية السعودية — الرياض

أيها الصديق العظيم

تلقيت رسالة جلالتكم المؤرخة في ٣٠ ابريل ١٩٤٣ المتعلقة بالشؤون التي تمس فلسطين. وإني أقدر روح الصداقة التي أبديتموها في إعرابكم لي عن هذه الآراء . ولقد أحطت علماً ، بكل دقة ، بالتصريحات الواردة في هذه الرسالة ، كما أني أحطت علماً بما جاء في كتاب جلالتكم المؤرخ في ١٩ نوفمبر ١٩٣٨ والرسالة الشفوية التي بلّغ بها المستر كيرك الوزير الأميركي في نهاية زيارته الأخيرة إلى الرياض . ولا شك أن جلالتكم قد تلقيتم رسالتي التي بلّغها المستر موس لحضرة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل . وكما ذكرت في تلك الرسالة يظهر لي من المرغوب فيه للغاية ، أن العرب واليهود

ممن تهمهم المسألة يتفاهمون تفاهماً ودياً ، فيما يتعلق بفلسطين . وذلك بمساعيهم الخاصة ، قبل انتهاء الحرب . ويسرني أن تتاح لي هذه الفرصة لأكرر تأكيدي بأن رأي حكومة الولايات المتحدة هو أنه في كل حال ، يجب أن لا يُتخذ أي قرار يغير وضعية فلسطين الأساسية ، من دون التشاور الكامل مع كلا العرب واليهود .

وفي الختام أكرر التعبير عن خير التمنيات لدوام صحة جلالتكم والرفاه لشعبكم .

صديقكم المخلص

فرنكلين د. روزفلت

من حديث لعبد العزيز

نشر الكاتب الأميركي نويل. ف. بوش ، في مجلة « لا يف » حديثاً له مع الملك عبد العزيز ، في الرياض ، يوم ١٣ ربيع الأول ١٣٦٢ (٢١ مارس ١٩٤٣) جاء فيه :

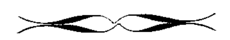
سألت الملك عبد العزيز ، عن رأيه في قضية فلسطين ، فكان مما أجاب به :

أولاً — إنني لا أعلم أن لليهود أمراً يبرر مطالبتهم بفلسطين . لأن فلسطين كانت ، من قبل البعثة المحمدية ، للعرب . سكنها بنو إسرائيل حقبة من الزمن وتسلط عليهم الرومان في ذلك الوقت ، وقتلوهم وشتتوا شملهم ، ولم يبق أثر لحكمهم فيها. والعرب قد استولوا عليها وافتكوها من الرومان منذ ألف وثلاثمائة سنة وزيادة ، وهي من ذلك الوقت بيد المسلمين . ومن هذا يظهر أن ليس لليهود حق في دعواهم هذه، لأن جميع بلدان العالم تقلبت عليها شعوب تملكتها ، وصارت الآن وطناً لهم لا منازع فيه . فلو أردنا تعقيب نظرية اليهود ، لوجب على كثير من شعوب العالم المستقر ، أن يرحل من بلاده . وفلسطين من ضمن هذه البلاد .

ثانياً — إذا كان اليهود مضطرين إلى محل يسكنونه ، فبلاد أوروبا وأميركا وغيرها من البلدان ، أوسع وأخصب من هذه البلاد ، وأتم لمصالحهم .

س — ما هو فكر جلالتكم في اتحاد العرب ؟

ج — العرب ، ليس بينهم خلاف . وأظن أنه بعد الحرب ، يحصل بينهم اتحاد بمساعدة الحلفاء .



قال عبد العزيز :

« على أميركا وبريطانيا أن تختارا بين أرض عربية ، يسودها السلام والهدوء، وأرض يهودية غارقة بالدم ..

هذه الكلمة التقطها الكولونيل وليم إدى ، سفير الولايات المتحدة لدى المملكة العربية السعودية، من كلام الملك عبد العزيز ، أمام عدد من ممثلي الدول الأجنبية ، في ربيع الأول ١٣٦٤ (فبراير ١٩٤٥) وبعث بها إلى حكومته يومئذ ، في تقرير ظل مكتوماً إلى أن أذنت وزارة الخارجية الأميركية في ١٨ / ٥ / ١٩٦٩ باخراجه من السر إلى العلن .

وثمة تقرير آخر ، قبل هذا ، بعث به السفير وليم إدى ، إلى وزير الخارجية بواشنطن ، جيمس بيرنز ، مؤرخ في ٥ / ١ / ١٩٤٥ (محرم ١٣٦٤) جاء فيه أن الملك عبد العزيز قال له :

« شرف لي أن أموت شهيداً في ساحة القتال ، دفاعاً عن فلسطين في معركتها مع اليهود ! »

ونقل عنه قوله في التاريخ : « لن يقبل العرب أبداً بقيام دولة يهودية في بلادهم ! »

في سفح رضوى

في سهل منبسط بين « شرم ينبع » و « جبل رضوى » يوم ١٠ صفر ١٣٦٤ (١٩٤٥/١/٢٥) أُقيمت في خلال ثلاثة أيام ، مدينة كاملة من الخيام ، بسرادقات الجلوس والنوم ، والفُرُش الوثيرة والمقاعد الضخمة ، تتلألأ الأضواء في كل جانب منها . نُقل كل ذلك إلى هذا السهل الأجرد ، محمولاً من بلدان بعيدة ، يصحبه جيش من العمال ، وعدد من المهندسين والإخصائيين بالاضاءة وتوزيع المياه وتنظيم الحُجر وتنسيق المفارش ، حيث قابل الملك عبد العزيز ضيفه « فاروقاً » آخر من حكم مصر من أُسرة محمد علي .

وكان من أهم بواعث الزيارة ، شعور الملكين بشدة الحاجة إلى وضع حدّ لمخلّفات الماضي القريب ، وإقامة سياسة ثابتة بين الدولتين على أُسس من التعاون والتفاهم . وكان من « مظاهر » الزيارة أنّ أمر «الجامعة العربية » ظلّ إلى ذلك الحين ، بين المدّ والجزر . لعبد العزيز رأي ، وللآخرين من زعماء العرب آراء . وتفاهم عبد العزيز وضيفه على أمور كان من جملتها البتّ في إنشاء « الجامعة »

وصدرت في خلال الاجتماع أربعة بلاغات رسمية ، عن الديوان الملكي السعودي : الأول يشير إلى أن التقاءهما كان في صباح الأربعاء ١٣٦٤/٢/١٠ (١٩٤٥/١/٢٥) والثاني بأن فاروقاً يتوجه بعد الظهر إلى المدينة المنورة . والبلاغ الثالث يذكر عودة فاروق من المدينة إلى مخيمه في سفح رضوى ، وأن المحادثات استمرت في سرادق الملك عبد العزيز إلى منتصف الليل . والبلاغ الرابع في ١٩ / ٢ / ١٣٦٤ (١٩٤٥/٢/٢ م) يذكر تبادل الهدايا

والأوسمة ، وتبادل العلمين السعودي والمصري ، باحتفال عسكري اشتركت فيه ثلّتان من الجيش السعودي وجيش البحرية المصرية ، رمزاً للصداقة بين البلدين . ثم يشير إلى انتهاء الزيارة وأن فاروقاً أبحر في الساعة العاشرة والنصف عربية من مساء ذلك اليوم ، عائداً إلى مصر .

وتبودلت في عشية اليوم نفسه ، برقيتان بين الملكين : الأولى من يخت فاروق ، والثانية من سفح رضوى ، بالتحيات والتمنيات .

بيان شبه رسمي

وفي مساء اليوم الذي وصل فيه فاروق إلى القاهرة في ١٧ صفر ١٣٦٤ (٢ فبراير ١٩٤٥) وزعت وزارة الخارجية المصرية ، على الصحف بياناً عن الرحلة شبه رسمي ، جاء فيه :

كانت الزيارة شخصية ، ولم تكن للبحث في موضوعات معينة ، ولكنها في الواقع كانت أعظم من أية زيارة رسمية أو سياسية يقصد بها حل مشكلة معينة ، لأنها دعمت ما تم من اتفاقات ، وفتحت الطريق أمام اتفاقات جديدة ، وحلت أموراً ، ومكنت صداقة ، وأوجدت محبة ، وجعلت اتحاد العرب أمراً ملموساً .

، ، ،

من اصداء اللقاء

قالت مجلة « تايم » الأميركية :

« لم يكن هذا الاجتماع مجرد رمز لاتحاد الطرفين ، وإنما يبشر بالجامعة العربية نفسها . وقد كان تحقيق إنشاء هذه الجامعة من دون اشتراك المملكة العربية السعودية فيها ، كالسراب في الصحراء . وما كان ذلك لمعارضة الملك ابن سعود لهذه الفكرة ، ولكن لأنه يعتقد أن الله قد عهد إليه ، قبل سواه ، بمهمة توحيد صفوف العرب جميعاً وجعلهم أمة واحدة ... »

عبد العزيز وروزفلت

اتصل الوزير المفوض الأميركي بجدة (الكولونيل وليم إدي) بوزير الخارجية السعودية بالنيابة (الشيخ يوسف ياسين) في أحد أيام يناير ١٩٤٥ (١٣٦٤ ﻫ) وطلب منه رفع رسالة سريّة إلى الملك عبد العزيز، بأن «الرئيس روزفلت يرغب في الاجتماع به، في مياه الإسماعيلية، عند عودته من مؤتمر يالطة»

وأجاب الملك فوراً بالموافقة، وقال: هذه مصلحة ننتهزها لمساعدة فلسطين وسورية ولبنان.

في البحر

وأقبل الملك عبد العزيز من الرياض — بالسيارات — بينما كان أحد الطرادات الأميركية ينتظره في جدة، فركبه ومعه ٤٨ رجلاً، في مقدمتهم أخوه الأمير عبد الله وابناه الأمير محمد والأمير منصور، ووزير المالية عبد الله السليمان الحمدان، ووزير الخارجية بالنيابة يوسف ياسين، والوزير المفوض بلندن حافظ وهبة، والوزير الأميركي المفوض بجدة إدي. وكانت حكومة واشنطن قد بالغت في إلحاحها بالرجاء من الملك أن يكتم خبر رحلته ووجهته وغايته، خوفاً من أن يتسرب نبأ رحلة الرئيس روزفلت إلى بعض مراكز الاستخبارات الألمانية السرية، فتملأ الأجواء بالطيارات المقاتلة والأرصاد

في الطراد كونيري

ووصل الملك إلى قناة السويس، ثم إلى البحيرات المرة حيث كان الرئيس

روزفلت ينتظره على سطح الطراد « كونيري »

ومُدّ بين الطرادين جسر ، مشى عليه الملك وبعض من معه ، فكان الاجتماع قبيل ظهر الخميس ٢ ربيع الأول ١٣٦٤ (١٥ فبراير ١٩٤٥)

الحديث بين الملك والرئيس

رحب الرئيس بالملك ، وكان يترجم بينهما الكولونيل إدي ، وإلى جانبه بعض العارفين بالإنكليزية من رجال الملك . واستمرّ الحديث نحو أربع ساعات ، تناول المجتمعون في خلالها طعام الغداء .

وكان الرئيس قد كتب للملك عبد العزيز ، كتاباً شخصياً ، قبل ثلاث سنوات ، في ربيع الآخر ١٣٦١ (ابريل ١٩٤٢) حمله إليه أول وزير مفوض أميركي في البلاد السعودية « المستر كيرك » يعرب فيه الرئيس للملك عن رغبته في أن يتاح لأحدهما أن يزور الآخر . وأجابه الملك بكتاب شخصي أيضاً ، يبادله تلك الرغبة ويأمل أن تتحقق .

ولم يكتم الرئيس روزفلت إعجابه بالملك عبد العزيز ، حين تلاقيا . كما لم يكتم الملك سروره لسنوح هذه الفرصة التي بَثّ فيها « صديقه » ما في نفسه .

وقال الرئيس : إن على رؤساء العالم أن يتحينوا الفرص ، ليتحدث بعضهم إلى بعض ويتفاهموا ويتعاونوا ، على حل ما استعصى عليهم من أمورهم .

وأفاض الملك في بيان ما تعانيه سورية ولبنان من وطأة « الانتداب » الإفرنسي وما يعتقده من جدارتهما بالاستقلال . وأجابه الرئيس ، بأن لديه كتاباً من الجنرال « ديجول » باستقلال سورية ولبنان . وقال الرئيس : انه مستعد لبذل كل مجهود في سبيل استقلالهما ، إلا الحرب ..

وأوضح الملك عبد العزيز حق العرب في فلسطين ، بايجاز وحماسة . وأجابه الرئيس روزفلت بأنه قد اقتنع بوجهة نظره ، وأنه موافق على كل ما ذكره .

ثم بحث الرئيس روزفلت قضية اليهود ، بصفتها قضية إنسانية تتعلق بايواء المشردين منهم ؛ لا بصفتها قضية تتعلق بفلسطين . وسأل الملك عن رأيه في المكان الذي يمكن أن يأوي إليه هؤلاء المشردون

فأجابه الملك : من أين شُردوا ..؟ يعود كل منهم إلى بلده .

، ، ،

ودوّن أحد من حضروا الاجتماع ، من رجال الملك عبد العزيز في أوراق لديه ما نصه : « أكد الرئيس روزفلت لجلالة الملك أنه لن يعمل شيئاً يساعد به اليهود ضد العرب ، وأنه لن يقوم بأية حركة عدائية للعرب. وذكر لجلالة الملك أنه من المستحيل عليه أن يمنع الكلام ، أو إبداء الأراء في البرلمان الأميركي ، أو في الصحافة الأميركية ، فيما يتعلق بأي موضوع ، وأن تأكيداته هنا تعبر عن سياسته المقبلة كسلطة تنفيذية لحكومة الولايات المتحدة الأميركية »

وكان من جملة ما قاله الملك للرئيس : « لا أريد كتابات بل أريد أن تعطى الكلمة من عبد العزيز لروزفلت ، ومن روزفلت لعبد العزيز »



تصريح روزفلت في الكونجرس

وبعد أن عاد الرئيس روزفلت إلى واشنطن ، أدلى بتصريح رسمي ، يوم أول مارس ١٩٤٥ في مجلس الكونجرس ، ختمه بقوله : « لقد وعيت عن مشكلة المسلمين ومشكلة اليهود ، في حديث دام خمس دقائق ، مع ابن سعود ، أكثر مما كنت أستطيع معرفته بتبادل ثلاثين أو أربعين رسالة »

بين البُحَيرات والفَيّوم والإسماعيلية

بعد انتهاء الملك عبد العزيز من مقابلة الرئيس روزفلت على الطّراد « كونيري » تحول إلى الطراد الذي كان عليه . وقد جاء دور المستر تشرشل رئيس الوزارة البريطانية . وما زال موعد الاجتماع به ومكانه ، مجهولين . وقرر المبيت ليلة ٣/٢ ربيع الأول ١٣٦٤ (١٦/١٥ فبراير ١٩٤٥) في منطقة البحيرات المرة على الطراد . وفي ضحى ٣ ربيع الأول، تقرر اجتماعه بالمستر تشرشل سراً ، في فندق الأوبرج بالفيوم .

وتحرك الطراد ، عند أذان الظهر (الجمعة ٣ ربيع الأول) متجهاً إلى الإسماعيلية ، فبلغها في أقل من ساعة . ونزل الملك ومن معه في مينائها ، وقد أُخلي الميناء من كل إنسان ، إلا من ينقلون الأمتعة ، ولا أدري من أي نوع من رجال البوليس السري كانوا . وكلهم ، أو أكثرهم ، مصريون .

واصطف على مقربة من الشاطىء ، رتل من السيارات الرملية اللون . أعدته القيادة العسكرية البريطانية لركوب الملك وحاشيته .

وحول الساعة الثانية بعد الظهر (الثامنة عربية) انطلقت السيارات على مهل . ودخلنا القاهرة ليلاً فاخترقنا شوارعها إلى طريق الفيوم الصحراوي ، ولا يعلم أحد بمن عليها .

وكان النزول والمبيت في فندق « الأوبرج » على بُحيرة قارون . وليس فيه إلا مديره وبعض الموظفين والخدم . فقد أُخلي من نزلائه في صباح ذلك اليوم . وأُحيط بحرس من رجال البوليس .

فاروق والقوتلي :

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر (حول العاشرة عربية) من يوم السبت ٤ ربيع الأول ١٣٦٤ (١٦ فبراير ١٩٤٥) أقبلت على الفندق بضع سيارات تقلّ أولاها فاروقاً (ملك مصر السابق) وشكري القوتلي (رئيس الجمهورية

السورية) وتلقاهما الملك عبد العزيز ، معانقاً . واستمر اجتماع الثلاثة قرابة خمس ساعات .

تشرشل وإيدن :

وفي ضحى الأحد (٥ ربيع الأول) وصل إلى الفندق المستر ونستن تشرشل رئيس الوزارة البريطانية يصحبه المستر أنطوني إيدن وزير الخارجية ، وآخرون من كبار السياسيين والقواد العسكريين ، فاستقبلهم الملك عبد العزيز وانفرد بتشرشل نحو ساعة . وتناول الجميع طعام الغداء على مائدة الملك .

العودة الى المملكة

ونهضنا صباح الاثنين ، فقال من اتصل بنا : إن الرئيس الأميركي روزفلت قد اجتاز منطقة « الخطر » في عودته إلى بلاده . ورُفع حجاب الكتمان عن وجود الملك عبد العزيز في الديار المصرية ، وأصبح في الإمكان أن يستمتع أياماً برؤية وادي النيل . غير أنه آثر الإسراع في العودة إلى بلاده ، لتهدئة النفوس المضطربة قلقاً عليه .

في شوارع القاهرة :

وغادرت السيارات فندق الأوبرج بالفيوم ، صباح الإثنين (٦ ربيع الأول) تحمل عبد العزيز وحاشيته . ومرّ بالأهرام ، فجيزة الفسطاط ، فميدان عابدين . وهنا توقف الركب قليلاً ، وبعث الملك أحد مستشاريه (خالداً القرقني) برسالة شخصية إلى الملك فاروق ، يشكره بها ويودعه ، ويَعِده بزيارة خاصة .

الإسماعيلية ، فجدة :

وتابع الركب سيره بالسيارات إلى الإسماعيلية ، حيث كان الطرّاد الأميركي قد عاد من رحلته وأقبل ينتظر . وأبحر الملك في اليوم نفسه إلى جدة .

من عبد العزيز ، الى تشرشل

كتب الملك عبد العزيز إلى المستر تشرشل ، في ٢٦ ربيع الأول ١٣٦٤ / ١٠ مارس ١٩٤٥ :

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، ملك المملكة العربية السعودية

إلى حضرة صاحب الفخامة المستر تشرشل رئيس الوزارة البريطانية .

يا صاحب الفخامة

إنها لفرصة سعيدة أنتهزها لأشاطركم السرور في انتصار المبادىء التي أعلنت الحرب من أجل نصرتها . ولأذكّر الشخصيات العظيمة التي بيدها — بعد الله — تصريف مقاليد نظام العالم ، بحقّ صريح قائم منذ عرف التاريخ . ويُراد الآن القضاء على هذا الحق ، بظلم لم يسجل له التاريخ مثيلاً ولا نظيراً . ذلك هو حق العرب في فلسطين ، الذي يريد دعاة الصهيونية غمطه وإزالته بشتى وسائلهم التي اخترعوها وبيّتوها ، وعملوا لها في أنحاء العالم ، بالدعايات الكاذبة ، وعملوا في فلسطين من المظالم وأعدوا للعدوان على العرب ما أعدوا ، مما علم بعضه الناس ، وبقي الكثير منه تحت طيّ الخفاء .. وهم يُعدون العدة ، لخلق شكل نازي فاشيستي ، بين سمع الديمقراطية وبصرها ، في وسط بلاد العرب بل في قلب بلاد الشرق الذي أخلص العمل لقضية الحلفاء في الظروف الحرجة .

إن حق الحياة لكل شعب ، في موطنه الذي يعيش فيه ، حق طبيعي ضمنته

الحقوق الطبيعية وأقرته المبادىء الإنسانية التي أعلنها الحلفاء في ميثاق الأطلنطيق وفي مناسبات متعددة . والحق الطبيعي للعرب في فلسطين ، لا يحتاج إلى بينات فقد ذكرت غير مرة لفخامتكم وللحكومة الأميركية ، في عدة مناسبات ، أن العرب هم سكان فلسطين من أقدم عصور التاريخ . وكانوا سادتها والأكثرية الساحقة فيها ، في كل العصور .

وأوردَ نبذة تاريخية علمية عن فلسطين وحقوق العرب فيها . ثم قال :

ولما دخل البريطانيون في فلسطين (سنة ١٩١٨ م) لم يكن عدد اليهود فيها يزيد على ٨٠ ألفاً كانوا يعيشون في رغد وهناء مع سكان البلاد الأصليين من العرب .

ثم قال : إن حل قضية اليهود المضطهدين في العالم ، يختلف عن قضية الصهيونية الجائرة ، فإن إيجاد أماكن لليهود المشتتين ، يمكن أن يتعاون عليه جميع العالم ، وفلسطين قد تحملت قسطاً فوق طاقتها . أما نقل هؤلاء المشتتين ووضعهم في بلاد آهلة بسكانها والقضاء على أهلها الأصليين ، فأمر لا مثيل له في التاريخ البشري .

وإن أخشى ما أخشاه هو :

١ ـ أنهم سيقومون بسلسلة من المذابح بينهم وبين العرب .

٢ ـ ستكون اليهودية الصهيونية ، من أكبر العوامل في إفساد ما بين العرب والحلفاء .

٣ ـ أن مطامع اليهود ليست في فلسطين وحدها ، فإنّ ما أعدوا من العدة يدل على أنهم ينوون العدوان على ما جاورها من البلدان العربية .

ثم يقول : وصفوة القول ، إن تكوين دولة يهودية بفلسطين ، سيكون ضربة قاضية لكيان العرب ، ومهدداً للسلم باستمرار ، لأنه لا بدّ وأن يسود الاضطراب بين اليهود والعرب ، فإذا نفد صبر العرب يوماً من الأيام

ويئسوا من مستقبلهم ، فانهم يُضطرون للدفاع عن أنفسهم وعن أجيالهم المقبلة .

وختم الرسالة بقوله :

وكل ما نرجوه ، هو أن يكون الحلفاء على علم بحق العرب ، ليمنع ذلك تقدم اليهود في أي أمر جديد يُعتبر خطراً على العرب وعلى مستقبلهم في سائر أوطانهم ، وأن يكون العرب مطمئنين إلى العدل والإنصاف في أوطانهم . وتفضلوا بقبول فائق احتراماتي .

عبد العزيز آل سعود

وإلى روزفلت

وكتب إلى الرئيس الأميركي روزفلت، رسالة بتاريخ رسالته إلى تشرشل وبنصها الكامـل .

من روزفلت

وأجابه روزفلت في ١٥ ابريل ١٩٤٥ برسالة قال فيها :

تذكرون جلالتكم أنني في مناسبات سابقة ، أخبرتكم بموقف الحكومة الأميركية تجاه فلسطين ، وأوضحت رغبتنا في أنه لن يتخذ أي قرار يختص بالوضع الأساسي ، في تلك البلاد ، من دون التشاور مع كل من العرب واليهود . ولا شكّ أن جلالتكم تذكرون أيضاً أنني في خلال محادثاتنا الأخيرة أكدت لكم أنني لن أعمل شيئاً — بصفتي رئيساً للسلطة التنفيذية في هذه الحكومة — يمكن أن يضرّ العرب .

وإنه ليسرني أن أجدد لجلالتكم التأكيدات التي سبق أن تلقيتموها بشأن موقف حكومتي وموقفي شخصياً ، كرئيس للسلطة التنفيذية ، فيما يتعلق بقضية فلسطين ، وأن أؤكد لكم أن سياسة هذه الحكومة في هذا الأمر ، لن تتغير . وأود في هذه الفرصة أن أبعث بأحسن تمنياتي بدوام صحة جلالتكم ورفاه شعبكم .

فرنكلين د ، روزفلت

الجامعة العربيـــة

عرفنا من سيرة الملك عبد العزيز ، في بدء الحرب العامة الأولى (١٩١٤م) أنه عندما علم بخبر نشوبها ، أسرع إلى إنفاذ ثلاثة من رجاله . يحملون كتباً إلى أقرب أمراء العرب منه ، وأبرزهم في الجزيرة ذلك الحين : ابن صباح في الكويت ، وابن رشيد في حائل ، والشريف حسين في مكة ؛ يقترح الاجتماع بهم للمذاكرة فيما قد يؤدي إلى « اتفاق » ينقذ العرب من أهوال الحرب .

وقرأنا كتابه الذي بعث به قبل الحرب إلى والي البصرة التركي (العثماني) يقترح فيه على الحكومة العثمانية « أن تدعو رؤساء العرب إلى مؤتمر يعقد في بلد لا سيادة لها فيه ولا نفوذ، ليقرروا أحد أمرين : إما أن تكون البلاد العربية كتلة سياسية واحدة ، أو ولايات مرتبطاً بعضها ببعض فيما هو عام ومشترك من المصالح »

وبين أيدينا نص « معاهدة أخوّة عربية وتحالف » عُقدت بعد ذلك بين المملكة العربية السعودية والعراق ، في محرم ١٣٥٥ (ابريل ١٩٣٦) وانضمت إليها المملكة اليمانية في جمادى الآخرة ١٣٥٦ (اغسطس ١٩٣٧) وقد جاء في المعاهدة : « يجوز لأية دولة عربية أخرى مستقلة أن تطلب الانضمام إلى هذه المعاهدة» وان الفرقاء الثلاثة المتعاقدين«سيتشاورون فيما بينهم لتنفيذالأغراض المختصة بالشؤون الإسلامية والقومية العربية » وان الممثلين الدبلوماسيين والقنصليين ، لكل منهم « يجوز أن يقوموا بتمثيل مصالح الفريق الآخر عندما يرغب الخ »

وسائر بنود المعاهدة قائمة على أساس التعاون .

، ، ،

فما كتبه الملك عبد العزيز ، وما فعله ، مما أشرنا اليه ، يدلّ على أنه كان في طليعة الداعين والساعين إلى جمع كلمة العرب وتوحيد خططهم فيما يصون مصالحهم .

، ، ،

وبرزت فكرة الوحدة أو الجامعة العربية ، في مظهر جديد ، بينما الحرب العامة (الثانية) في عامها الرابع. فكان التجاوب عليها هذه المرة بين وزير الخارجية البريطانية وحكومتي العراق ومصر . قال الأول في مجلس النواب البريطاني (١٩ صفر ١٣٦٢ / ٢٦ فبراير ١٩٤٣) : « إن الحكومة البريطانية ، تنظر بعين العطف إلى كل حركة بين العرب ، لتعزيز الوحدة الاقتصادية أو الثقافية أو السياسية بينهم »

، ، ،

ووجهت حكومة العراق رئيس وزرائها السابق ، جميلاً المدفعي إلى سورية وفلسطين ولبنان وشرقي الأردن ، ثم مصر ، ليستمع إلى آراء زعمائها في هذا الشأن .

وبعد ٣٥ يوماً من تصريح إيدن ، أعلن رئيس وزراء مصر يومئذ مصطفى النحاس ، في مجلس الشيوخ المصري ، أنه سيستطلع رأي الحكومات العربية كلا على حدتها ، ثم يدعوها إلى اجتماع في مصر يبدأ به المسعى .
وانتهى الأمر بوضع « بروتوكول الإسكندرية » في ٢٠ شوال ١٣٦٣ / ٧ أكتوبر ١٩٤٤

، ، ،

وقام ملك مصر السابق بزيارة الملك عبد العزيز ، في رضوى ١٠ صفر ١٣٦٤ (١٩٤٥/١/٢٥) فكان الاتفاق على إنشاء « جامعة الدول العربية »
وفي ٨ ربيع الآخر من السنة نفسها (٢٢ مارس ١٩٤٥) كان التوقيع على « ميثاق » الجامعة .

في الامم المتحدة

في ١٥ ربيع الأول ١٣٦٤ / أول مارس (آذار) ١٩٤٥ كان الأمير فيصل بن عبد العزيز ، وزير خارجية المملكة العربية السعودية ، قد تلقى من والده في الرياض تعليمات ، بأن يبرق إلى نائب وزير الخارجية الأميركية في واشنطن برغبة المملكة العربية السعودية في الانضمام إلى الأمم المتحدة .

وأبرق الأمير فيصل بذلك في اليوم نفسه . وأعلنت الخارجية الأميركية في ٧ مارس ١٩٤٥ (٢١ ربيع الأول ١٣٦٤) جوابها لسموه ، وفي نهايته : إن انضمام المملكة العربية السعودية ، قد جعل أعضاء الأمم المتحدة ٤٥ عضواً وإن الولايات المتحدة ، بوصفها أمينة على هذا التصريح ، يسرها أن ترحب بانضمام المملكة العربية السعودية إلى صفوف الأمم المتحدة .

وتلقت حكومة الملك عبد العزيز ، على الأثر ، دعوة من حكومات أميركا وانكلترة وروسيا والصين ، لحضور مؤتمر « الأمم المتحدة » في سان فرانسيسكو . وأجابت بقبول الدعوة .

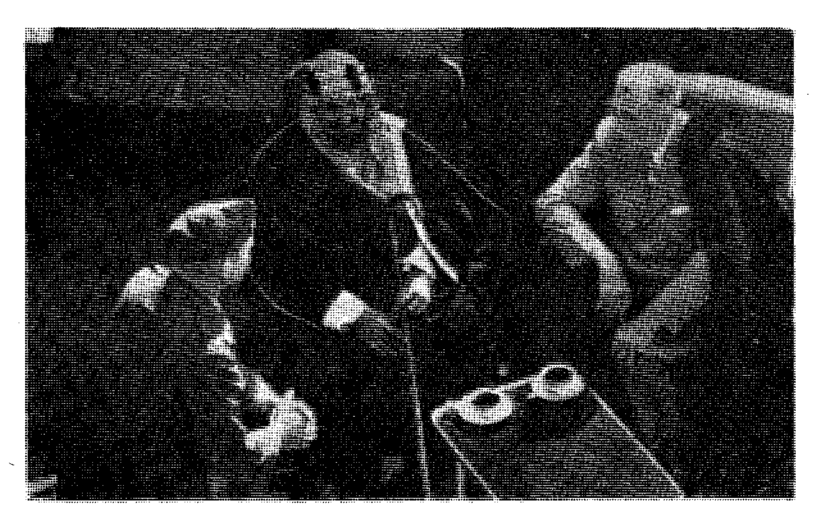
كلمة الامير «فيصل»

وكان موعد المؤتمر ٢٥ ابريل ١٩٤٥ (١٣ جمادى الأولى ١٣٦٤) فحضره الأمير فيصل ، على رأس وفد عربي سعودي . ولما تقدم للتوقيع على « تصريح الأمم المتحدة » ألقى كلمة أعرب فيها عن سروره بتمثيل بلاده ، ثم قال :

« إن الحكومة العربية السعودية ، لتنضم إلى الأمم المتحدة في تصريحها القائل

بأن مبادىء السلم والعدالة والحقّ يجب أن تسود أنحاء العالم ، وأن العلاقات الدولية يجب أن تقوم على هذه المبادىء .

« وإن من دواعي اغتباطي العظيم ، أن أقول : إن هذه المبادىء تطابق تعاليم الدين الإسلامي الذي يعتنقه ٤٠٠ مليون في العالم ، وهي التعاليم التي اتخذت الحكومة السعودية منها دستوراً تسير على هَدْيه . ولا غرو فإن الإسلام قد أقام العلاقات البشرية على قواعد الحق والعدالة والسلم والإخاء .



الملك عبد العزيز ، والرئيس روزفلت . والى اليسار الكولونيل إدي

ترومن وفلسطين

(رسالة ملكية سلمت إلى القائم بأعمال مفوضية الولايات المتحدة الأميركية)

جدة ، في ١٦ رمضان ١٣٦٤ (٢٣ أغسطس ١٩٤٥)

سمعنا في الإذاعة أقوالاً نسبت للرئيس ترومان ، عن مستقبل فلسطين واليهود فيها . وهذه التصريحات ضد مصلحة الأمة العربية جميعها . وضد مصلحتنا نحن ، في المملكة العربية السعودية ، أصدقاء حكومة الولايات المتحدة.

ونخشى أن تكون أقوال الرئيس ترومان وصلتنا محرفة ، وعلى غير حقيقتها ، لأنه من غير المتوقع أن تنهج حكومة الولايات المتحدة سياسة،هي :

أولاً : تسيء إلى جميع المسلمين في العالم .

ثانياً : تضرّ الأمة العربية جميعاً .

ثالثاً : تناقض تأكيدات الحلفاء في عدم الإضرار بحقوق العرب ، كما تناقض الوعود التي أُعطيت إلى عرب فلسطين وإلى العرب باسم فلسطين ، في عدم المساس بحقوقهم .

رابعاً : تتناقض مع التأكيدات التي أكدها الرئيس روزفلت شفوياً للملك عبد العزيز ، في ١٥ ابريل ١٩٤٥

لذلك فإن الحكومة العربية السعودية ، ترجو معرفة الحقيقة في سياسة الولايات المتحدة ، التي تثق الحكومة العربية السعودية بأنها لن تكون ضد سائر المسلمين والعرب في العالم ، كما أنها لن تنقض الوعود والتصريحات التي سبقت مما أشير إليه أعلاه .

من الملك الى ترومان

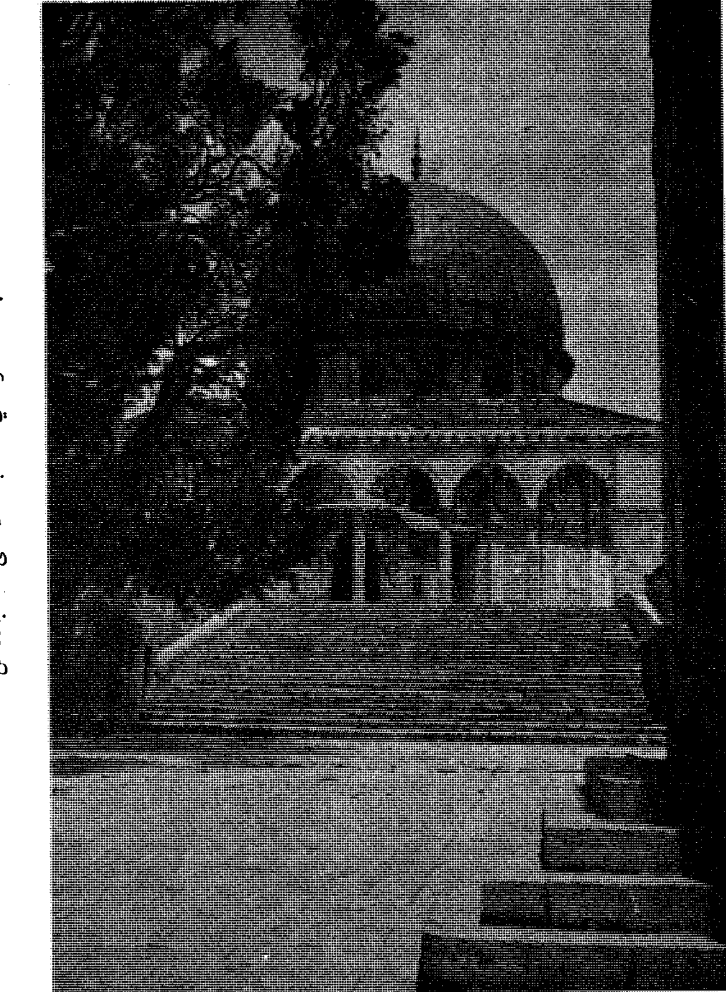
وبعث الملك عبد العزيز في ٣٠ محرم ١٣٦٥ (٤ يناير ١٩٤٦) إلى المستر ترومن ، برسالة جاء فيها :

« لا أريد في كتابي هذا أن أزيد على ما سبق وأوضح من قبل . ولكني أحب أن أبدي لفخامتكم ، اندهاشي من القرارات التي نُسبت إلى مجلس الكونجرس الأميركي ، وإلى مجلس النواب الأميركي ، في تأييد الهجرة الصهيونية لفلسطين .

« لقد أعتاد الصهيونيون بما لهم من وسائل الدعاية ، أن يحرفوا الأقوال ، كما تقتضيه أهواؤهم . وسبق أن حرفوا كلام فخامتكم . وليس كثيراً أن يحرفوا أقوال مجلس الكونجرس الأميركي ، ومجلس النواب الأميركي . ولكن إن صح ما نسب للمجلسين ، فإنه يكون مجالاً للدهشة والاستغراب . لأن ذلك يدل على أن رجال المجلسين قد ضُللوا ضلالاً كبيراً بتأثير الدعايات الصهيونية الكاذبة التي جعلت المجلسين يصدران حكماً في إدخال أمة جائرة ظالمة ، على بلاد آمنة ، مما لم يعمله المجلسان تجاه أي بلد في الدنيا ، ولم يعمله مجلس له صفة النيابة في بلاده ، تجاه بلاد أجنبية عنه .

« إنني أعلم أن سلامة البلاد العربية السعودية ، تهم حكومة الولايات المتحدة . وأحب أن يتأكد فخامتكم والشعب الأميركي ، أن برنامج الصهيونية والاستعدادات التي للصهيونية في فلسطين ، لا تعتبرها الحكومة العربية السعودية موجهة لفلسطين وحدها ، بل هي في نفس الوقت ، تُعتبر خطراً مهدداً للمملكة العربية السعودية . وقد أوضحت هذا بكل جلاء لسلفكم الراحل العظيم الرئيس روزفلت .

« فاستناداً للصداقة التي أشعر بقوتها ، المتبادلة بيننا ، أحب أن يتأكد لفخامتكم ولحكومتكم وللذين يمثلون قيادة الأمة الأميركية في مجالسها النيابية ، أن قضية الصهيونية نراها مهددةً للأمن في الشرق الأوسط ، ونعتبرها مهددة لأمن مملكتنا ، وهو الذي نعتقد أن حكومة الولايات المتحدة لا يمكن أن تساعد على السماح به ، إذا تأكد ذلك لديها . »



قبة الصخرة في المسجد الأقصى ، بالقدس

صورت سنة ١٣٥٢ هـ (١٩٣٣ م)

لجنة التحقيق في قضية فلسطين

في ١٣٦٥/٤/١٦ (٩ مارس ١٩٤٦) قابل الملك عبد العزيز ، في قصره بالرياض ، لجنة التحقيق البريطانية الأميركية ، المؤلفة من السير جون سنجلتون رئيساً ، والميجر ماننجهام بولر والمستر باكستون ، عضوين . وكان من حديثه معهم أن أمر فلسطين يهمه كثيراً . ذلك لأنه عربي ومسلم قبل كل شيء ، وأنه وجميع العرب أصدقاء للحلفاء . ومن رأيه أن من مصلحة العرب مسلميهم ومسيحييهم دوام الصداقة والاتفاق مع الحلفاء ، وأن هذه الصداقة هذا الاتفاق هما من مصلحة الحلفاء أيضاً .

وقال : إن قضية الصهيونية في فلسطين ، تهم المسلمين والعرب بصورة عامة وتهمني بصورة خاصة ، وإن العداوة التي بين اليهود والمسلمين ليست وليدة عهد جديد ، وإنما هي نتيجة عداء قديم . وإني لعلى يقين من أن اليهود الصهيونيين لا يدّخرون وسعاً في إحداث الاختلافات بين العرب وصديقتيهم بريطانيا وأميركا . وهذا يتجنبه العرب ولا يريدونه . وإن هجرة اليهود إذا استمرت على ما هي عليه وتوسعت أملاكهم في فلسطين ، فسيكونون خطراً على العرب كافة . لأن لديهم جميع الوسائل لإمدادهم بالأسلحة والنقود وغيرها ، وسيستعملون هذا ضد العرب .

ثم قال : إنني منذ أن أوجدني الله ، وصرت أسعى لاستعادة ملك آبائي وأجدادي ، ما عرفت من الدول غير بريطانيا — وكانت صديقتي — رأيت منها ما سرني ورأت مني ما سرها . ولما نشبت الحرب أيدت سياستها وسياسة حلفائها ، وثوقاً مني بأن ذلك في مصلحتي ومصلحة العرب جميعاً .

« ولقد بلغ مني الأمر ، أن تكلمت أمام جمع من المسلمين في مكة المكرمة ، ونصحتهم بأن يكونوا إلى جانب بريطانيا وحلفائها . تكلمت بهذا في وقت كان يجب به عليّ أن أكتفي بالدعوة إلى كلمة الله ، والتمسك بكتابه وبشريعة نبيه . والناس جميعاً يعلمون أن برنامجي الذي تسير عليه حكومتي هو برنامج ديني خالص . لا مطمع لي في مال أو زيادة ملك .

« وقد وقعت الآن في مشكل أمام شعبي وجماعتي ، وأمام العرب والمسلمين . فاذا كانت بريطانيا تريد أن تعدل عن الحق الواضح ، وأن تذهب مواعيدها أدراج الرياح ، فليس أمامي إلا أن أقول للمسلمين : دونكم ونفسي ، اقتلوني .. أو أنزلوني عن الملك ... لأني مستحق لذلك ... وأنا الذي جنيت عليكم وثبطت عزمكم .

« لماذا تعمل بريطانيا ، بمساعدتها للصهيونية ، على تأليف مجموعة ضدها من كل مسلم يوحد الله في الشرق والغرب ، وليس هذا من مصلحتها ؟

فقال رئيس اللجنة : إن بريطانيا دخلت حربين في ربع قرن ، لأجل السلام والحرية . وبريطانيا يهمها كثيراً ألا تضيع صداقة العرب في الوقت الذي تدعو فيه إلى سلم عالمي . فرد عليه الملك قائلاً :

« نحن يهمنا وجود السلام العالمي . ونريد أن نعيش في هذا العالم بسلام . ولكن ما دام اليهود يؤتى بهم لبلادنا ، وعددهم يزيد في فلسطين يوماً بعد يوم ، فمن المستحيل أن يستريح لنا بال أو يصلح لنا حال . وقد كنت ذكرت للرئيس روزفلت عندما اجتمعت به في العام الفائت مطامع اليهود ومقاصدهم . وأشار في أثناء حديثه إلى أنه يرغب بتزويدنا بمكائن وآلات زراعية حتى تنتج بلادنا ثمراتها ، فأجبته : ما دام اليهود في بلادنا ، فلا نريد زراعة ، ونفضل الموت على الزراعة .

وسأله رئيس اللجنة عما إذا كان قد تحدث مع المستر تشرشل والرئيس

روزفلت في هذه القضية ؟ فأجاب : تحدثت مع الرئيس روزفلت حديثاً طويلاً في قضية فلسطين ، سُجلت خلاصته بمحضر خاص. وقد كان من الذين حضروا حديثي مع الرئيس روزفلت الوزير الأميركي المفوض في جدة . وقد أطلعت المستر تشرشل على حديثي مع روزفلت ، وعلى الوعد الذي وعدني به ، فوعد المستر تشرشل بأن يقوم بالواجب من قبله في مساعدة العرب ، وعدم الإجحاف بحقوقهم . ولقد كان الرئيس روزفلت يسعى لإيجاد مكان لإيواء اليهود . وكان مقتنعاً بأن فلسطين لا تصلح أن تكون مأوى لهم ، وأن في بلاد أوربا متسعاً لهم إذ يمكنهم الأقامة في الأماكن التي خلت بما أُبيد من اليهود بسبب الحرب . ولقد كان عجيباً ما روي عن الرئيس ترومن إذ قيل إنه طلب إيواء مائة ألف يهودي في فلسطين ، بينما لم يسمح بإيواء أكثر من تسعة وثلاثين ألف يهودي في الولايات المتحدة ، كما بلغنا .

وسأله رئيس اللجنة عما إذا كان يوافق على هجرة عدد من الأطفال والعجزة واليتامى اليهود الأوربيين إلى فلسطين ، على أن يكفلهم يهود فلسطين ؟

فأجاب : العرب متفقون على رفض الهجرة . والطفل اليوم، سيكون رجلاً بعد بضع سنوات فأنا لا أستطيع أن أجيب على هذا السؤال بالقبول.

وتحدث رئيس اللجنة عن تقسيم فلسطين إلى قسمين .

فأجاب الملك بأنه واحد من العرب ، ورأيه هو ما يجمع عليه العرب ، وقد أجمعوا على رفض التقسيم وهو واحد منهم ليس له رأي خاص يخالف ما أجمعوا عليه .

فسأله الرئيس عما إذا كان يمانع في مواصلة الهجرة اليهودية بمعدل ألف وخمسمائة شخص في الشهر ؟ فأجاب : الموت خير لنا من قبول الهجرة . وكل جهادنا هو لئلا يهاجر اليهود إلى فلسطين، ولا يمتلكوا أرضها. إذا أرادت بريطانيا أن تحافظ على صلاتها الحسنة مع العرب ، فلتوقف الهجرة في الحال ،

ولتمنع بيع الأراضي ، لأن هذين الأمرين هما أساس المشكلات ومنبع الاضطرابات ؛ وتعقد مؤتمراً من رؤساء العرب والبريطانيين والأميركيين يتفق على الطريقة التي تؤمن الراحة والطمأنينة في فلسطين ، ويزال ما هنالك من خلاف ويحل السلام ، فاذا منعت الهجرة منعاً باتاً وأوقف بيع الأراضي ، أمكن الوصول إلى حل جميع المشاكل المعترضة .

فسأله عضو اللجنة البريطاني الميجر بانجهام بولر : هل الحديث الذي تفضلتم بأنه كان بين جلالتكم والرئيس روزفلت ، هو كل ما جرى بينكما من حديث ؟ فقال الملك : إنني طلبت من الرئيس روزفلت أن أتحدث معه كرجل مسلم عربي اسمه عبد العزيز ، يتكلم مع رجل هو رئيس الولايات المتحدة اسمه روزفلت ، فقبل الحديث معي بهذا الاعتبار . فقلت له : لماذا تعين على هجرة اليهود إلى فلسطين ؟ وتمكنهم من الاستيلاء عليها بغير حق ؟ فأجابني بصراحة وحزم وبكل تأكيد : إنني ما أمرت بهجرة اليهود إلى فلسطين ولا عملت أي ضغط من أجلها ، ولا يمكن أن أعمل أي عمل ضد العرب في فلسطين ، ولن أعمل ذلك في المستقبل . وقد أكد لي حديثه هذا لا بصفته المستر روزفلت فقط ، بل بصفته رئيس الهيئة التنفيذية للولايات المتحدة .

، ،

وانتهى الملك من حديثه ، فشكره رئيس اللجنة وأعضاؤها ، كل بمفرده ، على ما زودهم به من معلومات قالوا إنهم فخورون بها لصدورها عن أكبر رجل في العالم العربي .

توصيات اللجنة ، وسخط العرب

وظهرت بعد ذلك توصيات اللجنة ، فكانت مجحفة بالعرب . فأصدر الملك عبد العزيز تعليماته إلى وزيريه المفوضين ، في لندن وواشنطن ، بالسعي والتعاون حالاً مع وزراء الدول العربية الأخرى لإظهار سخط العرب، وتقديم احتجاج شديد اللهجة إلى الحكومتين البريطانية والأميركية ، معبر عن عزم العرب على رفض التوصيات .

، ،

وأمر خارجيته بجدة في ١٣٦٥/٦/٥ الموافق (١٩٤٦/٥/٦ م) أن تقدم احتجاجاً بهذا المعنى إلى مفوضيتي أميركا وبريطانيا لنقله إلى حكومتيهما .

، ،

وأمر وكيل خارجيته — وكان يومئذ في القاهرة — بأن يعمل على اجتماع ممثلي دول الجامعة العربية ، في أقرب وقت ، لبحث الموقف .

، ،

وكان من نتيجة ذلك أن تسلمت خارجيته — بجدة — مذكرة من الوزير البريطاني المفوض ، يؤكد فيها بتاريخ ٢١ / ٦ / ١٣٦٥ (١٦ مايو ١٩٤٦) أن حكومته لن تقدم على تنفيذ شيء من توصيات اللجنة قبل التشاور مع العرب واليهود .

وكذلك فعلت الحكومة الأميركية .

الى المستر ترومان

وكتب الملك عبد العزيز ، إلى المستر ترومن ، في ٢٣ جمادى الآخرة ١٣٦٥ (٢٤ مايو ١٩٤٦) رسالة جاء فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، ملك المملكة العربية السعودية ، إلى صاحب الفخامة الرئيس هاري ترومان ، رئيس الولايات الأميركية المتحدة .

يا صاحب الفخامة

تلقت حكومتنا منذ أيام قليلة ، مذكرة من الحكومة الأميركية ، مرفقاً بها تقرير « اللجنة البريطانية — الأميركية » بشأن قضية فلسطين . وقد أجابت حكومتنا باستلامها المذكرة ، وأبدت مطالعتها بصورة عامة . وليس موضوع هذه المذكرة هو الذي قصدنا أن نتكلم عنه إلى فخامتكم وإنما قصدنا أن نوجه إليكم خطابنا هذا على أثر ما سمعناه عن تصريح وزير خارجيتكم ، بشأن القواعد السياسية التي ما زالت حكومتكم الموقرة تستلهمها في موضوع تقرير لجنة فلسطين .

نحب أن نؤكد لكم ، يا صاحب الفخامة، أن البلاد العربية والإسلامية ، تعلق أكبر الآمال على الحكومة الأميركية بصفتها حاملة مشعل الحرية ، والمناضلة عن الحق والعدل . ونحن نعلم أن من بين الدوافع الرئيسية التي تحملها على مناصرة قضية الصهيونيين إنما هو اعتقادها أنها تخدم قضية العدالة والحق والإنسانية .

ولكننا يا صاحب الفخامة ، نربأ بالحرية الأميركية أن تعالج الظلم بارتكاب ظلم أفدح منه ، وأن تسعى لإغاثة شعب بائس على حساب بؤس شعب آخر ،

وأن تطالب بحرية شعب مضطهد مشتت ، بينما أن ذلك يؤدي إلى استعباد شعب آخر واضطهاده .

إننا لا نخاطبكم باسم المصلحة أو العاطفة فحسب ، وإنما نخاطبكم بصفتنا أصدقاء نعمل معاً على ما فيه خير بلادينا وشعبينا خاصة والعالم عامة . ونناشدكم باسم الإنصاف والعدل من حيث هما إنصاف وعدل .

إن قضية إيجاد ملجأ لضحايا الظلم النازي والفاشيستي ، لقضية إنسانية . ولكن فلسطين لا يمكن أن تحل قضية هؤلاء اليهود الذين انتهى اضطهادهم بزوال قوات الظلم والطغيان وهم يتخذون أمر اللاجئين وسيلة لنوال أغراضهم السياسية في فلسطين . ونحن نربأ بالحكومة التي ترأسونها أن تؤيد عملاً ينظر إليه كل عربي بأنه ظلم فادح لا مثيل له في التاريخ .

أصبح العرب يا صاحب الفخامة ينظرون إلى قضية فلسطين ، كأنها قضية حياة أو موت . وهي إن لم تعالج بالحكمة ، وعلى أساس احترام حقوق العرب ، فانها قد تجرّ إلى متاعب ومشكلات لا يعلم نتائجها إلا الله . والمهمّ أن يطمئنّ العرب إلى أن الأسس التي أعلنتها الحكومة البريطانية عام ١٩٣٩ لن تتغير .

والعرب يأملون أن يجدوا في فخامتكم وفي الحكومة الأميركية والشعب الأميركي نصراء لقضيتهم العادلة مدافعين عن حقوقهم الطبيعية وحرياتهم الأصلية التي حاربت بلادكم مرتين من أجل تصرتها . إن ايجاد ملجأ لضحايا الاضطهاد والظلم ، أمر ضروري، ولكنه يجب أن يكون منفصلاً عن قضية الصهيونية السياسية وعن مطامعها ومبادئها العرقية المستمدة من التعاليم النازية والفاشستية . هذا هو الذي نرجوه ونؤمله من فخامتكم وهو الأمر الذي حملنا على الكتابة إليكم في هذا الوقت الذي تدرسون فيه الحلول المختلفة لقضية فلسطين . وتفضلوا بقبول تحياتنا .

(عبد العزيز آل سعود)

من ترومان

وأجاب ترومن بكتاب جاء فيه :

البيت الأبيض (واشنطن)

٨ يوليو ١٩٤٦ — (يوافق ٨ شعبان ١٣٦٥)

حضرة صاحب الجلالة عبد العزيز ابن سعود ملك المملكة العربية السعودية

يا صاحب الجلالة

من دواعي سروري العظيم استلام خطاب جلالتكم المؤرخ ٢٤ مايو ١٩٤٦ المحتوى على آرائكم الأولية عن تقرير اللجنة الإنكليزية الأميركية ، في موضوع فلسطين .

وأود أن أؤكد لجلالتكم أنه سيكون مساعداً حقيقياً لي أن أستفيد من آراء جلالتكم السديدة في هذا الموضوع الصعب .

(وبعد كلام عن الصداقة بين الحكومتين والشعبين ، أشار إلى تقرير اللجنة وتناسى ما أبانه له الملك عبد العزيز) فقال ما خلاصته :

« وإني أعتقد مخلصاً أن السماح لمائة ألف يهودي بدخول فلسطين ، لن يُعَد تعدياً على حقوق العرب في فلسطين ، ولا يؤدي إلى تبديل في الوضع الحالي وإني لمقتنع بأن فلسطين تستوعب المائة ألف ساكن إضافي ، بأحوالها الاقتصادية الموجودة بها ،من دون أن يؤثر في بقية السكان الحاليين .

قد عينت ثلاثة أعضاء من وزارتي ، لضمان النظر بدقة في هذا التقرير وسيتصلون في مباحثاتهم بالحكومة الإنكليزية .

« وأرجو أن توضح الحالة بطريق الاستشارة مع العرب واليهود وأن يبقى الاتصال وثيقاً بيننا وبين كل الجهات المهتمة بهذه الأمور .

ولي الشرف أن أبقى صديقكم المخلص — هاري . اس — ترومان

من عبد العزيز الى ترومان

بسم الله الرحمن الرحيم

في ١٣٦٥/١١/١٨ (١٩٤٦/٩/١٥

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود
إلى حضرة صاحب الفخامة مستر هاري ترومان
يا صاحب الفخامة .

إن الصداقة التي تربط بلادي ببلاد الولايات المتحدة ، والصداقة التي تأسست بيني وبين الرئيس الراحل روزفلت ، والصداقة التي تجددت بيني وبين فخامتكم ، تجعلني شديد الحرص في المحافظة على هذه الصداقة وتغذيتها ، والعمل على تقويتها ، بكل الوسائل الممكنة . ولذلك تجدونني فخامتكم ألحّ وأكرّر في كل مناسبة أشعر فيها بما يخل بصداقة الولايات المتحدة مع بلادي ومع سائر البلاد العربية ، لكي أزيل ما يمكن أن يعكر هذا الصفاء .

ولقد كتبت للراحل العظيم ولفخامتكم ، عن حقيقة الموقف في فلسطين ، والحق الطبيعي للعرب فيها ، وأن ذلك يرجع إلى آلاف السنين ، وأن اليهود ليسوا إلا فرقة ظالمة باغية معتدية ، اعتدت في أول الأمر باسم الإنسانية ، ثم أخذت تظهر عنوانها الصريح بالقوة والجبروت والطغيان ، مما ليس بخاف على فخامتكم وعلى شعب الولايات المتحدة

أضف إلى ذلك أطماعهم التي يبيّتونها ، ليس لفلسطين وحدها ، بل لسائر البلاد العربية المجاورة ، ومنها أماكن في بلادنا المقدسة .

لقد دهشت للإذاعات الأخيرة التي نسبت تصريحاً لفخامتكم بدعوى تأييد اليهود في فلسطين ، وتأييد هجرتهم إليها ، بما يؤثر في الوضع الحاضر ، خلافاً للتعهدات السابقة

ولقد زاد في دهشتي أن التصريح الذي نسب أخيراً إلى فخامتكم . يتناقض مع البيان الذي طلبت مفوضية الولايات المتحدة الأميركية في جدة من وزارة خارجيتنا أن ينشر في جريدة « أم القرى » باسم بيان أدلى به البيت الأبيض في ١٦ أغسطس ١٩٤٦ وذلك البيان صريح في أن حكومة الولايات المتحدة لم تتقيد بأية فكرة من جانبها لحل مشكلة فلسطين . وأظهرتم أملكم بحلّها بواسطة المحادثات بين الحكومة البريطانية ووزراء خارجية الدول العربية . وبين الحكومة البريطانية والفريق الثالث . وأظهرتم فخامتكم رغبتكم في اتخاذ تسهيلات في الولايات المتحدة ، لإيواء المشردين وفي جملتهم اليهود . ولذلك كانت دهشتي عظيمة حين اطلاعي على البيان الأخير الذي نسب لفخامتكم ، مما جعلني أشك في صحة نسبته إليكم ، لأنه يتناقض مع وعود حكومة الولايات المتحدة والتصريح الذي صدر في ١٦ اغسطس ١٩٤٦ من البيت الأبيض . وإني لعلى يقين من أن شعب الولايات المتحدة الذي بذل دمه وماله ، في مقاومة العدوان الغاشم ، لا يمكن أن يسمح بهذا العدوان الصهيوني على بلد عربي صديق لم يقترف ذنباً غير إيمانه بمبادىء العدل والإنصاف ، التي قاتلت من أجلها الأمم المتحدة ، وكان من أركانها بلاد الولايات المتحدة ، وكان لفخامتكم ، بعد سلفكم العظيم ، المجهود العظيم في هذا السبيل .

ورغبة مني في المحافظة على صداقة العرب والشرق مع الولايات المتحدة ، أوضحت لفخامتكم ، بهذا البيان ، الظلم الذي يمكن أن يحيق بالعرب ، إذا بذلت أية مساعدات لهذا العدوان الصهيوني . ويقيني أن فخامتكم ومن ورائكم شعب الولايات المتحدة ، لا يمكن أن يقبل بأن يدعو للحق والعدل والإنصاف ، ويحارب من أجل ذلك ليقره في سائر أنحاء العالم ، ثم يمنع هذا الحق والعدل عن العرب في بلادهم فلسطين التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم منذ العصور القديمة .

واقبلوا فائق تحياتي   (عبد العزيز آل سعود)

من ترومان الى عبد العزيز

وأجاب المستر ترومان ، في ٢٥ أكتوبر ١٩٤٦ (١٣٦٥/١١/٢٨) برسالة طويلة جاء فيها :

يا صاحب الجلالة

استلمت الآن الكتاب الخاصّ بفلسطين ، الذي تفضلتم جلالتكم بإرساله إليّ بتاريخ ١٥ أكتوبر ١٩٤٦ وقد اهتممت للآراء التي احتواها ذلك الكتاب ، وإني أقدر حق التقدير الصراحة التي أعربتم عنها في كتابكم وإني لمتأكد من أن جلالتكم ستوافقون على أن حالة بقايا ضحايا الاضطهاد النازي في أوربا ، تخلق مسألة عويصة لا يمكن تجاهلها . وكثير من هؤلاء يتطلعون إلى فلسطين ويعتبرونها جنة ، حيث يأملون أن يجدوا ملجأ بين ملتهم ، فيستأنفوا حياة هادئة نافعة ، ويساعدوا على استثمار الوطن اليهودي القومي .

إن الحكومة والأمة الأميركية قد أيدوا منذ البداية مشروع الوطن القومي اليهودي في فلسطين .

ثم يقول : وكانت حكومتي مهتمة مع بعض الحكومات الأخرى ، لإمكان تأسيس مستعمرات خارج أوربا لهؤلاء المشردين المضطرين كثيراً للهجرة من أوربا ، ومما أثلج صدورنا أن كثيراً من زعماء العرب أظهروا رغبة بلادهم بأن يساهموا في هذا المشروع الإنساني ، بقبول عدد معين من هؤلاء الأشخاص في بلادهم . وفيما يختص باحتمال استعمال اليهود القوة والعنف ضد جيرانهم العرب ، حسب ما جاء في كتابكم فإنه يمكنني أن أؤكد لكم أن هذه الحكومة تقف ضد كل اعتداء من أي نوع من استعمال الإرهاب ، لأسباب سياسية . وفوق هذا يمكنني أن أُضيف بأنني مقتنع أن زعماء اليهود المسؤولين لا يفكرون في اتباع سياسة العدوان على الممالك العربية المجاورة لفلسطين .

ولا يمكنني أن أتفق مع جلالتكم بأن تصريحي في ٤ أكتوبر ، غير متفق بأي حال مع تصريحي الذي نشر في ١٦ أغسطس . وفي التصريح الأخير كان الأمل أن نتيجة المحادثات المقترحة بين الحكومة البريطانية وممثلي اليهود والعرب ، تؤدي إلى حلّ معتدل لمسألة فلسطين ، وتتخذ الخطوات مباشرة لتخفيف حالة اليهود في أوربا . ومن المؤسف أن هذه الآمال لم تتحقق .

ولم أستطع أن أفهم لماذا يشعر جلالتكم بأن هذا البيان قد كان مخالفاً للوعود السابقة والبيانات التي أدلت بها هذه الحكومة ؟ فمن المستحسن أن يتذكر بأن الحكومة الأميركية ، عندما أوضحت موقفها في الماضي عن موضوع فلسطين ، أعطت تأكيداتها بأنها لن تقوم بأي عمل يبرهن على عداء للعرب . كما أنه ، بحسب نظرها ، لن يكون هناك أيّ قرار فيما يتعلق بالحالة الأساسية لفلسطين من دون سابق استشارة مع العرب واليهود . وإني لا أعتبر بأنه حتى لقبول عدد معلوم من اليهود المشردين في فلسطين أو أن بياناتي فيما يختص بحل موضوع فلسطين ، هما بأي حال يمثلان عملاً عدائياً للعرب . ولقد كان ، ولا يزال ، شعوري نحو العرب عندما أدليت بهذه البيانات ، شعور صداقة تامة .

إلى أن يقول :

ويمكنني أن أؤكد بأن حكومة الولايات المتحدة وشعبها ، سيكونان مهتمين لمصالح العرب وسعادتهم ، مقدرين بذلك قيمة صداقتهم التاريخية .

وأنتهز الفرصة لأرفع لجلالتكم تحياتي الشخصية الحارة وأطيب تمنياتي لدوام صحتكم ولرفاه جلالتكم وسعادة شعبكم .

المخلص : هاري . اس . ترومان

من عبد العزيز الى ترومان

وكتب الملك عبد العزيز إلى الرئيس الأميركي ترومان ، في ١٣٦٥/١٢/٧ (أول نوفمبر ١٩٤٦) رسالة جاء فيها :

تلقيت بتقدير فائق ، رسالة فخامتكم التي بعثتموها إليّ بتاريخ ٢٥ أكتوبر ١٩٤٦ وإني أقدر صداقة فخامتكم وشعب الولايات المتحدة لي شخصياً ولبلادي ولسائر البلاد العربية .

ان مبادىء الإنسانية ، ومبادىء الديمقراطية ، التي قامت عليها دعائم الحياة في الولايات المتحدة ، تتنافى مع إكراه شعب آمن في وطنه بادخال عناصر أجنبية عنه ، لتتغلب عليه وتخرجه من بلاده ، مستعملة في ذلك تضليل الرأي العالمي ، باسم الرحمة بالإنسانية ، ومن وراء ذلك الحديد والنار .

ذكرتم فخامتكم في كتابكم أنه يمكنكم أن تؤكدوا أن حكومة الولايات المتحدة ، تقف ضد كل اعتداء أو أيّ نوع من أسباب الإرهاب لأسباب سياسية إذا نفذ اقتراحكم بشأن اليهود . وذكرتم أنكم مقتنعون بأن زعماء اليهود المسؤولين لا يفكرون في اتباع سياسة العدوان على الممالك العربية المجاورة لفلسطين . وبهذه المناسبة أحب أن أذكّر فخامتكم بأن الحكومة البريطانية هي التي أعطت وعد بلفور ، وهي التي نقلت المهاجرين اليهود إلى فلسطين ، تحت حماية حرابها ، وهي التي آوتهم وآوت زعماءهم ولا تزال توليهم شفقتها ورحمتها بهم . ورغم ذلك فإن الجيش البريطاني يكتوي بنار اليهود الصهيونية كل صباح ومساء ولم يتمكن هؤلاء الزعماء أن يمنعوا العدوان من أنفسهم عمن آواهم ونصرهم . فإذا كان اليهود ، وهم في حالتهم الحاضرة لم تتمكن الحكومة البريطانية المحسنة إليهم من منع شرورهم وهي التي تملك من وسائل القوة ما لا يملكه العرب ، فكيف يستطيع العرب أن

يأمنوا من اليهود في الحال والاستقبال ؟ أعتقد بأن فخامتكم توافقون معي بعد استعراض الموقف ، على أن العرب الذين هم اليوم أكثرية في بلادهم لا يمكنهم أن يطمئنوا لدخول اليهود بينهم ، ولا يمكنهم أن يطمئنوا لمستقبل البلاد المجاورة لهم .

وأستميح فخامتكم أن أبدي بصراحة أن التغيير الأساسي لفلسطين يكون بأن تصبح الأكثرية العربية أقلية ، وهذا هو الركن الأساسي . والمبادىء الديمقراطية تقضي بأنه متى وجدت أكثرية في بلد ، فالحكومة تكون للأكثرية لا للأقلية . فاذا فقد العرب نسبتهم العددية الحاضرة فقدوا كل ميزات الحكم في بلادهم . وأي تغيير أساسي أعظم من هذا التغيير ؟

إني على يقين بأن فخامتكم لا تقصدون معاداة العرب ، بل تتمنون الخير لهم . وأعتقد بأن شعب الولايات المتحدة لا يمكن أن يرضى بمخالفة المبادىء الإنسانية والديمقراطية . وقد أوضحت هذا لفخامتكم ، اعتماداً على الصراحة التي اعتدت عليها.وأحبّ أن تثقوا بأن رغبتي في الدفاع عن العرب ومصالحهم لا تقلّ عن رغبتي في الدفاع عن سمعة الولايات المتحدة في البلاد الإسلامية والعربية وفي العالم أجمع . ولذلك تجدونني حريصاً كل الحرص على أن أواصل مساعيّ لإقناع فخامتكم وشعب الولايات المتحدة بالحقوق الإنسانية والديمقراطية التي تستهدفها الأمم المتحدة ويستهدفها فخامتكم وشعب الولايات المتحدة .

ولذلك أتوقع أن تعيدوا فخامتكم النظر في هذا الموقف . لإيجاد حلّ عادل لهؤلاء المشردين ، يحفظ لهم حياتهم في البلاد الواسعة ، بدون اعتداء على شعب آمن مطمئن في بلاده .

وتقبلوا تحياتنا **عبد العزيز آل سعود**

من ترومن الى عبد العزيز

وأجاب ترومان على هذه الرسالة ، في ١٣ يناير ١٩٤٧ (يوافق ٢٠ صفر ١٣٦٦) بما خلاصته :

آسف جداً لتأخير الإجابة على كتاب جلالتكم الخاص بفلسطين والمرسل لي في نوفمبر ١٩٤٦ وكان التأخير نتيجة لرغبتي في أن تُدرس النقاط التي أبداها جلالتكم في الكتاب ، بعناية تامة .

وبعد أن كرر التنويه بالصداقة ،قال : لا شك في أن مشكلة فلسطين هي أصعب مشكلة يواجهها العالم في الوقت الحاضر .

ثم قال : لم يكن لدى الولايات المتحدة فكرة في مباشرة سياسة مجحفة بمصالح السكان الوطنيين بفلسطين . وترغب حكومة هذه البلاد (أميركا) الصيانة التامة لحقوق العرب واليهود ، من سكان فلسطين ، وأن يحيا العرب واليهود في فلسطين حياة يُسر مجردة من أي نوع من العسف السياسي أو الاقتصادي . إننا سنعارض بشدة أي حل لمشكلة فلسطين يسمح بتمييز لأغلبية السكان ضد الأقلية ، من الوجهة الدينية والجنسية أو أيّ بواعث أخرى . واعتقادنا بأن تحل هذه المشكلة بطريقة تعطي الجماعات المختلفة في الجنسية والدين ، الفرص والحريات المماثلة ، بصرف النظر عن أن يكون لأية جماعة أغلبية عددية في أي وقت كان .

وأنتهز هذه المناسبة لأوضح لكم أني لا أعتبر البيانات التي حرصت فيها على أن يسمح على الأقل لـ ١٠٠,٠٠٠من اليهود اللاجئين من أوربا بالدخول إلى فلسطين مناقضة للبيانات أو التأكيدات السابقةالتي قطعتها حكومة الولايات المتحدة على نفسها . وقد أوضحت هذه الحكومة مراراً بأن وجهة نظرها هي أنه لن يكون هناك تغيير في الوضع الأساسي بفلسطين ، من دون استشارة العرب واليهود كليهما .

حول التقسيم

وفي ١٣٦٦/١١/١٢ (١٩٤٧/٩/٢٧) أرسلت وزارة الخارجية العربية السعودية بناءً على أمر الملك عبد العزيز ، مذكرتين : إحداهما إلى المفوضية البريطانية ، والثانية إلى المفوضية الأميركية بجدة ، بشأن توصيات لجنة التحقيق الدولية بتقسيم فلسطين وإقامة دولة يهودية فيها .

وفي المذكرتين إيضاح لأخطار هذا القرار وما فيه من منافاة لحقوق العرب ، وما قد يحدث من ردّ الفعل في العالم العربي ، ثم تقول الخارجية : « وهي بهذه المناسبة تناشد المسؤولين من رجال الحكومتين — البريطانية والأميركية — ملاحظة ما قد ذكرته حكومة جلالة الملك مراراً وتكراراً ، وما نصحت به من عدم تأييد الصهيونيين الذين سيكونون وبالاً على الشرق الأوسط ، وعلى الإنسانية جمعاء ، بما سيقترفونه من آثام . وإن حكومة جلالته لتعتقد بأن التمادي في هذه السياسة ، سيكون من الأسباب القوية لإثارة حرب عالمية ثالثة تُكوى بها البشرية . لهذا ولما قدّمته المملكة العربية السعودية في مراجعاتها السابقة ، فإنها تبعث باحتجاجها الصارخ على ما يقرر ضد مصلحة العرب في فلسطين . وهي ترجو أن تنظر الحكومتان (البريطانية والأميركية) لهذه القضية على ضوء الحق والعدالة »

، ، ،

خطورة الموقف في الشرق الأوسط

وفي ١٣٦٧/٣/١ (١٩٤٨/١/١٢) سلّمت وزارة الخارجية بجدة ، وزير الولايات المتحدة المفوض ، رسالة من الملك عبد العزيز لينقلها إلى حكومته . بين فيها خطورة الموقف في الشرق الأوسط ، والدماء التي تهرق في فلسطين ، ومدى خطر ذلك . وحرصه على ألاّ تزداد الحالة والعلاقات سوءاً بين العرب

والولايات المتحدة . وأنه يود أن يُعلم الولايات المتحدة بأن العرب مجمعون على القتال إلى آخر ولد يلد منهم ، وليس ذلك عن رغبه منهم بالحرب والاشتباك بأحد ، وإنما هو بدافع الدفاع عن النفس والوطن والشرف »

ثم يقول : « هذا الذي عرفته عن العرب ، وأنا واحد منهم ، وهذا الذي يحملني على أن أصارح حكومة الولايات المتحدة الأميركية بهذه الحقيقة ، وأني رأيت من العقلاء استنكاراً لما قامت به الولايات المتحدة الأميركية من حمل الممكن حمله من أعضاء هيأة الأمم المتحدة على قبول تقسيم فلسطين العربية ، وإقامة دولة يهودية في بلد عربي لا حقّ لليهود في كثير منه ولا قليل »

من يمنع الخطر ؟

وفي ١٣٦٧/٦/٢٩ (١٩٤٨/٥/٩) وردت على الملك عبد العزيز برقية من المستر أرنست بيفن (وزير خارجية بريطانيا) يرجو فيها النظر بعين الجد إلى مقترحات تضمن السلم في فلسطين ، وتحول دون ازدياد تدهور الحالة ، وأن يقدر العرب الموقف حق قدره قبل أن يصلوا إلى قرار نهائي .

وأجاب الملك على البرقية ، بواسطة المفوضية البريطانية بجدة : « مع تقديرنا لوجهة نظر الوزير البريطاني والشعور النبيل الذي دفعه إلى ذلك ، فإننا لا نرى أن أحداً يستطيع أن يقوم بالواجب في هذه المسألة ، لمصلحته الشخصية ومصلحة أصدقائه ، ويستطيع أن يمنع الخطر إلاّ حكومة بريطانيا »

وجاء في جواب الملك أيضاً ، أنه مع تقديره لوجاهة آراء المستر بيفن : « لا ينفع في الخائف أن يقال له لا خطر عليك ! » وأنه « لم يبق لتلافي الأمر إلاّ طريقتان : إما أن تقوم الحكومة البريطانية بنفسها بالواجب وتتحمل المسؤولية ، أو تترك الحبل على الغارب وحينذاك لا يستطيع أحد أن يعرف ما تصير إليه الأمور » ، و « يقيني أنهم إذا لم يحملوا هذه المسؤولية فإن الخطر سيكون كبيراً يتأسفون لنتائجه كما يتأسف العرب عليه »

من عبد العزيز الى الحكومة الاميركية

وفي ١٢ رجب ١٣٦٧ (٢١ مايو ١٩٤٨) بعث الملك عبد العزيز إلى الحكومة الأميركية بواسطة وزيرها المفوض بجدة ، يطلب إليها أن تتبصر في الموقف بفلسطين جيداً ، فإنه يزداد خطورة .

، ، ،

ويقول : « كنت من قبل أشير على العرب بالتأني . ولكن بعد وقوع ما وقع من سفك دماء النساء والأطفال ونهب الأموال ، لم أجد بداً من أن يقوم العرب بواجبهم »

، ، ،

ثم يقول : « إن كان قصد الولايات المتحدة الأميركية تحدّي العرب ، وقد تعمدت ذلك ، فإن العرب يفضلون الموت على الحياة ، وإن كان ما بدر من الخطأ مظنة الاصلاح فنأمل التبصر في الأمر » .

المعــركة

قال المؤرخ الألماني فون ميكوش[1] :

انتهى الانتداب البريطاني على فلسطين في الرابع عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨ (٤ رجب سنة ١٣٦٧) فأعلن اليهود في الليلة نفسها قيام دولتهم المستقلة . وتحركت الجيوش العربية في فجر اليوم التالي للقضاء على هذه الدولة الجديدة . وكان الاستعداد للمعركة الفاصلة قد بدأ من كلا الجانبين ، قبل ذلك بعدة أشهر ، وما خضع العرب ولا اليهود لقرار هيئة الأمم المتحدة بتقسيم البلاد . وكانت المدن والقرى الفلسطينية في خلال ذلك مسرحاً للقتال الدامي . وقد هيأ اليهود ٦٠ ألف مقاتل في منظمات مدربة « الارغون والشتيرن والهغاناه » وأخذوا يحتلون كل بقعة يجلو عنها الإنكليز . ثم انتشرت أعمالهم الإرهابية في كل مكان . وكان من مقررات الجامعة العربية في البداية ، ترك الكفاح لأهالي فلسطين العرب ، والاكتفاء بمساعدتهم بالسلاح والمال . ولم تفكر الحكومات العربية بتدخّل جيوشها النظامية إلاّ بعدما أحرز اليهود عدة انتصارات في أواخر أيام الانتداب البريطاني . وقد أخذوا يشنون حملات إبادة لإرهاب السكان العرب الذين لم يلجأوا إلى الفرار . ونظموا عدة مذابح أخصها مذبحة « دير ياسين » قرب القدس ، حيث فتكوا بجميع سكانها بما في ذلك النساء والأطفال والعجز ، فاستولى الذعر على سكان فلسطين العرب ، وبادروا إلى الفرار عبر الحدود السورية واللبنانية والأردنية .

وإذا كانت الجيوش العربية قد مُنيت بالهزيمة رغم تفوقها العددي ،

---

(١) في كتابه « عبد العزيز » نقله إلى العربية الدكتور أمين رويحة .

فمردّ ذلك إلى افتقارها لقيادة موحدة . في حين كان اليهود يحاربون بشكل جنوني لبناء دولتهم . كما لعبت المنافسات والمنازعات وعوامل الحسد والانقسام وبعثرة الصفوف دورها على المسرح العربي . وأدى الملك عبد الله دوراً بارزاً في هذا المجال . يضاف إلى ذلك أن أفواجاً عربية عديدة ، كانت تحارب بأسلحة مفتقرة إلى الذخيرة . كما كانت الجيوش العربية مفتقرة إلى سيارات النقل ، والسيارات المصفحة ، وجرارات المدافع ووسائل التموين المنظمة . وأما الجيش المصري ، أقوى الجيوش العربية ، فقد كانت أسلحته فاسدة ، نتيجة صفقات دبرتها عناصر خائنة في البلاد . اه

، ، ،

ختـــام البحث

لم يكن هدفي ، كما هو واضح ، أن أؤرخ لقضية فلسطين ، في معرض الحديث عن واضع أُسس الدولة السعودية الحديثة ، وإنما أردت أن أعرض صفحة قائمة على الأرقام والتواريخ والنصوص ، من صفحات ما بذله عبد العزيز من مجهود في هذه الناحية . وقصاراي أن أكون قد نقلت إلى القارىء صورة صحيحة عن شعوري بأنعبد العزيز لم يترك سبيلاً اهتدى إليه إلا سلكه ، لدفع الكارثة عنتلك البقعةالعزيزة الغالية منبقاع العرب والإسلام.بذل المال والرجال ،وقابل الأقطاب ممن بأيديهم زمام السياسة العالمية ، وكاتبهم ، ومتّ إليهم بصداقات وعلاقات ، وجال معهم في كل ميدان ؛ وللسياسة أذن صماء ، ولا يفلّ الحديد إلا الحديد ...

الزيارة الثانيـــة لمصر

ألقى الملك عبد العزيز نظرة خاطفة على ديار وادي النيل ، عقب اجتماعه في « البحيرات المرة » بالرئيس الأميركي روزفلت سنة ١٣٦٤ هـ (١٩٤٥ م) ولم يشأ أن يجعل تلك الزيارة رداً لزيارة فاروق يوم جاءه في سفوح « رضوى » فخصّه بالثانية لتكون خالصة للديار المصرية .

واستعدّت مصر للقاء ضيفها استعداداً منقطع النظير .

ووصلت إلى ميناء جدة ثلاث سفن مصرية ، مزدانة بالأعلام والشارات تحمل إحداها بعثة شرف أُوفدت لمرافقته في قدومه إلى السويس .

ونزلت بعثة الشرف بجدة ، فصحبت عبد العزيز إلى اليخت « محروسة » وتحرك اليخت عصر الإثنين ٤ صفر ١٣٦٥ (٦ يناير ١٩٤٦) فمرّ صباح الخميس ٧ صفر أمام « فنار زينوبيا » حيث كانت في انتظاره زوارق البوليس المصري ومصلحة خفر السواحل ، فأحاطت به للحراسة . وعلى مقربة من « بور توفيق » بالسويس ، حلق فوق اليخت سرب من طائرات سلاح الطيران وأطلقت قلعة السويس ٢١ مدفعاً ، ورسا اليخت بميناء بور توفيق ضحى الخميس ، وصعد ملك مصر لمعانقة العاهل السعودي . وقدّم الضيف إلى المضيف من كان معه من الأمراء والوزراء وكبار الحاشية . كما قدم المضيف رئيسي وزرائه وديوانه ، ووزير خارجيته وبعض كبار موظفيه .

وامتطى الملكان « القطار الخاصّ » في السويس ، إلى القاهرة . وفي محطة القاهرة كان كبار الدولة في الاستقبال . وقدّمهم المضيف إلى ضيفه بأسمائهم .

ومضى الركب بالسيارات إلى « قصر عابدين » بيت المضيف ، ثم رَكب الملكان إلى قصر « الزعفران » المعدّ لإقامة عبد العزيز ومن معه .

وتتابعت في الأيام التالية الولائم والرحلات والحفاوات . وكان مما زاره الضيف : الجامعة المصرية ، وسباق الخيل ، والقناطر الخيرية ، والبرلمان ، والمتحف الزراعي ، وحديقة الحيوانات ، ومصانع الغزل والنسيج ، في « المحلة الكبرى » ومزرعة أنشاص ، ومعالم الإسكندرية . وبات بها في قصر « رأس التين » واختتمت الزيارة بمأدبة غداء في قصر عابدين ، يوم الاثنين ١٨ صفر (٢١ يناير)

في خلال الرحلة

أمضى الملك عبد العزيز اثنى عشر يوماً في وادي النيل . وما رُئي وجهه يطفح بالبشر ، كما كان في أيامه هذه بمصر .

زار وادي النيل ، وفي الوادي أحزاب ، فتلقاه شعبها « حزباً واحداً »

وكانت الأقلام على أشد ما تكون اعتراكاً في صحافة مصر ، فلما حل بها عبد العزيز تهادنت على غير موعد وتناست كلّ حديث إلا ما يسرّ الضيف .

وكان الملك عبد العزيز يجلس للمسلّمين عليه ، مجلساً عاماً في قصر الزعفران . وجاء وفد من المتعممين ، فسألوه عن قضية فقهية انفرد بها مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، فأشار الملك إلى أخيه الأمير عبد الله بن عبد الرحمن ، وقال : هذا أخي ، هذا فقيه آل سعود وعالمهم ، اضربوا معه موعداً للحديث. إنه أعلم مني بما تذكرون . وصمت السائلون .

العقاد يروي

وكان الأستاذ « عباس محمود العقاد » من أعضاء وفد الشرف الذي حضر

من مصر إلى الحجاز لمرافقة الملك عبد العزيز ، في زيارته هذه لمصر .

ويذكر العقاد أن حديثاً دار في مجلس الملك عبد العزيز ، وهم متجهون من جدة إلى السويس على « يخت المحروسة » . وكان الحديث عن « الجامعة العربية » فقال الملك : إنها منار لنا ، لأنها تصدر في أعمالها عن بحوث مشتركة بين ذوي الرأي والبصيرة ، يرون في جملتهم ما لا يراه أهل كل بلد على انفراد . وإنها دريئة للدول العربية ، لأن حجة الدولة التي تحتج بقرار الجامعة قائمة ، وعذرها فيما ترضاه أو تأباه مقبول .

قال العقاد : وشفع جلالته هذا البيان بمَثَل بليغ كعادته في توضيح آرائه بالمواعظ والأمثال ، فقال :

كان في مملكة من الممالك منار مغناطيس ، يكشف البحار من حولها ، وينتزع الحديد من السفن التي تغير عليها ، فلا يقدر أحد على فتحها ، واشتدت شوكة هذه المملكة ، فحسدها جيرانها وأخذوا في تدبير المكايد لهدم منارها ، فدسوا عليها جاسوساً من جواسيسهم يتزيا بزي النسّاك الصالحين ثم تركوه يقيم فيها ردحاً من الزمن حتى يستجمع الثقة والمودة من أبنائها ، وطفق هذا الجاسوس يصنع لهم الكرامات ويدلهم على مخابىء الكنوز ويمخرق عليهم بالعجائب حتى أنسوا به واطمأنوا إليه . فلما عرف مكانته عندهم ، جاءهم في بعض الأيام برؤيا يزعم أنه رآها ، ويزعم لهم أنه يخاف عقباها . وسألوه عما يخافه ، فأحجم ثم أحجم وهو يغريهم بالإلحاح عليه كلما اصطنع لهم الإحجام وتردد في الجواب . فلما شوقهم غاية التشويق إلى استطلاع الخبر قال لهم : إني مطلعكم عليه والعهدة عليكم ، وإن تحت هذا المنار كنزاً من الذهب والجوهر يغنيكم عما في الأرض وما رحبت من النفائس والخيرات ، ولا تنالونه إلا بهدم المنار ، ولكن حذار حذار من الإقدام على هدم المنار .

وكان الرجل كاذباً في نية التحذير صادقاً في نية الإغراء ، فما هو إلا

أن سمعوا منه إغراءه بالنفائس والخيرات حتى دكوا المنار دكاً ، فعرفوا غفلتهم واستبيحت حوزتهم ، وفقدوا الدريئة وفقدوا النور ، فتمكن منهم من كان يتقيهم من الجيران والأعداء .

قال جلالته : وكل عربي يمسّ هذا المنار طمعاً في المال والحطام ، إنما يصيب قومه بمثل ما أصاب أولئك الغافلين .

مع السوريين

زاره في قصر الزعفران بالقاهرة عدد من وجوه السوريين ، فأفاض في الحديث معهم ، ثم قال :

أحبّ إليّ أن تكون سورية مستقلة ، تحكم نفسها بنفسها ويرى أمورها رجالها ، وليس لي مقصد بأن أحكم بلادكم بنفسي ، أو بأحد أبنائي بل أقول لكم : اعتمدوا على أنفسكم فخير لكم أن تتولوا أموركم بأنفسكم . لكم الآن صديق ، هو أنا . واعتصموا بحبل الله ويدكم واحدة . هذه نصيحتي وأنا لكم ومعكم .

« لقد قابلت روزفلت ، وتكلمت معه بشأن سورية ولبنان وفلسطين ، وفاتحني هو بشأن إصلاح بلادى ، بما تحتاج إليه من تحسين الزراعة ونشر المعارف وإصلاح حال الجيش ، فقلت له : إنني أحب العمل للبلاد العربية كافة ليس لبلادي خاصّة ، وليس لي مطالب من الأميركيين ، سوى سورية ولبنان وفلسطين . فوعدني بمساعدة العرب ، ثم قال روزفلت : إن الصهيونية لا تؤثر فيّ ولا في انتخابات بلادي ، لأن مليون صوت يهودي لا يؤثر في عشرات وعشرات الملايين من الناخبين الأميركيين .

وختم الملك حديثه قائلاً : « نحن جنود لخدمة الوطن العربي في كل بقعة من بقاعه . نشأنا على هذا ، وسنظل على ذلك حتى ينال العرب استقلالهم جميعاً . أنا لا يهمني ترف الحياة ، فطالما تركت الغذاء أياماً ، وأنا أجاهد .

والآن لا أزال مستعداً أن آكل يوماً وأجوع يوماً ، لتعيش بلاد العرب جميعاً .

وداع مصر ، والوصول الى جدة

وكان الوداع من محطة مصر ، يوم ١٩ صفر (٢٢ يناير) والإبحار من ميناء بور توفيق ، في أصيل اليوم نفسه ، على اليخت « محروسة » والوصول إلى جدة في صباح ٢٢ صفر ١٣٦٥ (٢٥ يناير ١٩٤٦)

عبد العزيز يخاطب الشعب السعودي

وما كاد الملك عبد العزيز يبلغ ميناء جدة ، حتى أذاع في شعبه كلمة أشار بها إلى اجتماع « رضوى » وما أسفر عنه من وفاق ، وإلى ما قدمت بلاد النيل من حفاوة وإكرام ، ثم قال :

« شعبي العزيز

« من فضل الله علينا جميعاً أن كانت كلمتنا في هذه الزيارة والتي قبلها مجتمعة على مواصلة جهودنا في تأييد جامعة الدول العربية ، وبذل كل مرتخص وغال في تأييد التضامن بين سائر دول الجامعة ، بالقلب والروح ، لما فيه خير دول الجامعة ، بل لما فيه الخير لسائر البلاد الإسلامية والعربية . وسنستمر على هذه السياسة بمشيئة الله ما حيينا ، وسنورثها بنينا حتى يظل العربي يشعر في كل موطن يمرّ به من بلاد العرب بأنه يسير في موطنه ، ويعتز في كل موطن من تلك المواطن بما يعتز به في وطنه وبلاده .

« شعبي العزيز

« ليس البيان بمسعف في وصف ما لاقيت ، ولكن اعتزازي اني كنت أشعر بأن جيش مصر العربي هو جيشكم ، وجيشكم هو جيش مصر ، وحضارة مصر هي حضارتكم ، وحضارتكم هي حضارة مصر ، والجيشان والحضارتان جند للعرب .

البريمي

البريمي ، واحة في الجنوب الشرقي للمملكة العربية السعودية تابعة للأحساء تعتبر نقطة اتصال بين صحارى الجنوب وصحارى الشمال .

لم ير الملك عبد العزيز بأساً في أن يقوم بعض مهندسي شركة الزيت العربية الأميركية ، بالتنقيب فيها عن النفط ، فبدأوا . ولكن الحكومة البريطانية أقحمت نفسها باسم بعض محمياتها ، فمنعت المنقّبين عن عملهم في الأراضي التابعة للبريمي ، بدعوى أنها « من الأراضي غير المتفق على تابعيتها » ووافق الملك عبد العزيز ،حسماً للنزاع مع الإنكليز ،على انسحاب المنقبين في تلك الأراضي وتأجيل العمل إلى أن يتم الاتفاق على ما سُمي « تسوية الحدود »

وبينما الملك عبد العزيز يترقب صدى تسامحه ، إذا به يعلم أن عمالاً تابعين لشركة النفط « البريطانية » يقومون بالحفر والتنقيب في نفس الأراضي التي قالوا بالأمس إنها « غير متفق على تابعيتها » .

واحتجّت حكومة الملك عبد العزيز في ٤ شعبان ١٣٦٩ (٢١ مايو ١٩٥٠) وعقد مؤتمران لهذا الغرض ، حضرهما مندوبون سعوديون وبريطانيون ، أحدهما في لندن والثاني في الدمّام . وبعد أن استمر الثاني ثمانية أيام ، سنة ١٣٧١ ه (١٩٥٢ م) طلب الوفد البريطاني تأجيل اجتماعاته شهراً . ووافق الوفد السعودي . غير أن هذا الشهر لم ينته حتى الآن .

وأرسل عبد العزيز أميراً « مدنياً » من أهل الرياض اسمه « تركي بن عطَيْشان » للنظر في شؤون البريمي ؛ فنزلت على مقربة من مقرّه قوة بريطانية مسلحة، سدّت في وجهه سبل التموين والاتصال بالخارج . وبدأت الطائرات تحوم فوق قرية « حماسا » التي نزل بها ابن عطيشان .

وأبرق الملك إلى سفارته في لندن (٢٩ ذي الحجة ١٣٧١ / ١٩ سبتمبر

١٩٥٢) أن تنقل عن لسانه رسالة شخصية إلى وزير الخارجية البريطانية ، جاء فيها : لا يوجد شيء آلم لنفسي من أن تتأزم الحالة بيننا وبين الحكومة البريطانية لدرجة تهديدنا بالطائرات من حكومة يرأسها صديقنا المستر تشرشل ونائب الرئيس ووزير الخارجية صديقنا المستر إيدن . ثم يقول : « فلتكف الحكومة البريطانية عن السماح لموظفيها في الخليج بالقيام بهذا العمل العدواني ، وإلا فسنضطر إلى إعلان ما حدث ، وإلى رفع شكوانا إلى مجلس الأمن ، والدفاع عن حقوقنا بكل ما نستطيع .

وأجاب إيدن في ١٩ محرم ١٣٧٢ (٩ أكتوبر ١٩٥٢) يؤكد استمرار صداقة الحكومة البريطانية للملك عبد العزيز وللحكومة العربية السعودية ، وأن طائرات السلاح الجوي قد أُوقفت عن الطيران ، وأنه صادق الرغبة في حل الخلاف بصورة عادلة وودية ، ومستعدّ لسحب القوات من البريمي في الوقت الذي ينسحب فيه تركي بن عطيشان !

وأبى الملك عبد العزيز سحب ابن عطيشان .. ذلك ، لأن البريمي أرض سعودية ، ولا يمكن أن يترك سكانها للتشفي والتعذيب اللذين لا بدّ من أن يقعا بعد رحيل ابن عطيشان عنها .

، ، ،

وتوفي الملك عبد العزيز ، والوضع قائم على هذه الحال : ابن عطيشان محصور ، والشركات البريطانية تعمل منفردة في التنقيب عن النفط ، وجيش المرتزقة من المَسْقطيين والعُمَانيين وغيرهم يصول تحت القيادة البريطانية ويجول ، والصداقة تتبخر على مجامر المصالح والأغراض .

، ، ،

وتطورت قضية البريمي بعد وفاة الملك عبد العزيز ، فكان التحكيم . وانسلّ منه ممثل الجانب البريطاني ، فلم يتم . واكفهر الجوّ وانتهى الأمر بقطع العلاقات بين المملكتين إثر الاعتداء الثلاثي على مصر ، سنة ١٩٥٦م . ثم تجددت العلاقات السعودية ـ البريطانية ، ولا تزال مشكلة البريمي تنتظر الحل...

ابن سليمـــان

لم يبلغ إنسان ، من رجال عبد العزيز ، ما بلغه عنده عبد الله بن سليمان الحَمْدان ، من وثوق ، ونفوذ كلمة ، وتمكّن .

كان ابن سليمان ، من مواليد عنيزة في القصيم . ولد فيها سنة ١٣٠٥ (١٨٨٧ م) وقصد الهند ، بعد أن تجاوز الطفولة . ثم تنقل بينها وبين البحرين وبعض بلاد الخليج ، في طلب الرزق . واستقر في الرياض ، حيث كان أخ له اسمه محمد ، يعمل في «ديوان» السلطان عبد العزيز ، قبل أن يتم تنظيم الديوان .

ومرض محمد ، فناب عنه عبد الله . وذلك سنة ١٣٣٨ (١٩١٩ م) وتقدم عبد الله ، عند الملك بحسن خطه ، وبذكائه ونشاطه ، فسلمه عبد العزيز صندوق دراهمه ، ثم دنانيره ، ينفق منه على بيته وأضيافه .

وما كان عبد العزيز يعرف كيف يدخل عليه المال ، ولا كيف يخرج. لقد كفاه ابن سليمان مؤونة التدبير والتفكير ؛ حتى في الأيام العصيبة ، يوم دخل مكة ، ومدةَ حصاره لجدّة ، ثم في جدّة نفسها ، وفي وقائعه مع ابن الدويش وصاحبيه . كان ابن سليمان يخبره بأن الصندوق فرغ ، وأنه ملأ الفراغ .. وكيف يملأ الفراغ ولا مورد ثابت للدولة في ذلك الحين ؟ كانت لابن سليمان صداقات وعلاقات مع التجار ، يستدين منهم ويفيهم . بينما كان همّ عبد العزيز أبعد منْ ملء الصندوق ، وعمله إخلاء الصندوق. وفي ابن سليمان مدير المالية ثم وزيرها البركة ..

واستقرت الدولة ، بعد ذلك وأقبلت أموال النفط . وتفرد ابن سليمان وحده بلقب « معالي الوزير » فكان إذا أطلق هذا اللفظ ، عرَف السامع

بالبداهة أن المعنيّ هو ابن سليمان . وأثارت حظوته عند عبد العزيز حَسَدَ الكثيرين له .

وتكاثرت « رجاجيل » ابن سليمان ، فكانوا حول الأربعمئة من الأتباع والعبيد وأشباه الجند . يمونهم ويكسوهم ويكفيهم .

واستمر ابن سليمان ، وهو الشخصية الأولى في الدولة ، بعد الملك وكبار الأمراء ، مدة وزارته الطويلة . ولم يقتصر عمله على « المالية » بل أضيفت إليه مهامّ خطيرة أُخرى ، كالدفاع قبل أن تتألف وزارة الدفاع ، ووكالة الخارجية أحياناً ، وشؤون المعادن ، ومنها البترول ، وما يتصل بذلك من « اتفاقيات » ومداولات داخلية وخارجية .

وكانت عادته ، حين يجمعه بالملك بلد واحد ، في الرياض أو الحوية أو جدة أو البر ، أن يدخل على الملك في غرفة نومه ، بعد صلاة الفجر ، كل يوم ، فيعرض عليه ما يهمه ، ويخرج بالموافقة على جل ما يريد .

وكانت لا تخرج برقية من ديوان الملك ، في الرياض أو البادية — أيام القنص — أو سواهما ، بإحدى « الشِفرات » الخاصة أو العامة ، في جميع شؤون الدولة ، إلا أُرسلت بالبرق ثلاث نسخ منها : إلى ولي العهد ، والنائب العام ، وابن سليمان .

واستقال بعد وفاة الملك عبد العزيز ، لأمرٍ ما ، وتحوّل إلى رجل من رجال الأعمال ، بل من كبارهم ، فأنشأ فنادق وشركات ، وتمتع بعزلة عن الدولة ، كريمة .

سُمي وزيراً للمالية سنة ١٣٤٧ (١٩٢٩ م) وخدم الملك قرابة ٣٥ عاماً . واستقال في فاتح المحرم ١٣٧٤ (١٩٥٤ م) ولقي وجه ربه ، بجدّة ، سنة ١٣٨٥ (١٩٦٥ م)

الاذاعـــة

افتتحت في « جدة » محطة الإذاعة للمملكة العربية السعودية بكلمة من الملك عبد العزيز ألقاها بالنيابة عنه نجله الأمير «فيصل» يوم الوقفة بعرفات ٩ ذي الحجة ١٣٦٨ (أول أكتوبر ١٩٤٩) في الساعة الواحدة عربية (السابعة مساء)

معلومات عنهـــا

وكانت إدارتها مرتبطة بوزارة المالية . وإلى القارىء بعض « المعلومات» عنها في ذلك الحين :

ـ ليس للمحطة موارد من إعلانات تجارية أو غيرها ، وتنفق عليها الحكومة من مخصصات رُصدت لها .

ـ تدفع الإذاعة مكافآت مالية ، لما يقدمه إليها كتّاب خارجيون . بالإضافة إلى ما يقدّمه موظفوها من أحاديث .

ـ للإذاعة مراسلون يوافونها بالأخبار يومياً من جميع المدن الكبيرة في المملكـة .

ـ الموظفون فيها كلهم من المدنيين .

ـ مصادر الأنباء التي تذاع هي : الدوائر الرسمية المحلية ، ووكالة الأنباء العربية ، وشركة رويتر ، وشركة الصحافة، ووكالة الصحافة المتحدة .

ـ البرامج كلها تذاع باللغة العربية .

، ، ،

محطة ثانيـــة

وأُنشئت محطة ثانية للإذاعة ، في مكة المكرمة بجبل هندى (وادي إبراهيم) افتتحها الأمير « فيصل » أيضاً ، ليلة أول المحرم ١٣٧١ (٢ أكتوبر ١٩٥١)

وزارة الاعـــلام

ونمت أعمال الإذاعة بعد هذا التاريخ ، نمواً اقتضته المصلحة ، ومجاراة التطور الإذاعي يوماً بعد يوم ، حتى أنشئت في الرياض بعد عهد الملك عبد العزيز « وزارة الإعلام » وألحقت بها الإذاعة . ويتولاها الآن سنة ١٣٩١ (١٩٧١ م) الشيخ إبراهيم العنقري . ومعظم أعمالها في جدة .

وزارة الداخلية والصحة

ظلت أعمال « الداخلية » في الحجاز والشمال وتهامة ، وأعمال « الصحة » في معظم أنحاء المملكة ، مرتبطة بالنيابة العامة ، منذ ابتداء عهد الدولة بالتنظيم ، إلى أن صدر مرسوم ملكي بتاريخ ١٣٧٠/٩/٢ هـ (١٩٥١ م) بجعلهما وزارتين مستقلتين ، وتعيين الأمير عبد الله الفيصل ، وزيراً لهما معاً .

واستقال الأمير عبد الله الفيصل ، بعد ذلك ، فتداول وزارة الداخلية الأمير مساعد بن عبد الرحمن ، فالأمير عبد المحسن بن عبد العزيز بن تركي .

أما الآن (سنة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧١ م) فوزير الداخلية هو الأمير فهد بن عبد العزيز ، الرئيس الثاني لمجلس الوزراء .

وتولى وزارة الصحة ، الدكتور رشاد فرعون ، ثم الدكتور حسن نصيف ، فالدكتور حامد هرساني ، فالدكتور يوسف الهاجرى . وخلت بعده ، فتولى أعمالها (بالنيابة) وزير المعارف الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ ، ثم تولاها أصالةً الشيخ جميل الحجيلان .

أول مجلس للوزراء

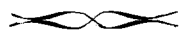
وفي العام الأخير ، من حياة الملك عبد العزيز ، رأى أن يكون لوزرائه « مجلس » يعقدونه للتداول في المهام العامة للدولة . فافتتح أول مجلس للوزراء في عهده ، بالرياض ، يوم الأحد ٣ ذي الحجة ١٣٧٢ (١٩٥٣/٧/٢٠ م) ثم أصدر مرسوماً بجعل المجلس تحت رئاسة ولي العهد ، في ٣ صفر ١٣٧٣ (١٩٥٣/١٠/١١)

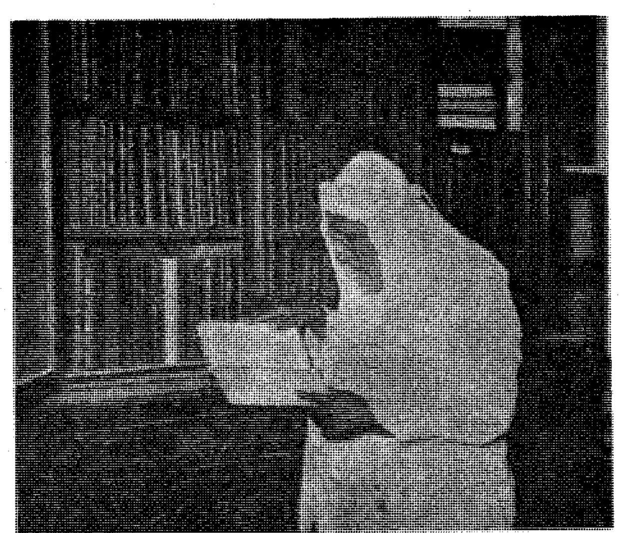


مكتبة « عارف حكمت » في المدينة

وزارات مستحدثة

ومما استُحدث بعد وفاة الملك عبد العزيز : وزارة التجارة والصناعة ، تولاها محمد عابد صالح شيخ ، وتوفي في جمادى الآخرة ١٣٩١ (١٩٧١ م) فخلفه الشيخ محمد العوضي . ووزارة الإعلام المتقدم ذكرها . ووزارة العمل والشؤون الاجتماعية ، يتولاها الشيخ عبد الرحمن أبا الخيل . ووزارة «العدل» حلت محلّ « رئاسة القضاة » يتولاها الشيخ محمد علي الحركان .





كبرى المكتبات العلمية في جدة

أنشأها ونظمها ، وجعلها مورداً للعلماء والباحثين

فقيد الحجاز : الشيخ محمد نصيف

توفي رحمه الله سنة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م

(وهو في الصورة . ينظر في أحد كتبه)

الزراعــة

لم يكن للزراعة ، في ابتداء تنظيم الدولة ، حظ كبير من عناية الملك عبد العزيز وحكومته . فالعاصمة (مكة) واد غير ذي زرع ، وجدة لا ماء فيها ، والرياض تُسقى بساتينها ببضع آبار وعيون ، أو بالسيل يوم يفيض الوادي ، وتهائم عسير الموصوفة بالخصب المنقطع النظير لا سبيل إلى الاتصال بها إلا بشق الأنفس . ومثلها ما في أطراف البوادي الشاسعة من واحات كانت الدولة الناشئة في شاغل عنها بما تعالجه في مطلع عهدها من إنشاء ، وإقامة دعائم .

وتفتحت الأعين يوماً بعد يوم ، على مياه الأحساء والخرج ووادي فاطمة والقطيف وحائل والطائف وبلدان أُخرى وقرى منتشرات في طول البلاد وعرضها ، وما في تلك البلدان والقرى من مزارع وبساتين كلها في حاجة إلى التنظيم والتنمية والاستثمار .

، ، ،

وأمر عبد العزيز معتمديه ، في العراق ومصر وسورية ، باختيار عدد من المهندسين الزراعيين ومساعديهم ، للعمل في بلاده . وجاءته « بعثات » منهم ، عملت في كثير من الجهات .

وفي تقرير وضعته بعثة أميركية سنة ١٣٦١ (١٩٤٢ م) ما خلاصته :

— في مقاطعة القطيف ، نحو ٩٠٠٠ فدان مزروعة تمراً وبرسيماً وخضاراً ونحو ٣٠٠٠ فدان يمكن إصلاحها للزراعة .

— وفي الهفوف (بالأحساء) نحو ٢٥٠٠٠ فدان مزروعة نخيلاً ، ونحو ٢٠٠٠ فدان تزرع خضاراً وبرسيماً وحبوباً وفواكه . وهناك منطقتان يمكن إصلاحهما لزراعة القمح والشعير والفواكه وغيرها ، مساحتهما نحو ١٥٠٠٠ فدان . وفي الهفوف أيضاً مساحات تصلح لزراعة الأرزّ (زُرعت أرزاً بعد ذلك) وتقدر المياه التي تفيض من عيون الهفوف بنحو ٤٢٢ متراً مكعباً في الدقيقة ، وتزيد كثيراً في الشتاء .

— واحات يبرين ، التابعة للأحساء : مساحتها نحو ٧٥٠٠ فدان ، وهي على بعد ٢٦٠ كيلاً (كيلو متراً) من الهفوف جنوباً .

— مزارع الخرج (في نجد) ترتفع عن سطح البحر ما متوسطه ١٣٦٠ قدماً (٤١٥) متراً . وهي ٢٥٠٠ فدان مزروعة تنتج التمور والبرسيم والقمح والذرة ، وكثيراً من أنواع الفاكهة والخضار .

— وادي نجران (في عسير) : المزروع منه مساحة طولها نحو ٢٠ ك. عرضها يتراوح بين كيل واحد وخمسة أكيال . وارتفاع الوادي عن سطح البحر يبلغ ٤٠٠٠ قدم (١٢٢٠ متراً) وفيه منطقة مساحتها نحو ٢٥٠٠ فدان تصلح لزراعة قصب السكّر . وفي الوادي عيون كثيرة غير جارية ، منها عين الحصن.

— وادي طَريب (في عسير) : يرتفع عن سطح البحر ٥٧٠٠ قدم . زراعته التمور .

— خميس مُشَيط ، ووادي رفيدة ، وأبها ، وثربان ، وبدلة ، والسقي والفرحان (في عسير) : يتراوح ارتفاعها عن سطح البحر بين ٦٠٠٠ و ٨٠٠٠ قدم . وهي مزروعة قمحاً وشعيراً وعنباً .

— تهامة ، والدرب ، وبِيش ، وصَبْيا ، وأبو عريش : تنبت من محاصيل الذرة والدخان نباتاً يدعو إلى الدهشة وهي تسقى بمياه السيول .

— حماة ، وصلب ، وعرق ، وحُرَيقة : واد على طول حدود اليمن .

يرتفع عن سطح البحر نحو ٧٥٠ قدماً . فيه مزارع صغيرة ومنطقة مساحتها نحو ٢٥٠٠ فدان ، صالحة لزرع قصب السكر والذرة . وهناك مراع كبيرة للأبقار ، على طول الوادي .

«مديرية للزراعة»

وكان التعاقد مع أفراد البعثات والإشراف على عملها ، منوطين بوزارة المالية مباشرة ، مدة ربع قرن .

وفي رجب ١٣٦٧ (ابريل ١٩٤٨) أُنشىء في جدة ،جهاز لهذه المصلحة على نطاق محدود من الموظفين الفنيين والإداريين ، سُمي « مديرية الزراعة » تولاها محمد صالح القزاز . قامت سنة ١٣٦٨ (١٩٤٩ م) بأعمال أهمها :

— جلبت مكاين للريّ باعت منها للمزارعين ٦٣٤ مكينة بالتقسيط لآجال طويلة .

— جلبت حفارتين أرتوازيتين ، إحداهما لمنطقة الطائف والثانية لتجارب « المديرية »

— استوردت نحو ٣٠,٠٠٠ شجرة كافور وكازورينا ، لصد الرياح ، ولتشجير الطريق بين مكة وجدة ، ولمنطقة العاقول .

— استحضرت سبع جرارات للحرث ، ووزعتها في بعض الجهات لإصلاح الأراضي الزراعية وحرثها بأجور يسيرة . ثم جلبت في العام التالي عشرة أُخر .

— استوردت ٦٢٥٢ من أشجار البرتقال واليوسفي والمانجو والعنب والخوخ والمشمش والتفاح وغير ذلك . ووزعتها على أصحاب المزارع مجاناً .

— عُنيت بإنشاء مزارع نموذجية ، كمزرعة كيلو ١٠ من جدة (في طريق مكة)

– أعلنت بأمر الملك عبد العزيز عرض الأراضي الحكومية « الغامرة » على الراغبين في استئجارها لقاء عُشر نتاجها

– أقرضت بعض المزارعين سنة ١٣٦٩ (١٩٥٠ م) ١,١١٦,٠٠٠ ريال سعودي ، لشراء الآلات الحديثة وإصلاح قنوات الينابيع

– ميزانيتها : نيف و ٣٠ مليون ريال سعودي

، ، ،

واتسعت « المديرية » شيئاً فشيئاً ، ولم يتجاوز عدد موظفيها سنة ١٣٦٩ (١٩٥٠م) مئة وخمسين موظفاً ، بين إداريين – هم الكثرة – وخبراء زراعيين ومهندسين ميكانيكيين وأشباههم ، وُزع معظمهم على فروع المديرية في الرياض والقصيم والقطيف والمدينة والطائف وتربة والخرمة وبيشة ورنية .

الوزارة

وتدرجت أعمال الزراعة في نهضتها ، كسائر مرافق البلاد ، فأصبحت لها ، بعد نحو شهر من وفاة الملك عبد العزيز « وزارة » ضوعفت فيها موازنة الدخل والخرج ، أضعافاً ما زالت تنمو إلى الآن .

وأول « وزير » عيُن للزراعة هو الأمير سلطان بن عبد العزيز ، في ١٨ ربيع الثاني ١٣٧٣ (٢٤ ديسمبر ١٩٥٣)

ولما ولي وزارة الدفاع عيُن لها عبد العزيز بن أحمد السديري ، فما كاد يتسلم أعمالها ، حتى وافته منيته بجدة ، سنة ١٣٧٤ (١٩٥٥ م)

ويتولاها الآن الشيخ حسن المشاري ، باسم « وزير الزراعة والمياه »

مـــؤسسة النقـــد

لما اتسع الثراء في المملكة العربية السعودية ، إثر تدفق النفط في جناحها الشرقي ، وكثر التعامل بينها وبين المؤسسات المالية في الداخل والخارج ، رأى الخبراء فيها وجوب حماية الصندوق الحكومي والأسواق التجارية ، من تقلبات حركة النقد العالمية وأثرها في النقد السعودي ، فأمر الملك عبد العزيز بانشاء مؤسسة « النقد العربي السعودي » وصدر بذلك مرسومان ملكيان ، في ٢٥ رجب ١٣٧١ (١٩٥٢/٤/٢١ م) جاء في أولهما : تأسست « مؤسسة النقد العربي السعودي » بجدة ، وستُفتح لها فروع ووكالات في المدن والأماكن التي تدعو إليها الحاجة . وتكون وظائفها دعم النقد الرسمي للدولة ، ومعاونة وزارة المالية بتوحيد المركز الذي تُسلم وتودع فيه إيرادات الحكومة ، وتُصرف منه مدفوعاتها ، ومراقبة ضبط هذه المدفوعات . ولا تتقاضى المؤسسة ولا تدفع أية فائدة على ما تقبضه أو تصرفه . ولا تباشر أيّ عمل يتعارض مع قواعد الشريعة الإسلامية السمحة .

والمرسوم الثاني أمر باعتماد النظام الأساسي للمؤسسة . وهذا النظام مكون من ١٢ مادة ويعبر عنه بالتعليمات الأساسية .

الاوقـــاف

للحرمين الشريفين ، بمكة والمدينة ، أوقاف في كثير من بلاد العالم الإسلامي خصّص واقفوها ريعها بأنواع من البِرّ في الحرمين .

وفي كلا البلدين ، مكة والمدينة ، وبعض بلدان الحجاز الأخرى ، أوقاف عامة للبر أو خاصة بنواح إنسانية معينة . منها ما اندرس ، ومنها ما هو قائم . ولما دخل الملك عبد العزيز مكة ، قبل حصار جدة أنشأ إدارة للأوقاف الداخلية بمكة . وبعد تسلمه المدينة المنورة وجدة ، أقام في كل منهما إدارة كالأولى . ولم يكن بين الثلاث أيّ ارتباط .

وظل العمل محلياً . وما يرد من الخارج تتسلمه « المالية » على أن تصرفه في وجوهه ؛ إلى أن صدر مرسوم ملكي في ٢٧ ذي الحجة ١٣٥٤ (١٩٣٦م) بربط إدارات الأوقاف وفروعها بمدير عام ، مقره بمكة . يرتبط به مدير للأوقاف في المدينة ، ومثله في جدة . ويتبع المديريةَ العامةَ « مجلس إدارة » للحرم المكي كما يتبع مديرَ أوقاف المدينة ، مدير للحرم النبويّ ومأمور في ينبع .

ووُضع نظامٌ خاصّ لتوزيع « الصدقات » تقوم بتنفيذه لجنة مركزية تابعة لإدارة الأوقاف العامة .

وتحولت الإدارة ، بعد عبد العزيز ، إلى وزارة للحج والأوقاف ، صدر بانشائها مرسوم ملكي . وأول وزير عُين لها هو الأستاذ محمد حسين عرب . وتولاها بالنيابة الأستاذ محمد عمر توفيق ، وزير المواصلات . ويتولاها الآن الشيخ حسن محمد كتبي .

مـــن رجال الملك عبد العزيز

مستشارون ، وسفراء ، ومفوضون : تقدم ذكر بعضهم متفرقين :

الأمير عبد الله بن عبد الرحمن	— مستشاره الدائم
أحمد بن ثنيان	— مستشار . كان الملك ينتدبه في بدء نشوء الدولة ، لمهمات في الخارج . توفي بالرياض سنة ١٣٤١ / ١٣٢٣ م
الدكتور عبد الله الدملوجي	— مستشار ، وأول وكيل للخارجية .
يوسف ياسين	— وزير دولة ، وسكرتير خاصّ للملك . توفي في الدمام سنة ١٣٨١ (١٩٦٢ م)
عبد الله بن محمد الفضل	— مستشار في الحجاز ، فمعاون لسمو النائب العام ، فنائب لرئيس مجلس الشورى. توفي بالقاهرة سنة ١٣٨٨ (١٩٦٩ م) عن نحو ٩٠ عاماً
فؤاد حمزة	— وكيل الخارجية ، فوزير دولة ، فمستشار ، فوزير مفوض . توفي في بيروت سنة ١٣٧١ (١٩٥١ م)
خالد أبو الوليد القرقني	— مستشار ملكي. اعتزل العمل بعد فترة قصيرة من وفاة الملك عبد العزيز .
بشير السعداوي	— مستشار ملكي . استقال وانصرف إلى

	قضية بلاده «ليبيا» وتوفي ببيروت سنة ١٣٧٦ (١٩٥٧م)
حافظ وهبة	— وزير مفوض، فسفير في لندن. أحيل إلى التقاعد، وتوفي في روما سنة١٣٨٧ (١٩٦٧م)
فوزان السابق	— وزير مفوض بمصر، أُحيل إلى التقاعد، وتوفي بالقاهرة سنة ١٣٧٣ (١٩٥٤ م) وكان من المعمَّرين .
خير الدين الزركلي (المؤلف)	— وزير مفوض ومندوب دائم لدى جامعة الدول العربية، ثم سفير في المغرب، فسفير بوزارة الخارجية .
أسعد الفقيه	— وزير مفوض ببغداد، ثم بواشنطن، وأُعفي .
عبد الله إبراهيم الفضل	— وزير مفوض بمصر. توفي سنة ١٣٧٦ (١٩٥٧م)
عبد العزيز بن زيد	— وزير مفوض فسفير بسورية ولبنان. توفي ببيروت سنة ١٣٧٩ (١٩٥٩ م)
إبراهيم بن معمّر	— وزير مفوض ببغداد . نقل منها قائم مقام بجدة . ونحي، فأقام فيها إلى أن توفي .
يوسف الفوزان	— قنصل عام في بومباي، وهو الآن السفير في طهران .
محمد عيد الرواف	— وزير مفوض ببغداد، أُعفي من العمل، وتوفي في دمشق .
عبد الله الخيال	— وزير مفوض ببغداد، ثم بواشنطن، أحيل إلى التقاعد .

الدكتور مدحت شيخ الأرض	— طبيب خاص للملك ، فسفير في مدريد، فبرن ، فباريس .
عبد العزيز الكحيمي	— قنصل في القدس ، فوزير مفوض بعمان فسفير ببيروت ، ثم ببغداد . وتوفي بها .
توفيق حمزة	— وزير مفوض في أنقرة . أُحيل إلى التقاعد.
عبد الحميد الخطيب	— وزير مفوض في باكستان — أعفي ، لمرضه . وتوفي بدمشق .
حمزة غوث	— وزير مفوض في إيران ، أُحيل إلى التقاعد
فؤاد الخطيب	— وزير مفوض في أفغانستان . توفي بكابل سنة ١٣٧٦ (١٩٥٧ م
الدكتور رشاد فرعون	— طبيب خاص للملك ، فوزير مفوض في مدريد ، فباريس ، فوزير للصحة ، فسفير في باريس . وهو الآن المستشار الملكي الخاص في الرياض .
موفق الألوسي	— وزير مفوض في روما. أحيل إلى التقاعد.
فخري شيخ الأرض	— قنصل في البصرة ، فوزير مفوض في أندونيسيا ، ثم في النمسا . وهو الآن السفير في المغرب .
محمد بن عبد الرحمن العبيكان	— وزير مفوض بصنعاء ، ثم في الخرطوم وأُحيل إلى التقاعد سنة ١٣٨٨ (١٩٦٨م)

حفيد عبد العزيز يتحدث عن جده

أملى الأمير عبد الله الفيصل، على صاحب مجلة « المنهل » فصولاً في الحديث عن جدّه الملك عبد العزيز ، جاء فيها :

١ — للملك عبد العزيز مزايا خارقة ، يشترك معه فيها كثير من أبطال الإسلام ولم يصلوا إلى ما وصل إليه . ويرجع ذلك إلى أسباب : أولها الصلة بين العبد المؤمن الصادق في إيمانه ، وبين الخالق جلّ وعلا . إن صلة عبد العزيز بالله ، لم تكن صلة مقرونة برغبة دنيوية . فعقيدته خالصة لوجه الله وإيمانه ليس له حدّ . فلذلك نجد التوفيق حليفه في أعماله . والثاني : عدم اندفاع الملك عبد العزيز أمام مغريات الحياة . فتفكيره كان يسبق رغباته . وهذه لها أثر كبير في عدم تورطه في أمور لا يعلم نهايتها إلا الله . والثالث : تطبيق ما يدعو إليه على نفسه ، وعلى الأقربين منه أوّلاً .

٢ — حارب الملك عبد العزيز فكرة تلقيبه بخليفة المسلمين . وهو أجدر بها من كثير ممن سعوا إليها . ولم يغرّه المال وبهارج الحياة ، ولم يستطع ما هيأه الله على يديه من خيرات الدنيا أن يغير ما في نفسه أو على الأقل أن يغير ملبسه أو مأكله من بدايته إلى أن قبض الله روحه .

الملك عبد العزيز ، لم يخلف قصراً ولا مزرعة ولا ثروة ، ولم يرث أحد من أبنائه شيئاً .

٣ — من أهم مميزاته رحمه الله ، أنه كان يتجنب سفك الدماء إلى أبعد حد . ويدفع في سبيل تجنبها أيّ ثمن . لدرجة أن المحيطين به قد يشكّون

في شجاعته . ولكنه في نفس الوقت إذا رأى أن ليس من ذلك بد ، صمد . وخصوصاً في اللحظات التي يتساوى فيها الشجاع والجبان في الهزيمة . وهذه كان لها فضل كبير في نجاحه وانتصاره في مواقف كانت الهزيمة فيها حتمية .

٤ — تشرفت بمصاحبته مرة في رمضان من قصر الديرة ، إلى المربّع . وكان هناك عمال يقومون ببعض الترميمات . فوقف وسأل عن رئيسهم فاستدعي له . فسأله عن مواعيد عملهم ؟ فقال : نبدأ العمل من الساعة الثانية صباحاً حتى الساعة الثامنة . فقال : يا لله العجب ! أنا لا أعمل بيدي ، وأستعمل السيارة في ذهابي لقصر الحكم وعودتي منه ، ولا أمكث هناك أكثر من أربع ساعات . وأشعر مع ذلك بالعطش . وأنتم تعملون معرّضين للسّموم ست ساعات ؟ من الآن وصاعداً ، لا تعملوا (في رمضان) أكثر من أربع ساعات في أول النهار . ولكم أجركم كاملاً ..

٥ — من المعروف عنه حبه للنظافة والطيب . وكان ذلك في أثناء النهار ، ليس موضع استغراب بالنسبة إليّ ، ولكني لاحظت في إحدى الليالي ، أنه قبل أن يذهب إلى فراشه ، ذهب إلى الحمام ، واستحم ، ولبس للنوم ملابس نظيفة ، ودعا بالبخور ، وتبخر بالعود ، وتعطر بعطر الورد الذي كان يحبه . فتجرأت بسؤاله عن هذا . وهو ذاهب إلى فراشه ؟ فقال : يا ابني ان زوجتي حرصت على أن أراها في أبهى منظر وأن أشم معها أحسن رائحة .. أليس لها نفس الحق في أن تراني في أبهى منظر ، وأن تشم معي أزكى رائحة ؟..

٦ — كان العداء مستحكماً بينه وبين سعود ابن رشيد . فزحفت قبيلة « الرّوَلة » على مدينة الجوف واحتلتها . فخرج سعود ابن رشيد من حائل مع جنده ، ودخل الجوف . وحوصر فيها . فأشار بعض الناس على الملك عبد العزيز ، بأن هذه فرصة للهجوم على حائل .. فرفض بشدة . وقال : لو هاجم حائلاً أحد ، وابن رشيد في محنته ، لدافعت عنها . وأنا لست ممن يطعنون من الخلف .

٧ — بعد تسليم حائل مباشرةً ، قَبِل دعوات أهلها . فكان في اليوم الواحد يجيب دعوة حوالي خمسين شخصاً للقهوة . ويمشي بينهم ، بدون حذر . وقد زار عوائل آل رشيد ، في مساكنهم ، ولم يرافقه إلا خادم واحد .

وهذا في نظري هو الفتح الثاني لحائل . لأنه فتح القلوب .

٨ — بعد وقعة جراب انهزم هزيمة نكراء ، وقتل أكثر جنده ونهب جيشه ومخيمه وحملته . فعاد يرافقه ١٥ خيالاً إلى بريدة وفي أثناء سيره ، صادفه فيصل الحمود ، من آل رشيد ، وأخذ يبكي متأثراً بالهزيمة فقال : يا فيصل لا تبك فأنا والله بالأمس ، في حالة الخوف من أن يوكلني ربي على قوتي ، والآن في حال رجاء أن ينصرني ، وسوف أسترد قوتي بحول الله قبل نهاية الشهر .

وفعلاً ، جهز نفسه من بُريدة ، ولمّ شعثه ، وأغار غارتين على قبيلة شمر ، وطرد ابن رشيد الذي كان هازمه حتى أدخله حائلاً ، فكان رحمه الله من القلائل الذين يستمدون من الضعف قوة .

٩ — قال له بعض الناس : إنك تعطي كثيراً ، فلو اقتصدت ؟ فقال : إن الله عودني عادة أن يتفضل عليّ ، وعودت عباده عادة أن أوسّع عليهم . فأخاف أن أقطع عادتي ، فيقطع الله عادته عني ، وأنا لن أبني قصراً ، ولن أشتري مزرعة . كل ما يَرِد أنفقه على المسلمين ، وهذا حق لهم .

١٠ — ما خلفه يوم وفاته : وحينما لقي وجه ربه ، لم يجدوا عنده سوى «٣٠٠» جنيه ذهباً وزعت صدقة عليه . ولم يرث أحد من أبنائه وزوجاته شيئاً ، حتى ملابسه بيعت في السوق وأدخلت بيت مال المسلمين .

١١ — عطفه العائلي : كان رحمه الله يخصص ما بين المغرب والعشاء من ليلة الجمعة لنساء الأسرة . كذلك يوم الجمعة ، في الظهر ، يكون غداؤهن عنده في القصر ، ولا يغيب منهن أحد . فيصادف بعض الأحيان أن يفتقد إحدى المسنّات في الأسرة فيسأل عنها فيعلم أنها مريضة ، فيأمر دكتوره الخاصّ بزيارتها ، مرتين في اليوم وإخباره عنها . ويتصل بها تلفونياً يومياً .

يوسف ياسين

كان الشيخ يوسف ياسين ، ألصق الناس بالملك عبد العزيز وأعلمهم بحركاته وسكناته .

لازم الملك ، منذ وصوله إلى نجد ، في أواخر ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م) فكان لا يفارق مجالسه الخاصة والعامة . ثم كان لسانه الناطق في كثير من شؤون الدولة . وفيما يلي بعض ما يرويه من أخباره :

الإيمان والثقة :

قال يوسف : سمعت الملك عبد العزيز يقول غير مرة : إذا أراد المسلمون والعرب قتال أعدائهم فإن أعدّ المسلمون والعرب آلة واحدة من آلات الحرب أعد لهم أعداؤهم مئات وألوفاً ، ولكن قوة واحدة إذا أعدها المسلمون والعرب لا يمكن أعداءهم أن يأتوهم بمثلها ، هي إيمانهم بالله وثقتهم به . هذه القوة لا قِبَل لأحد بها .

أمر حربي :

وقال يوسف : سمعته ذات يوم ، يملي أمراً « حربياً » لقادة جنده في تهامة عسير ، يوم نقض الأدارسة عهدهم . فبعد أن رسم لهم خطة الهجوم وأحكم تدبيره قال : عليكم أولاً أن تقدموا للقتال وأنتم موقنون بالنصر من ربكم ، وأن لا يخامركم شك في نصره وتأييده ..

عقد بينك وبين الله :

وقال : سمعت الملك يوماً يحدث ولي عهده ، قبل أخذ البيعة له بولاية العهد : يا سعود .. ربي أحبّ إليّ من نفسي ، وعليّ مراعاته ولا تطمئن نفسي لتسليمك ولاية الأمر ، إلاّ بعد أن أرى أنك عقدت عقداً بينك وبين

ربك . لا تكفيني منك المظاهر الدينية ، بل يهمني أن أراك حالفته في خلواتك وتضرعت إليه في لياليك ..

الضعف والقوة :

وقال : سمعت الملك ذات يوم يقول متحدثاً بنعمة ربه : إن ربي لم يعطني ما أعطاني عن قوة ، بل أعطاني ما أعطانيه عن ضعف مني وقوة منه . اعتدت أن أحزم أمري وأجمع ما أستطيع جمعه من قوة ، لمقابلة خصمي . وقد أرى أو يرى من معي شيئاً من الزهو بما أعددنا من قوة ، وأحياناً يفوتنا النصر مع القوة الكبيرة . حتى إذا قل عددنا، وكاد اليأس يقرب من القلوب هدانا الله إلى الطريق التي نسلكها للنصر ، فيفتح لنا لنعلم أن النصر من عنده ، يؤتيه من يشاء .

المنّة لله :

وقال : سمعته يخاطب بعض رؤساء قبائله أيام الفتن الداخلية : لا منّة لأحد عليّ في امتلاك هذا المُلك إلا الله وحده . فما منكم إلا وقد قاتلت آباءه وأجداده ، بحدّ هذا السيف . لم آت منكم أحداً غدراً أو خيانة. أقدم لكم معروفي وأقدم لكم السلام والأمن ، فتعاهدوني ، فاذا خنتم عهدكم أعانني الله عليكم .

، ، ،

وقال يوسف : خاض عبد العزيز أكثر من مئة معركة ، ولما مات ، وجدوا على جسمه ثلاثاً وأربعين ندبة وأثر جرح .

كان عملاقاً تتمثل فيه قوى الصحراء كلها ، وحسب الإنسان أن يفكر في مغامرة الرياض ، التي أتمها بقبضة من الفرسان ، حتى تمتلىء نفسه إعجاباً .

ذكـــريـــات

كتب الشيخ محمد سرور الصبان :

أمرني الملك عبد العزيز ، يوماً ، أن أكتب ما يمليه عليّ ، فصرت أكتب ما يمليه بلغة مصححة . ولما أكمل الإملاء . قال لي : اقرأ ما كتبت فقرأته عليه . فضحك وقال :

– انني أعرف أنك متعلم ، تحسن الكتابة بالعربية الصحيحة . ولكني أخاطب بهذه الكتابة أبناء البادية الذين يفهمونها

فقلت : سمعاً وطاعةً . وعدّلت ما كتبت ، فأعجبه ، وأمر بصدوره .

، ،

ووصل الملك يوماً من جدة إلى مكة . ووقفت سيارته على باب القصر . ولم تحضر « عربة اليد » التي كان يركبها من السيارة إلى الباب ، فتحامل على نفسه ، ونزل من السيارة ومشى الهوينا ، وأهل جدة يمشون وراءه ، حتى وصل إلى باب البهو ، وكنت واقفاً بجانب طريقه ورآني مبتسماً فقال لي : ما لك تضحك ؟ فقلت : لأنني مسرور . قال : لماذا ؟ قلت : لأني رأيت جلالتك تمشي على قدميك ورآك الناس ، وأدركوا أنك بخير ولله الحمد.

وظهر السرور على وجه الملك ، فأمسك بيدي ، وقال : اجلس عندي وأمر أهل جدة بأن يدخلوا ويتعشوا ، وجلست إلى جانبه ، فقال لي : إنني فكرت كيف تكون حالتي بعد ظهور عدم وجود العربة ؟ أيحملني الناس ؟

وهذا أمر لا يليق .. أم ماذا أفعل ؟ ومن ثم تحاملت على نفسي ومشيت بكلفة كما تراني ولكني متأثر ..

، ،

وفي ذات مرة بعد انتهاء حرب اليمن ، ناداني ، وقال لي : أحضروا السيارات في جدة ، وبمجرد وصول « الإخوان » والجيش من البحر ، انقلوهم في السيارات . ولا بأس من أن يعتمروا ، وإذا أدوا العمرة فعليهم أن يذهبوا حالاً إلى بلادهم ، لئلا يكون منهم على المدن بعض ما لا يحسن .

ثم همس في أذني ، وقال : إذا كان معهم شيء من الأموال (الأمتعة) التي تقتضي رسوماً فأعرضوا عنه .. المهم سرعة ترحيلهم .

، ، ،

وكتب الأستاذ أحمد علي، وكان قد تخرج بمعهد الطائف مع ٢٣ شخصاً وهيأت لهم إدارة المعهد فرصة للسلام على الملك عبد العزيز ، فدخلوا عليه في قصره بالمعابدة (في مكة) يوم ٧ صفر ١٣٥٠ (يونيه ١٩٣١) وقدّمهم إليه مدير المعهد بخطبة ارتجلها .

قال أحمد علي : وشكره الملك وشكر القائمين بأمر المعهد ، ثم التفت إلينا ، وقال :

« أنتم أول ثمرة من غرسنا الذي غرسناه بالمعهد ، فاعرفوا قدر العلم ، واعملوا به ، لأن العلم بلا عمل كشجرة بلا ثمر .

« لقد بعث الله صفوة الخلق في هذه البلاد . ونزل عليه جبريل ، بقرآن عربي غير ذي عوج . فلنعرف قدر هذا ونحتفظ بديننا وعربيتنا . ويجب أن نحبهما حباً جماً .

« حافظوا على دينكم . وقد قرأتم في هذا الباب شيئاً كثيراً .. ووالله ما حرمت الشريعة شيئاً فيه نفعنا .. ولا أحلت أمراً فيه ضررنا .

ولاحظ الملك اختلاف أجناس الطلبة بوجوههم ، فقال :

« إن التفاضل لا يكون إلا بالتقوى . لا فضل لعربي على عجمي إلا

بالتقوى . كلكم لآدم وآدم من تراب . من كان منكم من بيت كبير فليحرص على أن يكون سبباً في حفظه . ومن كان من آخر فليبن لنفسه ، فقد منّ الله عليكم بالعلم ، وأرشدكم إلى طريق الخير ، فاعملوا إنا لعملكم منتظرون.

وبعد هذا الاجتماع ، أمر القائمين بشؤون المعارف أن يأخذوا رغبة كل واحد منا ، بالتوظيف في الجهة التي يريدها ، ونفذت رغبات كل منا .

ومن ذكريات أحمد علي :

اقطعوا لهم اللحم :

أُقيمت في القصر الملكي بالرياض حفلة عشاء يوم ١٣٥٧/٤/٧ (١٩٣٨م) دعي إليها الموظفون والأعيان وفي مقدمتهم الأمراء .

وجاء دخول المدرسين إلى قاعة الطعام متأخراً فرآنا الملك ونحن ندخل القاعة ، فلم يسمح لنا بالتقدم بل أجلسنا على مائدته ، وأخذ يقول للأمراء : إنهم يستحون ! فاقطعوا لهم اللحم ..

عطر المتعلمين :

وقام بزيارة مفاجئة لمدرسة الأمراء في الرياض ، ودخل إحدى غُرف التدريس فاجتمع حوله التلاميذ من أطفال آل سعود . ولاحظ في ثوب أحدهم بقعة كبيرة من الحبر يحاول إخفاءها عن نظر أبيه ، فقال له : لا تُخفها هذا عطر المتعلمين ..

سيارته في الزحام :

كان الوقت قبيل الغروب ، وحركة السير في الرياض على أشدها . قال أحمد علي : وكانت سيارتنا في خضمّ من البشر ، وإذا بالسائق ينحرف إلى جانب من الشارع . ومرّ موكب الملك عبد العزيز بسرعة . ولولا وقوف الحارسين على جانبي سيارته ما عرفنا أنها سيارة الملك .

جَلَد عجيب

قال الدكتور رشاد فرعون :

« أردت أن أُخرج رصاصتين استقرتا في بطن الملك أثناء إحدى المعارك ، فأتيت بالمخدّر لأحقنه به فقال لي : ما هذا ؟

قلت : البنج .

قال : لماذا ؟

قلت : للتسكين ، حتى لا تتألم . . فضحك .. وقال : دعك من هذا . وبعد البنج ماذا تنوي أن تفعل ؟ قلت : بعد ذلك أشق بالمبضع جلد البطن في موضع الرصاصة وأُخرج الرصاص ثم أخيط الجلد .. فطلب مني المبضع ، وتناوله بيده . وشق موضع الرصاص ، وأخرج الرصاصتين ، ثم قال لي : الآن تستطيع خياطة الجرح ، ولا تحتاج معي إلى البنج !

قال رشاد : لقد كان أقوى من الألم . رحمه الله .



ودعاءٌ أعجب ...

أخبرني أحد ضباط القصر الملكي ، قال : رأيت الملك عبد العزيز ، في الهزيع الأخير من الليل ، عند صلاة الفجر ، يتمسك بأستار الكعبة ، ويدعو الله قائلاً : « اللهم إن كان في هذا الملك خير لي وللمسلمين ، فأبقه لي ولأولادي . وإن كان فيه شرّ لي وللمسلمين ، فانزعه مني ومن أولادي ! »

الطباعة والصحافة

كان تقدم الطباعة والصحافة في عهد عبد العزيز ، بطيئاً لا يتناسب مع نواحي النشاط الأخرى في الدولة . وظلت الصناعتان منزويتين على الشاطىء الغربي من شبه الجزيرة لم تتعدياه إلى الشرق أو الجنوب أو الشمال .

الطباعة :

كانت في مكة مطبعة حكومية هرمة ، من بقايا العهد العثماني . وجدد إنشاؤها في عهد الملك عبد العزيز .

وكان إلى جانبها — بمكة أيضاً — بضع مطابع أهلية صغيرة اشترتها الحكومة السعودية وضمتها إلى الأولى ، وسمتها جميعاً « مطبعة أم القرى »

كذلك كانت إلى جانب مطبعة الحكومة بمكة مطبعة أنشأها الشيخ ماجد الكردي سنة ١٣٢٧ (١٩٠٩ م) وتوفي منشئها وتولاها أبناؤه .

وأُنشىء في عهد عبد العزيز بمكة ، ثلاث مطابع أخرى كلها تدار باليد .

وفي جدة : المطبعة الشرقية ، ومطبعة الفتح ، ومطبعة الشركة العربية

وفي المدينة : مطبعة واحدة اشتريت من مصر عام١٣٥٥ (١٩٣٦ م)

الصحافة :

لم تعرف بلاد نجد الصحافة إلا في أواخر أيام عبد العزيز ، فصدرت في الرياض مجلة اليمامة ، سنة ١٣٧٢ هـ (١٩٥٣ م)

أما في الحجاز ، فكان أول ما عُرف من الصحف ، جريدة « الحجاز » الرسمية ، صدرت في مكة سنة ١٣٢٦ (أواخر سنة ١٩٠٨ م) وتوقفت عن الصدور بعد عام ، فخلفتها « شمس الحقيقة » وصدرت معها جريدة « الإصلاح » في جدة واستمرت بضعة شهور. ثم « الصفا » بجدة أيضاً، صدر منها عدد واحد مكتوباً باليد ، ومطبوعاً على « الجلاتين »

وأول جريدة صدرت في المدينة المنورة جريدة « الرقيب » خطية مطبوعة على « الجلاتين » في أوائل سنة ١٣٢٧ (١٩٠٩ م) ثم جريدة « المدينة المنورة » في السنة نفسها ، ولم تعمر طويلاً في ذلك العهد .

وأصدرت الحكومة العثمانية، في المدينة، بعد قيام الشريف حسين بالثورة في مكة، جريدة باسم « الحجاز » سنة ١٣٣٥ (١٩١٧م) عاشت ستة أشهر .

وبعد انقضاء أيام العثمانيين ، صدرت بمكة في ابتداء العهد الهاشمي جريدة « القبلة » فجريدة « الفلاح » و « المجلة الزراعية » ولم تطل أيام هذه .

وانتهى حكم الملك حسين بن علي في الحجاز . وخلفه ابنه علي في جدة ، فصدرت فيها جريدة « بريد الحجاز » وتوقفت بانتهاء حكمه .

، ، ،

وأول ما أنشىء ، في أيام الملك عبد العزيز ، بمكة ، جريدة أم القرى ثم جريدة « صوت الحجاز » وعاشت هذه سبعة أعوام .

وصدرت ، أو عادت إلى الصدور ، في المدينة ، جريدة « المدينة المنورة »

وظهرت مجلتان شهريتان ، تصدران في مكة بانتظام إلى الآن: مجلة «المنهل» ومجلة « الحج »

كما ظهرت في مكة ، مجلة « الإصلاح » ومجلة « النداء الإسلامي » وهذه باللغتين العربية والملايوية .

وفي جدة ظهر عددان من مجلة سُميت « الغرفة التجارية »

وبعد الحرب العامة الثانية ، برزت في مكة جريدة « البلاد السعودية » فكانت أول ما عرف من الصحف « اليومية » في بلاد المملكة العربية السعودية .

وصدرت في الظهران مجلة « قافلة الزيت » في أواخر أيام الملك عبد العزيز ، شهرية . وإلى جانبها جريدة « الشمس » اسبوعية باللغة الإنكليزية .

، ، ،

هذه كلمة موجزة عن سير الطباعة والصحافة منذ ميلادهما بمكة ، في العهد العثماني إلى أواخر أيام الملك عبد العزيز ، ولم يكن للصحافة في العهود الثلاثة ـ العثماني والهاشمي والسعودي ؛ إلى وفاة عبد العزيز كبير شأن . ذلك لأنها في العهد الأول ما كانت أكثر من نشرات لما تريد الدولة إذاعته في البلد الذي يُنشر فيه ما يسمى مجازاً بالجريدة . ولم يكن للرأي الحرّ مجال للنشر في العهد الثاني . وغالى عبد العزيز في انصرافه عن القول إلى العمل . فلم يأخذ بيد الصحافة ، وظلت في عهده تحبو ..

، ، ،

اليـــوم

وتقوم اليوم ، في أكثر أنحاء المملكة ، حركة صحفية واسعة النشاط ، ليس من اختصاص هذا الكتاب تقصّيها .

عنايته بكتب السلف

— بعض ما أمر بطبعه وتوزيعه بالمجّان —

وجه الملك عبد العزيز عناية خاصة إلى كتب العلوم الإسلامية المخطوطة، فأمر بطبع طائفة منها أو شرائها، وتوزيعها مجاناً. منها :

في التفسير : تفسير القرآن الكريم. للإمامين ابن كثير والبغوي ٩ أجزاء

وفي التاريخ : البداية والنهاية، لابن كثير ١٤ جزء
طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى ١
روضة الأفكار (تاريخ ابن غنام) جزآن، في مجلد

وفي الفتاوى : مجموعة الرسائل والمسائل النجدية، لجماعة من علماء نجد ٤
الدرر السنية في الأجوبة النجدية لجماعة من علماء نجد ٤
مجموعة رسائل وفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية ١

وفي الفقه وأصوله : المغني والشرح الكبير، لابن قدامة ١٢

وفي الحديث : كتاب السنة، لعبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل ١
جامع الأصول لابن الأثير ١٢
شرح تهذيب سنن أبي داود لابن القيم
معالم السنن، للخطابي } ٨
مختصر السنن، للمنذري

وفي الأدب :	الآداب الشرعية ، لشمس الدين ابن مفلح	٢
	روضة المحبين ، لابن قيم الجوزية	١
وفي التوحيد :	التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل ، لابن خزيمة	١
	مجموعة التوحيد ، للشيخ محمد بن عبد الوهاب وآخرين	١
وفي العقيدة :	شرح الطحاوية ، في العقيدة السلفية ، لأحد علماء الحنفية	١
والردود :	الصواعق المرسلة ، لابن قيم الجوزية	٢
والخطب :	خطب الإمام محمد بن عبد الوهاب ، له ولبعض حفدته	١
والمناسك :	مناسك الحج على المذاهب الأربعة ، لابن حسن وابن مانع	١
وفي موضوعات مختلفة :	إرشاد الطالب	١
	وإيقاظ همم أولى الأبصار	١
	وتقويم الأوقات لعرض المملكة العربية السعودية	١

، ، ،

وطبعت على نفقته كتب كثيرة لم يُذكر عليها اسمه إلا ما جاء على بعض مطبوعاته في الهند ، من أنها «طبعت على نفقة من قصده الثواب من رب الأرباب»

مساعدته لناشري الكتب

ولدينا «عشرات» من كتب التفسير والحديث والتاريخ والأدب ، أمر بشراء مجموعات منها ، لتوزيعها مجاناً . نذكر بعضها على سبيل المثال :

التفسير :	تفسير القرآن الحكيم ، للسيد محمد رشيد رضا	١٢ مجلداً
	تفسير سورة الإخلاص ، لشيخ الإسلام ابن تيمية	١

الحديث	: الفتح الرباني ، في ترتيب مسند الإمام أحمد ، للساعاتي	١٢
	السنن الكبرى ، للبيهقي	١٠
	مسند الإمام أحمد . صدر منه	١٥
	جامع الترمذي ، وشرحه تحفة الأحوذي	٤
	المستدرك على الصحيحين ، للحاكم النيسابوري	٤
	فيض الباري على صحيح البخاري ، للكشميري	٤
	نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية ، للزيلعي	٤
التاريخ	: أخبار مكة للازرقي	٢
	عنوان المجد في تاريخ نجد ، لابن بشر	٢ في مجلد
الاجتماع	: حاضر العالم الإسلامي ، للأمير شكيب أرسلان	٢
	الأحكام السلطانية ، لأبي يعلى الفراء	١
الفقــه	: كشاف القناع ، للبهوتي	٦
	شرح منتهى الإرادات ، للبهوتي	٣
	زاد المستقنع ، لشرف الدين الحجاوي	١
	عمدة الفقه ، لموفق الدين ابن قدامة	١
منــاقب	: مناقب الإمام أحمد ، لابن الجوزي	١
	العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ، لابن عبد الهادي	١
متفرقــات	: الفروسية ، لابن قيم الجوزية	١
	تاريخ القرآن الكريم لمحمد طاهر الكردي	١

المكتبات في المملكة

مكتبات مكة : يرجع إنشاء معظم المكتبات الحديثة الموجودة الآن في مكة ، إلى القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي)

وفي سنة ١٢٩٩ هـ ، خُصصت القبة الواقعة فوق باب الدريبة التي كانت تتصل بشارع « سُويقة » لحفظ الكتب .

وفي سنة ١٣٣٦ ضُمت إليها مكتبة وقفها الشيخ عبد الحق الهندي .

وفي سنة ١٣٤٦ نقلت مكتبة كان قد وقفها والي الحجاز محمد رشدي باشا الشرواني ، من المدرسة الواقعة عن يمين الخارج من باب أم هاني ، إلى « مكتبة الحرم » التي أصبحت معروفة بهذا الاسم منذ سنة ١٣٥٧ (١٩٣٨م)

وفي مكة مكتبة أُخرى ، هي مكتبة الشيخ عبد الستار الدهلوي : نُقلت إلى « مكتبة الحرم »

ومكتبة الشيخ عبد الوهاب الدهلوي : في بيته فوق جبل الصفا .

والمكتبة « الماجدية » : أُلحقت أخيراً بالمكتبات الموقوفة التابعة لوزارة الحج والأوقاف .

ومن المكتبات الخاصة ، المعروفة في مكة : مكتبة الشيخ عبد الله بن محمد غازي . ومكتبة المدرسة الصولتية ، ومكتبة مدرسة الفلاح ، ومكتبة سليمان ابن عبد الرحمن الصنيع ، ومكتبة محمد سرور الصبان ، ومكتبة أحمد إبراهيم الغزاوي ، ومكتبة العامودي ، ومكتبة إبراهيم فودة ، ومكتبة أحمد عبد

الغفور عطار ، ومكتبة عبد القدوس الأنصاري .

مكتبات جدة : وفي جدة مكتبة الشيخ محمد نصيف ، ومكتبة الشيخ حسونة المغربي . وأخيراً أنشئت في جدة « مكتبة عامة » في دار الإذاعة السعودية .

في الطائف : وفي الطائف كانت تحت القبة الواقعة عن يسار الداخل من الباب العام لمسجد ابن عباس ، مكتبة لم يبق منها سوى القليل . ومكتبة خاصة ، غير كبيرة في منزل آل عبيكان . ومثلها مكتبة لقاضي الطائف السابق الشيخ عبد الله كمال .

مكتبات المدينة المنورة : وكانت المدينة المنورة ، ولا تزال أغنى بلاد المملكة العربية السعودية ، بمكتباتها . عَدّ صاحب مرآة الحرمين فيها ، بعد زيارات لها آخرها سنة ١٣٢٥ (١٩٠٧م) ثماني عشرة مكتبة ، تحتوي على ٢٠٧٧٤ مجلداً .

مكتبات نجد : وكانت العادة في نجد ، إذا توفي أحد العلماء في بلد منها ، قام حاكم ذلك البلد بنقل كتب المتوفى إلى العاصمة (الرياض) ليطلع عليها العلماء ولأن أكثر طلبة العلم هم في العاصمة . وبذلك اجتمع لدى علمائها عدد كبير من المطبوعات والمخطوطات .

في الرياض : وكان من المكتبات الخاصة في الرياض ، مكتبة القصر الملكي ، ومكتبة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ ، ومكتبة محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ ، ومكتبة الشيخ حمد بن فارس ، ومكتبة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ؛ ومكتبات أخرى ، من أغناها بالمطبوعات اليوم مكتبة الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الفيصل .

وبدأ عهد الرياض بالمكتبات العامّة سنة ١٣٦٣ (١٩٤٤ م) حين أنشأ الأمير مساعد بن عبد الرحمن الفيصل ، أول مكتبة عامة فيها ، جمع لها

مجموعة طيبة من المطبوعات ، خصص لها جانباً في بيته ، وعين فيها موَظفاً وأباح لكل زائر الانتفاع بها في المطالعة

وفي أوائل سنة ١٣٧٢ (١٩٥٢ م) افتتُحت في الرياض «المكتبة السعودية العامة» ونقل إليها بعض ما في المكتبات

في عنيزة : وأول ما أُنشىء من المكتبات في مدينة عُنيزة (بالقصيم) مكتبة أشرف على إنشائها الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي . وتوفي سنة ١٣٧٧ (١٩٥٧ م)

وفي بريدة : وبريدة ، أخت عنيزة في القصيم . أُنشئت مكتبة عامة سنة ١٣٦٤ (١٩٤٥ م)

وفي المجمعة : وعرفت في بلدة المجمعة،مكتبة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز العنقري .

والأحساء : وفي بيوت الأسر العلمية بالأحساء ، مجموعات من الكتب في منازل آل مبارك وآل المُلاّ وآل عمير .

المُبَرَّز : وفي المبرز مكتبة آل عبد القادر .

القطيف والدمام : وأُنشئت في القطيف والدمام ، مكتبتان عامتان ، بدأتا ضئيلتين . على أن في القطيف ، بيوت علم معروفة ، أشهرها بيت «الخنيزي» «وبيت الجِشّي» ففيهما من عني بجمع النفائس من الكتب .

عسير : وما خلت عسير من كتب قديمة ، كانت على عهد الأدارسة . والمعروف الآن ، من بيوت العلم فيها بيت «آل حفظي» في بلدة «رجال ألما» تشتمل مكتبتهم على مجموعة من المخطوطات وغيرها .

وفي جيزان : مكتبة خاصة لمحمد بن أحمد بن عيسى العقيلي ، فيها مخطوطات نادرة .

عبد العزيز والشعر

كان الملك عبد العزيز يتذوق الشعر ، ويطرب للمعنى الدقيق ، ويتردد على لسانه بعض الأبيات في المناسبات. وهو في الشعر الملحون (النبطي) أعرف وأعمق .

وكان مما أخبرني به رشدي ملحس (نائب رئيس الشعبة السياسية) في الرياض ، وقد طالت ملازمته للملك عبد العزيز ، أنه يفكر في تدوين ما ينسبه إليه رفاق صباه ، من أبيات يتناقلونها عنه ، من الشعر « النبطي »

ولا أعلم إن كان قد بقي بعد وفاة رشدي ، شيء من هذا ، في أوراقه المخزونة بجدة ؟

وسألت عن ذلك الأمير عبد الله بن عبد الرحمن ، أخا الملك عبد العزيز ، فقال : لم يكن ، رحمه الله، يقول الشعر ، ولكن ربما كان يجري على لسانه الشطر أو البيت من الملحون فيردده ، ولا يتعمد الزيادة .

مما يتمثل به

وكان كثيراً ما يردد في المناسبات، قول الأفوه الأودي (صلاءةبنعمرو):

تُهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت   وإن تولت فبالأشرار تنقـاد
لا يصلح الناس فوضى لا سَراة لهم   ولا سراة إذا جهّالهـم سادوا !

وقول علي بن المقرّب الأحسائي :

تجاف عن العتبى فمـا الذنب واحد   وهب لصروف الدهر ما أنت واجد
إذا خانك الأدنى الذي أنت حزبه   فوا عجبا إن سالمتـك الأبـاعـد

وسُمع يتمثل بقول الفرزدق :

ولا نقَتل الأسرى ولكن نفكهم   إذا أثقل الأعناق حمـل المغـارم

من اسرة عبد العزيز

كان لعبد العزيز في أواخر أعوامه ، جمهور ضخم من نسله ونسل إخوته يمكن أن تتألف منه قبيلة كاملة ، كما كانت تنمو القبائل في قديم العصور.

رأى حَفَدَته وأبناءَ حفدته ، ورأى من بعض بناته حُفداء الأسباط ، أي الجيل الرابع .

وكان الأحياء من أبنائه لصلبه ، يوم توفي ، ستة وثلاثين ولداً . وأحصي أولاده وحفداؤه الذكور والإناث ــ عدا أبناء بناته ــ فبلغوا مئة وستين، وأضيف إليهم أبناء بناته فتجاوزوا الثلاثمائة .

إخوته

١) فيصل بن عبد الرحمن : أكبر إخوة عبد العزيز . توفي بالرياض في ذي الحجة ١٣١٧ (١٨٩٠ م)

٢) محمد بن عبد الرحمن : من أبطال آل سعود . ولد في الرياض بعد ولادة أخيه عبد العزيز بستة أشهر وترعرع معه ، ورافقه في تنقلاته وخاض معه المعارك إلى أن استقرت الأمور فاختار العزلة. وتوفي بالرياض في٢٣ رجب ١٣٦٢ (٢٦ يوليو ١٩٤٣)

٣) سعود بن عبد الرحمن : شارك أخاه في كثير من الوقائع وتوفي سنة ١٣٨٥ (١٩٦٥ م)

٤) سعد بن عبد الرحمن : قتل في معركة « كنزان » مع العجمان سنة ١٣٣٣ (١٩١٥ م)

٥) عبد الله بن عبد الرحمن : عالم آل سعود اليوم ، وأديبهم . كان كبير مستشاري أخيه عبد العزيز .

٦) سعد (الثاني) بن عبد الرحمن : سُمي على اسم أخيه سعد (الأول) وتوفي سنة ١٣٧٥ (١٩٥٥ م)

٧) أحمد بن عبد الرحمن : كان يقيم في الرياض ومقره الآن في جدة .

٨) مساعد بن عبد الرحمن : أديب عالم بالشؤون المالية . ولد سنة ١٣٣٢ (١٩١٤ م) وتولى « ديوان المظالم » في أواخر عهد عبد العزيز . وهو الآن وزير المالية والاقتصاد الوطني .

، ، ،

ابناؤه ، على ترتيب اعمارهم

١) تركي بن عبد العزيز : بكر أولاد عبد العزيز : وبه كان يكنى « أبو تركي » توفي سنة ١٣٣٧ (١٩١٩ م)

٢) سعود بن عبد العزيز : الملك السابق . ولد في الكويت سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠٢ م) وتولى إدارة نجد سنة ١٣٤٣ (١٩٢٤ م) مدة غياب أبيه في الحجاز . وزار مصر مستشفياً من ألم في عينيه سنة ١٣٤٥ (١٩٢٦ م) وشهد كثيراً من المعارك مع أبيه . وكان في جبال اليمن أيام الحرب . وتولى الملك بعد وفاة والده في ٥ ربيع الأول ١٣٧٣ (١٩٥٣/١١/١٢ م) وخُلع في جمادى الآخرة ١٣٨٤ (١٩٦٤/١١/١ م) فرحل إلى أثينا حيث أقام . وتوفي بها سنة ١٣٨٨ (١٩٦٩ م) وحمل جثمانه إلى مكة . فصلّى عليه أخوه الملك فيصل مع جمع من الأمراء والمسلمين صلاة الجنازة ، ثم نُقل إلى مدفنه بالرياض .

٣) فيصل بن عبد العزيز

عاهل المملكة العربية السعودية . ودماغ جزيرة العرب المفكر . ولد في الرياض ، ١٤ صفر ١٣٢٤ (٩ ابريل ١٩٠٦) . ووالدته طرفة بنت الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، من آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب . عرف من أول نشأته بالروية وبعد النظر ، فوجّهه والده توجيهاً سياسياً ، فأوفده في أواخر ١٣٣٧ (١٩١٩ م) إلى انكلترة وفرنسا وبلجيكا وغيرها . حيث أمضى قرابة ستة أشهر . وقاد سنة ١٣٤٠ (١٩٢٦ م) جيشاً لإخضاع بلاد عسير . وأقامه والده في جمادى الثانية ١٣٤٤ (١٩٢٦ م) رئيساً للحكومة بمكة ، ثم نائباً عاماً عنه ، في الحجاز . وأوفده سنة ١٣٤٥ (١٩٢٦م) على رأس بعثة سياسية إلى بريطانيا وفرنسا وهولندة ، لتثبيت العلاقات السياسية معها . وأضيفت إليه رئاسة مجلس الشورى ١٣٤٥ (١٩٢٧ م) ثم وزارة الخارجية ١٣٤٩ (١٩٣٠ م) وقام برحلة ثالثة على رأس بعثة إلى أوربا ١٣٥٠ (١٩٣٢ م) فزار إيطاليا وفرنسا وبريطانية وهولندة وألمانيا وسويسرة وبولونيا وروسيا . وعاد عن طريق تركية فإيران فالعراق فالكويت .

وقاد الجيش السعودي في تهامة أثناء حرب اليمن ١٣٥٣ (١٩٣٤م) فاحتل « ميدي » و « الحديدة » وسواهما ، وأقرّ النظام في الجنوب . ولما عقدت معاهدة الطائف ، عاد إلى مكة بعد غيبة لم تتجاوز أحد عشر أسبوعاً .

وانتدبه والده لحضور مؤتمر فلسطين ، في لندن ، أواخر ١٣٥٧ (١٩٣٩م) وزار الولايات المتحدة ١٣٦٢ (١٩٤٣ م) إجابةً لدعوة من رئيسها « فرانكلين روزفلت » وفي عودته ، مر بلندن وزار ملك بريطانية .

وفي ١٣٦٤ (١٩٤٥م) قام بتمثيل الحكومة السعودية في مؤتمر الأمم المتحدة بسان فرانسيسكو .

وزار سورية سنة ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م) موفداً من قِبَل أبيه ، ومعه أخوه منصور ، للمشاركة في احتفالاتها بالذكرى الأولى لجلاء الفرنسيين عنها .

ورأس الوفد السعودي في اجتماعات هيأة الأمم المتحدة ، سنة ١٣٦٦ (١٩٤٧ م) و ١٣٦٧ (١٩٤٨ م) وفي اجتماع هيأة الأمم المتحدة المنعقد بباريس ١٣٦٧ (١٩٤٨ م) وفي مؤتمر عقد بلندن من أجل قضية « البريمي » سنة ١٣٧٠ (١٩٥١ م)

وبويع بولاية العهد ، إثر وفاة أبيه الملك عبد العزيز ، وولاية أخيه سعود ، سنة ١٣٧٣ (١٩٥٣ م) فرأس وفد بلاده في مؤتمر « باندونغ » ١٣٧٤ (١٩٥٥م وفي مؤتمر « بلغراد » لرؤساء الدول غير المنحازة ١٣٨١ (١٩٦١ م) وترأس مؤتمر القمة العربي الثاني ، في الإسكندرية ١٣٨٤ (١٩٦٤ م) وهو خطيب مرتجل، كثيراً ما يتمثل بفصيح الشعر في خطبه .

وتولى عرش المملكة العربية السعودية في ٢٦ جمادى الآخرة ١٣٨٤ (نوفمبر ١٩٦٤ م) أمده الله بالتأييد والتوفيق ، وجعل على يديه الخير لبلاده وللعرب والمسلمين .

، ، ،

٤) محمد بن عبد العزيز : ولد في الرياض ١٣٣٠ (١٩١٢ م) ودخل المدينة المنورة عند انتهاء الحرب الحجازية فمنحه والده لقب « أمير المدينة المنورة » وتولاها وكلاء عنه .

٥) خالد بن عبد العزيز : ولد في الرياض ١٣٣١ (١٩١٣ م) وصحب أخاه فيصلاً إلى الولايات المتحدة الأميركية . وانقطع لأعماله الزراعية . ولما تولى الملك فيصل عرش المملكة صدر مرسوم ملكي، سنة ١٣٨٤ (١٩٦٤م) بجعله « ولياً للعهد »

٦) ناصر بن عبد العزيز : أول من تولى إمارة الرياض بعد دخول الحجاز . مولده ١٣٣٧ (١٩١٩ م)

٧) سعد بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٣٧ (١٩١٩ م)

٨) فهد بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٣٨ (١٩٢٠ م) وتولى وزارة المعارف في أواخر أيام أبيه . واستمر بعد وفاته . ورأس عدة وفود سعودية لحضور اجتماعات مجلس الجامعة العربية في المغرب ولبنان . ثم ولي وزارة الداخلية وهي في عهدته إلى الآن . وضمت إليه نيابة رئيس مجلس الوزراء .

٩) منصور بن عبد العزيز : ولد في الرياض ١٣٣٨ (١٩٢٠ م) وهو أول وزير للدفاع .وتوفي مستشفياً في باريس ١٣٧٠ (١٩٥١ م) ودفن بمكة .

١٠) عبد الله بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٤٠ (١٩٢١ م) وهو الآن رئيس الحرس الوطني في الرياض .

١١) بندر بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٤١ (١٩٢٢ م)

١٢) سلطان بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٤١ (١٩٢٢ م) وتولى في عهد أبيه رئاسة الحرس الملكي في الرياض . ثم اختير وزيراً للزراعة . وقام برحلة إلى أوربا سنة ١٣٧٢ (١٩٥٣ م) وتولى وزارة الدفاع والطيران في عهد الملك فيصل . ولا يزال على ذلك إلى الآن .

١٣) مشعل بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٤٤ (١٩٢٥ م) وولي وزارة الدفاع سنة ١٣٧٠ (١٩٥١ م) ثم إمارة منطقة مكة المكرمة . وتنحى عنها، فانقطع إلى أعماله الخاصة .

١٤) مساعد بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٤٤ (١٩٢٦ م)

١٥) عبد المحسن بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٤٥ (١٩٢٧ م) وهو الآن أمير المدينة المنورة .

١٦) مشاري بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٤٩ (١٩٣٠ م)

١٧) متعب بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٥٠ (١٩٣١ م) وناب عن أخيه الأمير مشعل في إدارة وزارة الدفاع سنة ١٣٧١ (١٩٥٢ م)

١٨) طلال بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٥٠ (١٩٣١ م) وعين سفيراً في باريس فوزيراً للمالية فترة من الوقت في عهد الملك سعود .

١٩) عبد الرحمن بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٥٠ (١٩٣١ م)

٢٠) بدر بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٥١ (١٩٣٢ م) وهو الآن نائب رئيس الحرس الوطني بالرياض .

٢١) تركي بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٥١ (١٩٣٢ م) وهو الآن نائب وزير الدفاع والطيران .

٢٢) نواف بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٥٢ (١٩٣٣ م) وهو الآن المستشار الخاص لجلالة الملك فيصل .

٢٣) نايف بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٥٢ (١٩٣٣ م) وتولى إمارة الرياض . وهو الآن نائب وزير الداخلية .

٢٤) فواز بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٥٢ (١٩٣٤ م) وتولى إمارة الرياض في عهد الملك سعود . وهو الآن أمير منطقة مكة المكرمة .

٢٥) سلمان بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٥٥ (١٩٣٦ م) وهو الآن أمير منطقة الرياض .

٢٦) ماجد بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٥٥ (١٩٣٦ م)

٢٧) عبد الإله بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٥٧ (١٩٣٨ م)

٢٨) أحمد بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٥٨ (١٩٣٩ م) وهو الآن. وكيل إمارة منطقة مكة

٢٩) سَطّام بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٥٩ (١٩٤٠ م) وهو الآن وكيل إمارة الرياض .

٣٠) ثامر بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٥٩ (١٩٤٠ م) وتوفي بحادث في أميركا سنة ١٣٧٨ (١٩٥٨ م)

٣١) ممدوح بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٦٠ (١٩٤١ م)

٣٢) مشهور بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٦٠ (١٩٤١ م)

٣٣) هذلول بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٦٠ (١٩٤١)

٣٤) عبد المجيد بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٦١ (١٩٤٢ م)

٣٥) مقرن بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٦١ (١٩٤٢ م)

٣٦) حمود بن عبد العزيز .



شوارد، من سيرة الملك عبد العزيز

توقيعه على الصور :

كان توقيع الملك عبد العزيز بخطه، على الصور التي يهديها ، هكذا: « الواثق بالودود عبد العزيز السعود »

حرسه الخاص :

وكان إذا ركب سيارته وقف على جانبيها اثنان من رجاله ، يحمل كل منهما بندقية . ومع سائق السيارة بندقية خاصة به .

وإذا مشى راجلاً (قبل حادث المطاف) اكتفى بأن يسير خلفه حارس واحد ، مسلّح ببندقية ومسدس وخنجر وجنبية ، يتبعه حيثما سار . ويلازمه واقفاً خلفه في الولائم والمجالس ، حين يتغدى أو يتعشى أو يجلس في مجلس عام ، خارج قصره .

ولا يصلي حارسه مع الجماعة ، حين يكون في المسجد ؛ وإنما يستمر واقفاً يراقب كل حركة حوله . وهذه العادة جرى فيها عبد العزيز ، على سَنَن أسلافه ، منذ أن فوجىء الإمام عبد العزيز بن محمد ، بدرويش في مسجد الدرعية طعنه بخنجر وهو يصلي (سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م)

ثيابه :

وكانت ملابس عبد العزيز غاية في البساطة . فهي في الصيف ، ثوب من القماش القطني أو الكتان الأبيض ، تعلوه عباءة رهيفة . وفي الشتاء يلبس قميصاً من الصوف ، تحت الثوب الخارجي وهو من الصوف أيضاً . ولا يلبس الثياب المطرزة بالقصب بل يلبس الشال الكشمير أو السليمي . ويحتذي النعال في الصيف ، والكندرة (الحذاء) في الشتاء .

حمّامه :

كان يكثر من الاغتسال في الصيف والشتاء . فقد يغتسل ستّ مرات في أيام القيظ. ولا يقل استحمامه عن مرتين كل يوم في الشتاء، إلا لسبب صحي.

نظّاراته :

وكان يضع النظارات على عينيه . إلا أنه يقرأ بلا نظارات . وفي نظره إلى البعيد خاصةً ، حدّة شديدة .

مقاعده :

وكان له في كل غرفة اعتاد دخولها من غرف ديوانه ، مقعد خاص (فوتيّ أو كنبة) لا يجلس عليه أحد غيره ، في حضوره أو غيابه . وهو لا يختلف عن سواه من مفروشات الغرفة . وقد يجلس عليه أحد الزوّار الجدد فيشير إليه مدير المكتب بلطف أن هذا مقعد الملك ، فينتقل إلى غيره .

خاتمه :

وكان يتختم بخاتم فضي ، له فَصّ من العقيق ، عليه اسمه ، بشكل طغراء : « عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود » وفيه كسر قليل من جانبه . وله خاتم آخر ، إلا أنه قلما كان يستعمله .

ولما مرض مرضه الأخير ، أراد أطباؤه إجراء تخطيط كهربائي لقلبه ،

فاضطروا إلى إبعاد كل جسم معدني عنه ، واستأذنوه في نزع خاتمه ، فابتسم وقال : « هذه أول مرة أنزع فيها هذا الخاتم من أصبعي » فتأثر الأطباء لهذه الكلمة تأثراً عميقاً .

اصطيافه :

كان يفضّل الابتعاد عن الرياض في الصيف لشدة حرها ، ولا يطيق حرّ مكة . كتب إليّ يوسف ياسين في ٢٧ محرم ١٣٥٥ (١٩٣٦/٤/٢١) من جدة : سافر الملك اليوم إلى « عُشَيرة » وسيقيم فيها مدة شهر ، لأن مكة أصبح حرها لا يطاق . وهو لا يحب الطائف لأن هواءها لا يروق له .

أقول : وقد ألف الاصطياف بعد ذلك ، في « الحَوِيّة » على مقربة من الطائف . ويلاحَظ أن مناخ الطائف شديد الجفاف والحوية ألطف جواً منها.

راية للقبيلة المستقلة :

كان عبد العزيز يمنح القبيلة التي يأذن في انفصالها عن حُكم قبيلة أخرى « راية » للاستقلال : جاء في حديث لابن بليهد، عن قبيلة « العبابيد » أنها من العمورية الذين يرأسهم العقيلي وابن مغيرق ، وكانوا تابعين لرياسة أبي العلاء رئيس قبائل العصمة ، وأرادوا الانفصال عنه ، فطلبوا من الملك أن يخرجهم من رياسته ، ويعطيهم « راية » قال ابن بليهد : ولكن الملك أمرهم بالبقاء تابعين لرياسة أبي العلاء .

إبطال عادة :

كان من عادة أهل مكة : إذا كانت ليلة زفاف الفتاة ، لبست عقداً من التفّاح الصغير ، يصنعه رجل اختص بادّخاره وبيعه في جميع فصول السنة ، وكثيراً ما كان يبلغ ثمنه ثلاثة جنيهات . فلما دخل عبد العزيز الحجاز ، سمع بهذه العادة فأمر بابطالها .

الحج في عهد الملك عبد العزيز

بذل عبد العزيز في سبيل « الحج » وتأمين سبله ، كل ما كان يملك من جهد .

ولما كان قائماً على حصار جدة سنة ١٣٤٣ ﻫ (١٩٢٤ — ٢٥م) أذن لجنوده في الانسحاب من جبهة القتال أيام الحج ، فلم يبق هناك غير قوة صغيرة من الخيالة والهجانة .

وكان أكبر همّه في تلك السنة ، أن يستولي على بعض الثغور الحجازية ، كينبع والقنفدة ، تيسيراً لدخول الحجاج من البحر ، وهو يعلم أن مصير تلك الثغور مرتبط بمصير جدة .

وقبل أن تنشب المعركة بينه وبين الإمام يحيى ملك اليمن ، تعمد عبد العزيز التسويف فيها والتمهل إلى أن انصرف الناس من حجهم .

إدارة شؤون الحج

وكانت لشؤون الحج « إدارة » مرتبطة بوزارة المالية . بلغت ميزانيتها السنوية (عام ١٣٦٩ ﻫ) ٣٧٨٥٧٠ ريالاً سعودياً (نحو ٤٧ ألف جنيه استرليني)

أعمال الإدارة

ومن أعمال هذه الإدارة أن موظفيها يستقبلون الحجاج عند وصولهم إلى البلاد ، من البر أو البحر أو الجوّ ، لتيسير الإجراآت لهم ، ويهيئون أماكن نزولهم ، ويُعنون بحركة تنقلاتهم وتنظيم أمورهم ، حتى في تأدية المناسك ،

إلى أن يغادروا البلاد . وتقوم الإدارة بمساعدة إدارات الصحة والإسعاف والشرطة والبلديات في ترتيب الرحلات بين مكة والمدينة .

، ، ،

وأقامت الإدارة « مخيّمات » في المحطات الرئيسية لاستراحة الحجاج والنظر في برامج أسفارهم ومواعيدها ، و « مظلاّت » في ساحة « المناخة » بالمدينة .

وبنت نحو عشرين حماماً بذي الحليفة (آبار علي) وهي ميقات القادم للمدينة ، وستة حمامات وتوابعها في المخيم الحكومي ، في الشمال الشرقي خارج جدة ، حيث يأوي فقراء الحجاج عقب أداء الفريضة .

وأنشأت محطة إذاعية خاصة ، بمركز الإدارة في عرفات ، لإذاعة النشرات الحكومية عن الحج والحجاج ، ولإرشاد التائهين عن خيامهم ، وإعلان أسمائهم وأسماء مطوفيهم .

كما أنشأت مخيماً خاصاً بالتائهين ، في عرفات ومنى ، لإيوائهم وإطعامهم وإرشاد كل منهم إلى مقره ، وترحيل الباقين إلى مزدلفة ، من عرفات ، ومنها إلى منى ثم إلى مكة .

وكانت تصدر نشرات موسمية يومية بترتيب أفواج الحجاج حسب قدومهم وتنظيم مواعيد سفرهم إلى المدينة للزيارة بعد الحج ، وإلى جدة للعودة إلى بلادهم .

الوزارة

ولا تزال إدارة الحج العامة حتى بعد نموّها وجعلها وزارة مع وزارة الأوقاف ، تصدر مجلة شهرية باسم « الحجّ » تُعدّ من المجلات المفيدة في موضوعها .

شيء عن الحجاج

– استقبلت مدينة جدة من الحجاج في يومي ٤ و ٥ ذي الحجة ١٣٦٨ حوالي خمسة عشر ألف حاج .

– تراوح عدد القادمين جواً ، في موسم عام ١٣٦٨ (١٩٤٩ م) بين ٧٠٠ و ٧٥١ حاجاً يومياً فبلغ عددهم حوالي أحد عشر ألفاً وخمسمئة .

– وكانت شركة السيارات تنقل من جدة إلى مكة، في اليوم الواحد من أيام الموسم ، ما لا يقل عن ستة آلاف حاج ، ومن مكة إلى المدينة نحو أربعة آلاف حاجّ .

– وقامت الطائرات السعودية يومياً، في موسم سنة ١٣٦٨ (١٩٤٩ م) بنقل ما بين ٢٠٠ و ٢٥٠ حاجاً من جدة إلى المدينة .

– ورست في ميناء جدة في اليوم الرابع من ذي الحجة ١٣٦٨ ثماني بواخر أنزلت بجدة حوالي عشرة آلاف حاجّ .

– وفي ١٥ ذي الحجة ١٣٦٨ كان راسياً في ميناء جدة، لنقل الحجاج ، نحو عشرين باخرة .

– وبلغ مجموع الحجاج بحراً وجواً في موسم ١٣٧٠ (١٩٥١م) ١٠٠،٥٨٧ حاجاً ، عدا من جاء عن طريق البر .

رسوم الحج

كانت رسوم الحج باهظة إلى سنة ١٣٧١ هـ (١٩٥٢ م) وفي هذه السنة سُمع الملك عبد العزيز يقول : أمنيتي في حياتي أن أسقط عن المسلمين رسوم الحـج . .

روى لي هذا يوسف ياسين ، ثم قال : وما لبث الملك أن قال لي : أبرق إلى ابن سليمان باعفاء الحجاج من الرسوم. وأبرقت. فجاءه ابن سليمان يقول : يا طويل العمر ، ثلاثون مليون ريال . من أين أعوضها للميزانية ؟ فأجابه : دبّر نفسك ! وكان الإعفاء ...

العمـــال

صدر في أيام الملك عبد العزيز ، سنة ١٣٦٦ (١٩٤٧ م) نظام للعمل والعمال ، نقتبس منه الفقرات الآتية :

ـ العامل : كل شخص يُستخدم بأجرة ، بموجب اتفاق خاصّ أو عامّ.

ـ سير العمل : لا يجوز استخدام عامل دون العاشرة من العمر .

ـ أيام وساعات العمل : ستة أيام من كل أسبوع . وساعات العمل اليومي لا تزيد على ثماني ساعات . ويجب أن تتخللها فترة أو أكثر ، للصلاة في أوقاتها وللراحة ، لا تقل في مجموعها عن ساعة ونصف . ولا يجوز أن يشتغل العامل أكثر من خمس ساعات متوالية .

ـ للحكومة أن تأمر أصحاب المشاريع الصناعية بما يأتي : أ ـ إنشاء أندية وحدائق ومكتبات للعمال ، ومدارس لأولادهم ـ ب ـ تأسيس حوانيت لتأمين لوازم عمالهم من أنواع الأطعمة والألبسة الجيدة وغيرها ، بأسعار معتدلة ـ ج ـ إجراء كل ما يلزم للمحافظة على صحة العمال وعوائلهم وراحتهم وتحسين حالهم .

ـ لا يسمح لأيّ عامل بالاشتغال في مشروع صناعي ما لم يكن حائزاً على رخصة العمل الرسمية .

ـ العقد : إذا كان العقد مبرماً لمدة محدودة وانتهت المدة دون أن تنقطع خدَمة العامل اعتبر العقد مجدداً لمدة غير محدودة . وإذا كانت مدة العقد غير محدودة كان لكل من الطرفين الحق في فسخه وإعلان الطرف الآخر بذلك ،

على أن يكون الإعلان سابقاً للفسخ بالمدة الآتية ـ أ ـ بمدة ثلاثة أيام لعمال اليومية ـ ب ـ بمدة أسبوع للعمال ذوي الأجور الأسبوعية ـ ج ـ بمدة شهر للعمال المعينين بأجور شهرية .

فسخ العقد : يفسخ صاحب العمل العقد في حالات : منها التزوير للحصول على العمل ، والتقصير المتعمد ، وافشاء سر العمل .

ـ ويفسخ العامل العقد إذا لم يقم صاحب العمل بالتزاماته نحوه ، أو أساء التصرف معه .

ـ على صاحب العمل أن يدفع للعامل الذي يثبت مرضه في أثناء العمل ، نصف أجر أيامه ، مدة انقطاعه .

ـ تعويضات العامل باصابة أقعدته عن عمله : يدفع له صاحب العمل ٧٥ في المائة من أجرته ، وذلك بعد مضي سبعة أيام من تاريخ الإصابة التي يجب أن يستوفي فيها أجره كاملاً ، ويستمر دفع الـ ٧٥ في المائة إلى حين شفاء المصاب أو انتهاء مدة الإقعاد الموقت . وعلى صاحب العمل أن يقدم لعماله المعالجة الطبية . حتى في الأوقات التي تمنعهم إصاباتهم الجراحية من مواصلة العمل فيها .

ـ إجازات العامل : للعامل الذي يشتغل في مشروع صناعي يُستخدم فيه أكثر من عشرة عمال ، مدة سنة بصورة مستمرة ، أن يتمتع باجازة اعتيادية بأجرته الكاملة كل سنة عشرة أيام . على أن تعين مواعيدها بموافقة صاحب المشروع ، وإجازة مرضية بأجرته الكاملة عن كل سنة خمسة عشر يوماً على أن تكون هذه الإجازة المرضية مستندة إلى تقرير مصدق من مرجع صحي رسمي .

ـ أيام الأعياد الرسمية ، هي أيام عطلة ، ويجب أن يدفع المستخدِم أجوراً كاملة لعماله عنها .

مكتب العمل

وكان يتولى النظر في شؤون العمل والعمال في المملكة أيام الملك عبد العزيز مكتب المعادن والأشغال العامة ، وتحول فيما بعد إلى « مكتب العمل والعمال » وربط بامارة المنطقة الشرقية . ثم أُلحق المكتب بمجلس الوزراء وسمي « مصلحة العمل والعمال »

الوزارة

وكانت هذه المصلحة نواة لوزارة « العمل والشؤون الاجتماعية » التي أنشئت بعد وفاة الملك عبد العزيز بسبع سنوات . ويتولاها الآن سنة ١٣٩١ (١٩٧١ م) الشيخ عبد الرحمن أبا الخيل .

وقد أصدر كتاباً عن أعمالها سماه « لمحات عن وزارة العمل والشؤون الاجتماعية » باللغتين العربية والإنكليزية ، صدّره بمقدمة جاء فيها أن الوزارة تعتمد في جميع برامجها الإصلاحية على الأبحاث العلمية ، وتعتبر التخطيط أساساً للإصلاح الاجتماعي .

عبد العزيز ، وعبد الله بن الحسين

عبد الله بن الحسين منشىء إمارة شرقي الأردن التي سميت بعد ذلك « المملكة الأردنية الهاشمية » — كانت له مع رجال عبد العزيز، معركة في « تـُرَبة » تقدم ذكرها .

وتتابعت الأحداث ، فخرج والده « الحسين » من مكة ، ثم أخوه « علي » من جدة . وركب الأب باخرة حملته إلى العقبة ليحلّ « ضيفاً » على ابنه « عبد الله » في إمارته بالأردن ، فما لبث أن أقبل عليه الأمير عبد الله في معان يحدّثه بأن الإنكليز حذروه من أن بقاءه عنده سيتخذه عبد العزيز سبباً لاكتساح جنوبي الأردن . ونصحه في أن يرحل من جواره في « مَعَان » إلى منفاه في « قُبْرُس »

وانبعثت حوادث « ابن رفادة » ولعبد الله اليد الأولى فيها .

وتوسط أخوه فيصل بن الحسين والحكومة البريطانية ، بين الملك عبد العزيز والأمير عبد الله، فاعترف كل منهما بالآخر ، آخر ذي الحجة ١٣٥١ (آذار ١٩٣٣)

وعُقد اجتماع بعد ذلك في القدس ، حضره مندوبون عن حكومتيهما . ووقعوا « معاهدة صداقة وحسن جوار » تم ابرامها في القاهرة يوم ٢٨ رجب ١٣٥٢ (١٩٣٣/١٢/٢١)

وراح المترددون إلى مجالس « عبد الله » في عمّان ، يكثرون من نقل أحاديثه، إلى عبد العزيز ، وفيها ما يدل على الحقد . فكان عبد العزيز يقول : ليس في نفسي والله شيء عليه ، ما الذي أساء به إليّ عبد الله ؟ إنه قد أهدى إلينا في إبان احتياجنا، أكواماً من أنواع السلاح الحديث والعتاد والمؤن،

وعديداً من الخيل والجيش (الإبل) تركها لنا كلها ليلة « تربة »
وكان يُنقل هذا إلى عبد الله أيضاً .

هذا « التراشق » بالألفاظ بينهما ، وأمثاله من التصريحات ، ما كان شيء منه ليعوق سير المجاملات الدبلوماسية بين بلديهما . بل ما كان ليخفف شيئاً من حرارة عناقهما يوم قام عبد الله بزيارة عبد العزيز في الرياض ٢١ شعبان ١٣٦٧ (٢٩ يونيو ١٩٤٨) واستقبله عبد العزيز في مطارها .

وكان من أخلاق عبد العزيز ، كما علمنا من سيرته أنه : لا يحمل حقداً ولا يقتحم مجالاً للخلاف إلا بعد أن يستنفد كل وسائل المصافاة . وأعظم ما يدخل السرور عليه أن يكسب صديقاً جديداً ممن لا يعرف أو على الأخص ممن كان يعاديه .

بهذه الروح الطيبة ، استقبل الملك عبد العزيز ، الملك عبد الله . وأذاع بياناً في الصحافة قال فيه : إنني شديد الاغتباط بزيارة أخي ، صاحب الجلالة الملك عبد الله ، وإني أحسب هذا اليوم الذي شرف فيه مدينة الرياض ، يوماً سعيداً مخلداً وأعتبره عهداً مباركاً في تاريخ العرب الحديث »

وصرّح عبد الله فيما أدلى به للصحافة في الرياض ، بقوله : « لقد سرني أن أرى الرياض ويحصل لي شرف التعرف بجلالة الملك عبد العزيز شخصياً ، وإن كنت أعرفه عن بعد .. »

وبدأ تبادل التمثيل السياسي بين جدة وعمان ، في شوال ١٣٦٧ (أغسطس ١٩٤٨)

وتحولت « المجاملات » بين الرجلين فيما بعد ، إلى شيء مما يصح أن أسميه « الثقة » فتناقل الخاصة من رجالهما أن عبد الله قبل مغادرته الرياض . في زيارته هذه « أوصى » عبد العزيز بأبنائه خيراً ، وقال : هم وديعتي لديك يا طويل العمر .

ولم يهمل الملك عبد العزيز أمر الرعاية لأبناء الملك عبد الله بعد مقتله

كرم عبد العزيز

الكرم من سجايا العرب المحمودة قديماً وحديثاً ، وعبد العزيز اشتهر بالجود في عهدي ضيق ذات اليد وإقبال دنيا « النفط » على خزائنه . كان يعطي ويتلذذ بالعطاء وأخباره في هذا كثيرة .

أنشأ الدولة ، ودوّخ أعداءه ومنافسيه ، وأدخل في بلاده أنواع الإصلاح ، واشتهر بما انفرد به من الكرم ، وذلك كله قبل أن يدرّ النفط فيضه ، وقبل أن يكون له ولمملكته من الثروة ما ينهض به وبأعماله . ولما تدفق النفط أكمل ما بدأ .

العطايا للجهات وللوفود

يسمي ابن بليهد ، الجغرافي النجدي ، هِبَات عبد العزيز « زكاة » فيقول :

« أما الملك عبد العزيز ، فإنه يفرّق الشيء الكثير من الزكاة على الفقراء ، ثم يبعث السيارات تحمل النقود والأرزاق والحلل فتفرّق على جميع الجهات في رعيته . يفرقها أمناء وكتاب ، على أهل كل جهة يأتيهم المقرر لهم وهم في أماكنهم بغير طلب ولا تكلف . ثم تأتيه الوفود متتابعة إلى الرياض زرافات ووحداناً ، يأتيه من أعراب الرافدين وأعراب جلق (أعراب بادية الشام) وأعراب نجران وأعراب اليمن ، ومن مختلف الجهات ما لا يحصيه إلا الله . تأتي فتمتاح ، كأنها تمتاح من دجلة أو الفرات ، ويمتدّ هذا ستة أشهر . فلو أن رمل عالج ، كان نقداً لنفد . ولكن البركة واصلة فيما تحوي تلك الكف المباركة »

معرض العطاء

وبحسن الريحاني وصف « قصر السلطان » في الرياض ، قبل انضمام الحجاز ، وقبل المناداة بعبد العزيز ملكاً للعربية السعودية ، وقبل ظهور آبار النفط ، فيقول :

« لقد شاهدت معرض العطاء في الرياض ، بل كنت أشاهده كل يوم مدة إقامتي هناك ، وأعجب جداً لا لكرم هذا الرجل بل لإيمانه وثقته بالله مصدر الخير وولي النعم التي لا تزول . وإلا فكيف يؤمل بدوام حال تمكنه من العطاء في بلاد لا ثروة لها ثابتة دائمة . هناك حكومة فردية أوتوقراطية وديمقراطية معاً ، تبرأ من قواعد الإدارة والنظام كلها ، وبلاد ثلاثة أرباع مساحتها بادية قفراء ليس فيها من موارد الثروة غير الأنعام ، ورعية ثلثها من البدو وأكثرهم حتى اليوم لا يحسنون صناعة ما ، وإقليمٌ قيظه يحرق ويبيد وشتاؤه لا يَصْدق ولا يُحسن الوفاء فتجيء السنون المجدبة فتعقم المغاني ويعم البلاء ؟

— هذه يا طويل العمر « جريدة » بمن نوّخوا اليوم .

يقدمها إبراهيم (ابن جميعة) رئيس التشريفات ، فيقرأها السلطان ويكتب إلى جانب كل اسم ما يجب أن يُعطى صاحبه يوم ارتحاله .

عشرة آلاف ضيف :

ويقول حافظ وهبة : ربما كان عدد ضيوفه الدائمين لا يقل عن ٥٠٠ كل يوم . وقد يبلغ ضيوفه نحو عشرة آلاف ، تمتلىء بهم بيوت الرياض وبطحاؤها (تأتيهم الذبائح من القصر حيثما كانوا) .

لا يعترف بأنه كريم :

ومن العجيب أن عبد العزيز كان لا يؤمن بأنه كريم . قال يوماً لبعض جلسائه : يقول الناس انني كريم وما أنا بكريم .. إنني أعطي حين يجب

العطاء وأمنع حين يجب المنع ..

وهو بهذه الكلمة ، يضيف إلى الكرم العقل ووضع الشيء في موضعه وإن كان لم يذهب قصداً إلى هذا المعنى حين وصف نفسه .

يكرم كل زائر ووافد :

ما وفد على عبد العزيز قاصد ولا زاره إنسان، من أبناء الصحراء إلى أصحاب الرئاسات والعروش من الرجال والنساء إلاّ حبّاه منحة أو أهدى إليه هدية تتناسب مع صفته في المجتمع ومع حظوته لديه . وأكثر ما تكون المنحة نقداً من المال . وكثيراً ما تكون « بقجة » تحتوي على كسوة كاملة تتألف عادة من عباءة ـ أو أكثر ـ وعقال مقصب و « زبون » من الجوخ وغترة من شال كشمير وساعة ذهبية . وقد يضاف إليها خنجر ، وللكبراء سيف مرصع مع كسوة أو عدة كساوي . وللسيدات كسوة نسائية وعقد من اللؤلؤ أو سواه من الحلي والمجوهرات . وهو يسمي العطية « الشّرْهة » وما يُهدى إلى النساء « الصّوْغَة » وبقجة الملابس « الكسوة » يسره أن تُقبل منحته أو هديته ويسوؤه أن يُعتذر من عدم قبولها ، ويغضبه أن تُرَدّ .

في أسفاره :

كان يجعل إلى جانبه في أسفاره البعيدة ، حيث يتنقل بين القبائل ، كيسين . أحدهما للنقود الفضية والثاني للنقود الذهبية . وأقبل على سيارته أعرابي هرم ، فمد الملك يده يريد كيس الفضة ، وأخرج منه قبضة فكانت من كيس الذهب وبعد طرفة عين من التردد ، دفعها إليه ولاحظ أنه أعمى فقال له : ترى اللي أخذته ذهب .. لا يضحكوا عليك .. والتفت إلى من كان خلفه في السيارة وقال : سبحان الله . أردت أن أعطيه بعض الأريل ودخلت يدي في كيس الذهب فلما أخذت منه ، راودتني نفسي أن أرده وآخذ من كيس الفضة ، ولكنني قلت : هل تكون يدي أكرم مني ؟

بره بأبيــه

كان عبد العزيز بعد أن تولى الإمارة بالرياض ، يزور أباه الإمام عبد الرحمن في قصره ، صباح كل يوم .

أما والده فيزوره بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع . وعندما يصل ، يقفز عبد العزيز من مكانه فيستقبله ويقدمه إلى صدر المجلس (مقعد الإمارة) ويجلس هو بين يديه مع « الخُوِيّا » أو بين الزوّار .

وكان حين يخاطب أباه ، يجعل لنفسه صفة المملوك ، ويجلس بين يديه صامتاً ، ينتظر ما يأمره به .

، ، ،

قال متحدث : أذكر يوماً عدنا فيه من مكة إلى الرياض ، في ركاب الملك عبد العزيز ، وكان الإمام عبد الرحمن حياً ، فوصلنا إلى « مَراة » فبعث يستأذن أباه في دخول المدينة . وعيّن الوقت الذي يمكن أن يصل فيه إلى الرياض . وفي صباح اليوم التالي ، مشى حتى بلغ أسوار المدينة قبل الميعاد الذي حدّده بخمس وأربعين دقيقة ولم يشأ أن يدخل المدينة حتى بعث يستأذنه مرة أخرى . وقصد بيت أبيه ، فجلس في فناء الدار ما يقرب من ١٠ دقائق . ثم جاء الخادم وأخبره بإذن والده في الدخول عليه . فدخل وقبّل رأس أبيه وجلس على الأرض ، ووالده على أريكة ، ويد عبد العزيز على ركبة أبيه .

قال المتحدث : لم يكن عبد العزيز في ذلك الموقف ملكاً وإنما كان في

مظهر المتأدب المخلص المطيع . شأنه معه في سائر المواقف طاعةً وحبا .

، ، ،

وكان يرجع إلى أبيه في كل ما يهم من أمور الدولة . وقلما يعقد أمراً ذا بال إلا بعد استشارته واستئذانه . وكلما وردت على عبد العزيز رسالة لها أهمية خاصة أرسلها إلى والده ليطلع عليها أو ليبدي فيها رأيه .

، ، ،

ولما أراد عبد العزيز السفر من الرياض إلى الحجاز ، في أواخر سنة ١٣٤٦ (١٩٢٨ م) دخل على أبيه يودعه . وكان يخشى أن يكون هذا هو الوداع الأخير ، فكان يقبّل يديه ويسأله : هل أنت راض عني ؟.. فيجيبه الإمام، وهو جَلْد صبور : لا شك ! فيعود إلى يديه يقبلهما ، ويعيد السؤال : والدي هل أنت راض عني ؟... فيجيبه : لا شكَّ في ذلك ... وما زال يكرر السؤال ووالده يجيبه من داخل صدره برضاه ، حتى شفى نفسه .

وكان ذلك آخر اجتماع له بأبيه ، كما توقّع .

، ، ،

وتحدث فلبي عن أول مرة رأى فيها الملك عبد العزيز سنة ١٣٣٣ (١٩١٥ م) فقال ما خلاصته :

دخلت الرياض يصحبني الكولونيل كانليف أوين ، وجندي يخدمنا ، وقد ارتدينا الملابس العربية . وكان في استقبالنا إبراهيم بن جميعة فدخل بنا القصر ، إلى غرفة كان فيها شيخ ضئيل الجسم في نحو السبعين من عمره سلمنا عليه ودعانا إلى الجلوس وجيء بالقهوة ، وهو يسأل عن أحوالنا . ويلاطفنا .

قال فلبي : وبينما كنت أقول في نفسي : من هذا ؟ وأين ابن سعود ؟ إذا بالشيخ ينهض متمهلاً ويقول : مرحباً بكم . حديثكم مع الابن عبد العزيز..

وما كاد يتوارى حتى انتصب من زاوية المجلس عملاق أقبل علينا ، فعرفنا أنه سيد الجزيرة وكان منطوياً على نفسه تأدباً في حضور أبيه ، وكأن عيني لم تقع عليه ..

في الحَـــرم المكي

قال أحد المصنّفين عن عهد الملك عبد العزيز : حدثني شيخ كبير ، من علماء مكة ، قال :

لما استقرت الأمور للملك عبد العزيز في الحجاز ، حضر والده الإمام عبد الرحمن بن فيصل آل سعود من الرياض ، ليؤدي فريضة الحج ، فدخل المسجد الحرام يطوف ، ومعه ابنه عبد العزيز . فطاف الوالد والولد . ولكن الأب كان قد جاوز المئة (؟) من العمر ، ضعيفاً لا يقوى على المشي والتعب . فأدركه الإعياء فهبط على الأرض بعد ثلاثة أشواط من الطواف . فما كان من ابنه عبد العزيز الذي كان في وسعه أن يصدر الأوامر إلى خدمه وعبيده بأن يحملوا أباه على أكف الراحة ، إلا أن حمل والده على مرأى من الناس جميعاً ، وأتمّ بقية الأشواط

في أواخر أيامه ، ووفاته

كان عبد العزيز يحبّ الحياة . ويحب أن يتمتع بكل ما يستطيع المتعة به ، مما أحل الله له ولسواه . ومرض بتصلّب الشرايين ، فلم يترك شيئاً من عاداته في أعماله المنظمة مواعيدها .

وانتقل من الرياض بالطائرة إلى الحجاز ، في ٢٨ ذي القعدة ١٣٧٢ (١٩٥٣/٨/٨) فنزل في الحويه (مصيفه المعتاد) وتوجه بالسيارة إلى الطائف متجلداً ، ليسلّم عليه الناس ويروه .

ولم يتمكن من ترؤس الحج ، ذلك العام ، فناب عنه ولي عهده .

وأمضى زهاء ثلاثة أشهر بين الحوية والطائف . أكثرها في الأولى وقد اشتد عليه المرض فيها ، إلى أن ابتدأت سكرات الموت .

وممن كان إلى جانبه في حال النزع . ولداه سعود وفيصل ، فكان لا يرفع بصره عن أحدهما حتى يرمق به الآخر . ولم ينقطع عن ترديد حضهما على التعاون والعمل معاً . وآخر ما سُمع منه : فيصل .. أخوك سعود .. سعود ! أخوك فيصل . وكرر جملة « لا حول ولا قوة إلا بالله ، الحمد لله أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » وأسلم الروح .

وكانت وفاته ضحى الاثنين ٢ ربيع الأول ١٣٧٣ (١٩٥٣/١١/٩) وصلي عليه في الحوية . ونُقل في الحال بالطائرة إلى الرياض ، فدفن في مقبرة أسلافه من آل سعود .

اسماء وعنــاوين

— من محتويات الكتاب —

طبع على مطابع
الشركة العالمية للطباعة "بيرال"
بيروت لبنان
سنة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م